مكتبة نوبل

١٩٠٩

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

سلمى لاغرلوف

مُغامَراتُ نيلزْ العَجيبَة

ترجمة: خضير اللامي

تقديم: علي بدر

مغامرات
نيلز العجيبة

اسم المؤلف: سلمى لاغرلوف
Author: Selma Lagerlöf
عنوان الكتاب: مغامرات نيلز العجيبة
Title: Nils Holgerssons underbara resa genom Sverige
ترجمها عن الإنجليزية: خضير اللامي
Translator: Khudair Al-Lami
تَقديم: علي بدر
Presentation: Ali Badr
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
Cover Designed by: Majed Al-Majedy
الناشر: دار المدى
P.C.: Al-Mada
الطبعة الأولى: 2018
First Edition: 2018
جميع الحقوق محفوظة: دار المدى
Copyright © Al-Mada

دار المدى للإعلام والثقافة والفنون

بغداد: حي أبو نؤاس - محلية 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا - شارع ليون- بناية منصور - الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد - متفرع من شارع 29 أيار

almadahouse@net.sy

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

سلمى لاغرلوف

مغامرات نيلز العجيبة

ترجمة: خضير اللامي
تقديم: علي بدر

https://linktr.ee/books4ar
مكتبة Telegram Network 2020

مقدمة

الكتاب العجيب والأفق السردي للمعرفة

بقلم علي بدر

تعود أصول المغامرات الرائعة لنيلز هولغيرسون إلى الأدب العجائبي دون شك، ولكن ليس من دون إليغوريات قومية، خصت بها الكاتبة سلمى لاغرلوف الجغرافيا والثقافة السويدية بصورة غير مسبوقة في التاريخ الأدبي، ومن هنا برزت علامات خلود هذا الكتاب وانتشاره العالمي، كعمل قل نظيره في التاريخ الأدبي.

***

مؤلفة هذا الكتاب هي سلمى لاغرلوف التي ولدت في العام 1858 في عائلة مكونة من ستة أطفال في أقليم مارباكا في مقاطعة فارملاند، في شمال السويد، على الحدود النرويجية، وعملت معلمة في بلدة لاند سكرونا، لمدة عشرة أعوام تقريباً قبل أن تحصل على شهرة واسعة بسبب نشر روايتها الأولى «ملحمة غوستا برلنغ» في العام 1891، فانخرطت في مسيرة أدبية حافلة بالإنجازات الكبيرة، حيث أصدرت: «الروابط غير المرئية» 1894، «عجائب المسيح الدجال» 1897، «ملك البرتغال» 1900، «كنز السيد آرني» 1904، «مغامرات نيلز العجائبية» 1906، «البيت العتيق» 1910، «مارباكا» 1922، «ذكريات من طفولتي» 1930، و«يوميات سلمى لاغرلوف» 1932. تتوجت هذه المسيرة أخيراً بالحصول على جائزة نوبل للآداب في العام 1909، وهي أول امرأة تحصل على هذه الجائزة التي انطلقت في العام 1901، ولم تتوقف مسيرتها الأدبية عند هذا الحد مع هذه الجائزة الكبيرة، إنما أصبحت هي أحد مانحيها، حيث انضمت في العام 1914 لتكون أحد أعضاء الأكاديمية السويدية، وعضواً في لجنة التحكيم التي تمنح جوائز نوبل، حتى وفاتها في ستوكهولم في العام 1940.

***

كتبت سلمى لاغرلوف كتاب مغامرات نيلز العجيبة بناء على طلب وُجّه إليها في العام 1902 من «جمعية المعلمين الوطنية»، والغرض هو كتابة كتاب للجغرافيا يتم من خلاله

التغلب على صعوبات هذا الدرس للطلاب ونفورهم من المادة التعليمية، مما يؤدي إلى جهل الطلاب بأحوال السويد وثرواتها وتنوع مناطقها.

فكرست له الكاتبة ثلاث سنوات من حياتها تجوب فيها الأقاليم السويدية وتتعرف على أشجارها وحيواناتها وتضاريسها وسكانها وأساطيرها وأغانيها الفولكلورية ومختلف المستويات اللهجية للغتها لتذيبه على نحو بارع في كتابها الذي صدر جزؤه الأول في العام 1906 وصدر جزؤه الثاني في العام التالي. وقد أحدثت لاغرلوف في هذا الكتاب تجديداً جذرياً في اللغة السويدية سواء أكان على المستوى النحوي أو البلاغي وحتى اللفظي، فقد أدخلت العديد من الاستخدامات اللغوية المحلية إلى اللغة السويدية، فأصبح نقطة بارزة أو علامة على تحول في الاستخدام اللغوي على المستوى الوطني. وكان النجاح الفوري الذي حققه الكتاب، والشهرة السريعة التي حققها على المستوى الوطني قابله موافقة الدولة السويدية والأكاديمية السويدية على نحو خاص على مشروعها في التجديد اللغوي، وتقريظاً لما صنعه هذا الكتاب في التحول اللساني والنحوي والمعجمي، فأحدث الكتاب ثورة وتحولاً هائلاً في هذا البلد الاسكندنافي البارد والبعيد ذلك الوقت عن أوروبا، وأحدث في البلاد، بل وفي العالم، لسرعة ترجمته إلى لغات أخرى، تحولاً في البيداغوجيا التعليمية، وأثراً هائلاً في إمكانية السرد على تقديم مادة علمية على نحو ممتع ومؤثر في مراحل عمرية مهمة في السياق الوطني والسياسي والثقافي العام للبلد.

***

حكاية نيلز هولغيرسون، حكاية بسيطة، لكن المنحى الذي تسير فيه ينطوي على لمحات عبقرية، ومقارباتها للنمط الحكائي الأسطوري جعلها فائقة للحدود العادية. فالحكاية الإطارية تتمثل بالفتى نيلز الذي لم يبلغ من العمر سوى أربعة عشر عاماً، غير أنه يتمتع بخيال خلاق وطاقة غير مستنفدة بأي فعل نافع، وقبل أن يتحول إلى أمثولة أخلاقية كان ولداً شريراً يؤذي كل الكائنات التي تحيط به، ويعتدي على كل من يراه من أطفال الجيران، ولا يسلم منه حتى صغار الحيوانات. وبالرغم من محاولات والديه الفلاحين الطيبين إصلاحه إلا أن مصير جهودهما كان هو الفشل دائماً، حتى يلتقي صدفة بقزم يتمتع بقوى سحرية خارقة، فيحاول نيلز بطريقته المتعجرفة والغليظة إيذاءه والسخرية منه، فيغضب القزم منه ويمسخه إلى قزم مثله. هكذا يجد نيلز نفسه في حقل آل هولغيرسون قزماً إلى جانبه إوزة تتطلع دائماً إلى أسراب الطيور المهاجرة، فتشعر بالحسد والغيرة للحرية التي تتمتع بها هذه الطيور

وقدرتها على التحليق والذهاب إلى عوالم أخرى، بينما هي حبيسة هذا المكان وحده. ويحدث في تلك اللحظة أن يمر سرب من هذه الطيور الضارية عابراً السماء، راحلاً إلى جهة من جهات الأرض المجهولة. فتنطلق الإوزة لاحقة به، وقد تعلق برقبتها الفتى نيلز القزم، كان مرتعباً أول الأمر من هذه التجربة الجوية برفقة كل هذه الطيور المهاجرة، ثم يتحول إلى مراقب وراصد لكل ما يصادفه من أشخاص أو أراضٍ أو أشجار أو أنهار أو نباتات. فراح يتعلم من الحياة ومن الأحداث التي تمر به، ليصنع في النهاية دروساً أخلاقية، ومعاني إنسانية، تحوله من فتى شرير يؤذي كل من حوله إلى فتى مفعم بالإنسانية، مخلص في العمل، يقدم المساعدة لمن يحتاجها، ومشهود له بحب الآخرين.

إن تفسير لاغرلوف Lagerlöf لهذه المهمة التعليمية المملة هو الذي كسر حدود النموذج التقليدي، فقدمت عملاً نادراً لا على مستوى الحكاية فقط إنما على مستوى اللغة التي وسعت حدود استخدامها، بالأساليب العامية والمفردات اليومية، وشحنتها بطاقة شعرية واسعة الثراء، ومدتها بأسس أخلاقية قوية وسليمة تسمح لروح الطفولة الشقية أن تتحول ولتغدو عبر التجارب القاسية صحيحة.

إن براعة سلمى لاغرلوف في هذا الكتاب، من وجهة نظري، تكمن في تقديمها لرائعة أدبية حديثة مبنية على طريقة الحكايات الفلكلورية التي ينتجها عادة العقل الجمعي للشعوب والذي يتطور وينسج على مر التاريخ، حتى يصعب عليك أن تميز هذا الكتاب من أية قطعة فلكلورية، بل أصبح هذا الكتاب على غرار الكتب الفلكلورية الأوروبية حكاية شعب ووطن وأمثولة علمية وأخلاقية وإنسانية في الوقت نفسه. بل أصبح الكتاب السويدي الذي يُقرأ أكثر من أي كتاب آخر في هذا البلد الاسكندنافي، كما أنه الكتاب الذي قُلّد أكثر من أي كتاب آخر في الأدب الحكائي الموجّه للصغار.

***

لا يقف هذا الكتاب عند حدود براعته الأدبية والتخييلية فقط، إنما يتعداها إلى وظائف أخرى، ذلك أن السويد شكلت بأكملها خلفية للمغامرات العجيبة، من المناظر الطبيعية، والمشاهد البحرية، إلى البلدات المتنوعة التي تحفل بالحياة الزراعية والحيوانية والتي تم صياغتها على نحو دقيق وحذر. وبالرغم من التحول في شخصية نيلز الذي يؤدي إلى نوع من الاغتراب الصادم، من خلال تمزق هذه الغلالة التي كان يحفل بها وهي الفضاء المحلي الآمن، إلا أنه يدرك أنه من الصعب تحقيق الاحتياجات البشرية الأساسية التي أخذها كأمر

مسلم به، من دون عمل جدير بالاحترام، ومن هنا تتواشج الاليغوريات الوطنية بالأخلاقية وتصبح هذه المؤامرة السحرية التي يتعرض لها في تحوله إلى قزم، هي نسيج حي من الفلكلور السويدي المثير للاهتمام. وما يعطي الكتاب مهاراته ، وينقذه من السقوط في التعليم الأخلاقي المباشر، هي أن لاغرلوف تجنبت الحلول التبسيطية والقيم السهلة فجعلت منه نصاً غنياً وحكيماً. إلى الدرجة التي تكون الحياة الحرة والبرية فيها لطفل ليست عملاً صادماً، إنما مغرية على الفور.

***

هذا الكتاب المنسوج بطريقة رائعة كحقائق من التاريخ والجغرافيا والحياة البرية مع مزيج من الحكايات الشعبية والخرافية، حصل على شهرة واسعة، وسريعة جداً، وتحول إلى حكاية شعبية، مثيرة، ومؤثرة، وترجم إلى العديد من لغات العالم، وتحول إلى أفلام متحركة، وكتب عنه الكثير، وقد أحسنت دار المدى صنعاً بتقديم هذه الرائعة الأدبية للقارئ العربي، فهو كتاب يقرأ على نحو بالغ الجدية، يقرؤه الكبار والصغار معاً، مثله مثل كل الكتب الخالدة.

هذا الكتاب

طبع هذا الكتاب، الذي يُعدّ آخر أعمال أعْظم كاتبة روائية سويدية، في ستوكهولم، في شهر ديسمبر/كانون الأول، 1906. وتحوّل مباشرة إلى أكثر الكتب شعبية سنة صدوره في الدول الاسكندنافية.

في سنة 1902، تسلّمت المؤلفة منحة منْ منظمة المعلّمين الوطنية، لتكتب لقرّاء المدارس الشعبية.

وقدْ كرّست الروائية ثلاث سنوات لدراسة الطبيعة، وعايشتْ حياة الحيوانات والطيور. كما بحثتْ في أدب فولكلور وأساطير المحافظات السويديّة كافة، وحاكتْها ببراعة في روايتها هذه.

تُرجم الكتاب إلى اللغتين الألمانية والدانماركية، ثم تلتهما الطبعات الفرنسية والروسية والفنلندية إلخ... وأجْمع النقاد في الدانمارك وألمانيا، على أنّ هذا الكتاب هو أفضل ما كتبتْ سلمى لاغرلوف.

قال أحد النقاد: «إننا لمْ نجدْ منذ زمن هانس أندرسن، ولمْ نقرأْ كتاباً في أدب اليافعين الاسكندنافيين، يُقارن بهذا الكتاب البارز». وكتب ناقد آخر: تمْلك الآنسة لاغرلوف نظرة فاحصة في كتاب سيكولوجية الحيوان لرويارد كيبلينغ.

أمّا صحيفة ستوكهولم اليومية، فتقول منْ بين أشياء أخرى: تقف المؤلفة العظيمة، كما لوْ كانت في الخلف. ونسيت النبيّة تلك الأصوات التي تتحدث منْ خلالها. رغم أنّ الكتاب يبرز مباشرة منْ روح الأمة السويدية.

وتكتب جريدة جنوب السويد اليومية: «الشيء الهام في هذا الكتاب هو: بينما يتابع القارئ المتعة بأنفاس متقطعة بتغيّر المشاهد والمغامرات، فإنه يتعلّم أشياء كثيرة، من دون أنْ يشْعر... ذلك أنّ خيال المؤلفة المفتوح في الغالب لا ينضب ثراؤه في إبداع مغامرات جديدة متغيرة دائماً. تخبرنا بطريقة مقْنعة تجْعلنا دائماً نصدّقها...».

وكما أنّ القراءة مسلّية للأولاد، فإنّها كذلك تكسبهم معرفة أنّ المزْج الجوهري بين الحقيقة والخيال، هو من المهارة الفنية، بحيث يجد القارئ من الصعوبة بمكان أنْ يميّز متى ينتهي

ومتى يبدأ. إنه كتاب أصيل... كتاب رائع.

أمّا صحيفة غيفلي بوسطن فتقول: إنّ المؤلفة هنا - دائماً- ساردة القصة العظيمة. ربما هي الأعظم في الأدب الاسكندنافي، منذ عصر هانس كرستيان أندرسن. كتاب يبقي خيال الأطفال يترْعرْع على أدبيات أشبورنسن، وأندرسن، وقصص «ألف ليلة وليلة». وستبقى مغامرات نيلز هي الثمينة دائماً.

وتؤكد صحيفة غوتنبيرغ: «تمنحنا سلمى لاغرلوف نسغاً صاعداً إلى الأمام. إنها إحدى النساء، اللائي وضعناها في زماننا في المقام الأول... ومن بين الأعمال الأخرى التي أنجزتْها لنا، ولأطفالنا، أنها أعادتْ خلق جغرافيتنا. وعبر طريق المخيال، بحثتْ لتفتح قلب الطفل من أجل فهم الحيوانات بلباقة وسخرية، بهدف تغذية العقول المتلهفة للمعرفة والفهم الشموليْن لعادات وشخصيات الحيوانات المختلفة. إنّها تحْملنا معها... وتشكّل لنا – شباباً وكباراً – نغمة طفولة جديدة تتماهى مع أفكار عصرنا. ما هو الشيء الذي لمْ تلمسْه في هذا الكتاب المدهش؟... كما هو موغلي[1]، الذي كان مفتاحاً لكلّ لغات الغابة، فإن الإنسان يجد طريقه إلى جميع قلوب إخوانه وأخواته الصغار في عالم متحضّر عظيم، وهكذا يقود ثمبيتوت موطن الجنّ إلى نفس الطفل العطشى، ليس على الطريق السريع للمغامرات، وإنما أيضاً على طريق الجدية والتعلّم».

ويقول ناقد آخر: «ورغم الشكوك جميعها، فإنّ كتاب مغامرات نيلز العجيبة، هو واحد منْ أعظم الكتب التي تستحق أنْ تطبع بلغتنا. وأقول، ليس هناك أمّة لديها مثل هذا النوع من الكتب. ويستطيع المرء أنْ يخلق هذا أو ذلك التعليق على هذه المرحلة أو تلك. ولكنْ بشكل عام، يمنحنا الكتاب انطباعاً عنْ براعة الكاتبة، وكم هي عظيمة، وكم هي أصيلة في سويديتها. إنها تجْعل المرء يشعر بشعور الامتنان لشرف قراءة مثل هذا الكتاب. وثمة فهم عميق لاتجاه خفيّ للهفة السويدية كلها خلال رواية نيلز. إنّها تعود إلينا. إنّها جزء منا».

وتكتب صحيفة ني تيد: «يحتوي كتاب سلمى لاغرلوف، على مثل هذه المعلومات تماماً... كلا، مرتين بوصفنا قراءً كباراً. إنّها تعرّف الأطفال على الطبيعة السويدية؛ وتمتّعهم في عالم طيورها، بما فيها الأليفة أو البريّة؛ في محلّيتها وحيوانات غاباتها، وحتى في فئرانها. إنّها تشرح نباتاتها، وتربتها، وتشكيلات جبالها، وظروفها المناخية. إنّها تقدّم لك العادات، والخرافات، والحكايات الشعبية في المدن كافة. وتقدّم لنا صناعة الحقول، والمزارع، والمصانع، والمدن وكابينات المزارعين ومربي الكلاب. إنها تملك الكلمة في كل شيء،

للاستمتاع، ولكل شيء أيضاً. ونلفت انتباه القارئ، إلى أنّ هذا الكتاب لم يكتب للهواية، أو كتبته لجنة مدرسية... بل على العكس تماماً، فقد كُتب، بموهبة عالية؛ وبروح دافئة نبوئية، للأطفال الذين لا يستطيعون العوم في حوض سباحة مضطرب كيْ يصطادوا السمك بطريقة عشوائية، ولكنْ بمرآة صقيلة وصافية. وبهذا، فقد حققت المؤلفة مهمّتها، بطريقة مقنعة تماماً. إذ لديها الخيال والمهارة لتمزج كلّ مادة السفر الجاف والطبيعة بجمال هارموني للأسطورة. وعرفت كيف تمزج المفيد بالجمال ومن دون حذلقة عملية أو جمالية لم تحلم بها. وقد حوّلتْ ثمرة المعرفة وحذلقة الثقافة إلى لعبة طفل – إلى متعة. وكان أسلوبها هو الأبسط في الرواية – يمتاز بالرشاقة كيْ يتمتع به الطفل... وكان تعبيرها صادراً من أعماق قلبها من دون صخب؛ بل لعبة ومرح من دون أنْ تتحول إلى ثرثرة. وعملها هو نموذج لنص كتاب؛ وتماماً، بعد كل ذلك، هو عمل فني منجز».

أما صحيفة الصباح في غوتنبيرغ فتقول: «إنّ عظمة شهرة عملها الفني، يتقدم إلى الأمام من دون صوت معارض؛ إنّه يملأ أرضها، ويسافر بعيداً ممتداً خارج حدود وطنها... تماماً وبتواضع تؤشر إلى الأخلاق برقة شديدة، وبطريقة مخفيّة تمنحنا المعلومة. وكلّ شيء يأتيك منْ خلال المغامرة أو منْ خلال الصور الثابتة لشكل يرغم المتلقي على الخيال... لا أحد يحفظ دقائق تصرفات طفله، باستطاعته أنْ يهرب منْ سحر أصالة الشعر في رواية مغامرات نيلز».

والتاريخ الجديد للشعر، المعنْون «Frauen der Gegenwart» تأليف: د. ثيودور كلايبر، يعرّف الآنسة لاغرلوف بوصفها أعظم امرأة كاتبة في عصرنا، ويقول إنّها تستقبل ولاء العاطفة ذاته لفنّها في الأوطان الأخرى تلك التي منحتها في السويد. ولم ير الدكتور كلايبر فيها شاعرة حالمة منزاحة بعيداً عن العالم. بلْ، يجد فيها قوة وشجاعة في هذا الشأن. لكنها ترى الحياة بعين أخرى كما يراها شعبنا الآن. ويتحوّل العالم كلّه إلى ملحمة وأسطورة...

وقال الدكتور كلايبر: «لقد بادلت لاغرلوف أغلب المؤلفين المعاصرين لها، الحنان في كلّ شيء، ولمْ تتراجعْ ولمْ تسأم أبداً».

وختم تورستون فوغلكفست، الكاتب السويدي المعروف جيداً، عرضه لهذا الكتاب بهذه العبارات: «تمتلك قائدتنا رؤية واضحة في كل الاتجاهات، وبأمومة. إنّها تتكلم اللغات كلّها: لغة الحيوانات، ولغة الأزهار؛ ولكنْ، أولاً، وأخيراً، لغة الأطفال. وأفضلها جميعاً تلك

اللغة، التي بتأثير سحرها، ترغم كلّ واحد منا على أنْ يتحول إلى طفل...».

فيلما سوانستون هوارد

- إحدى شخصيات كتاب الأدغال. المترجم

الفصل الأول
الصبي

القزم

الأحد، العشرون منْ شهر آذار/ مارس.

في يوم من الأيام كان هناك صبي. دعونا نقل، بأنه يبلغ، تقريباً، الرابعة عشرة منْ عمره؛ وهو طويل، ومنفلت، وممْتعض، وشعر رأسه ناعم. ولمْ يكنْ هذا الصبي يبعث على الراحة تماماً. متعتاه الأساسيتان هما الأكل والنوم وحسب. فضلاً عنْ ذلك، فهو يميل إلى القيام بأعمال مؤذية.

في صباح يوم أحد، كان والدا الصبي يستعدّان للذهاب إلى الكنيسة. كان الصبي، الذي يرتدي قميصاً ذا أكمام طويلة، يجلس على حافة المنضدة، يفكر ويتحاور مع نفسه، كمْ كان محظوظاً لو أنّ والدته ووالده سيذهبان لقضاء بعض السويعات على ساحل البحر الصافي. «حسناً! أستطيع الآن أنْ آخذ بندقية الفلّين وأطلق رصاصة منها، من دون أنْ يتدخل أحد».

لكنّ الأب في الغالب، وكما لو أنه قد حدس بما يدور من أفكار في رأس الصبي، وبينما هو على عتبة الباب تماماً، توقف قليلاً، واستدار باتجاه الصبي وقال: «ولأنك لا تريد الذهاب إلى الكنيسة مع أمك ومعي، فعلى الأقل يمكنك أن تقرأ بعض آيات الإنجيل في المنزل. هل تقسم لي أنْ تقوم بذلك؟». «نعم، أستطيع ذلك بمنتهى السهولة»، قال الصبي مفكراً، إنه لا يستطيع أنْ يقرأ بالطبع بما فيه الكفاية، ولنْ يستطيع أنْ يقرأ أيّ شيء أكثر من أن يتظاهر بالقراءة.

فكّر الصبي، أنّه لم يكنْ يشاهد أمّه تسير بهذه السرعة. وبلمح البصر تتناول تفسير لوثر للإنجيل منْ أعلى الرف، وتضعه على المنضدة أمام نافذة الشباك: «افتح تراتيل صلاة اليوم». ثم إنها، وفي الوقت نفسه، فتحتِ العهد الجديد ووضعته إلى جانب التفسير. أخيراً، سحبتْ كرسيّاً كبيراً ذا مسندين اشترته منَ المزاد العلني للأبرشية قبل سنة، وهو مخصص فقط للأب كي يجلس عليه.

جلس الصبي هناك، وهو يفكر أنّ الأم قد أزعجته كثيراً، لأنّ الصبي ليست لديه نيّة القراءة

أكثر من صفحة واحدة أو أكثر بقليل. ولكن الآن، وللمرة الثانية، كان في الغالب كما لو أنّ والده كان بإمكانه أنْ يرى ما هو صحيحاً من خلال تصرفه. اقترب من الصبي، وقال بلهجة قاسية: «والآن تذكّر أنه ينبغي عليك أنْ تقرأ باعتناء! لأنني حين أعود، سأسألك بدقة؛ إذا تحايلت على أيّ كلمة، فلن يكون الأمر في صالحك».

أضافت أمّه: «إنّ الصلاة تتكون منْ أربع عشرة صفحة نصفها طويل. اجمع بعضها ببعض، كما كانت في السابق. ينبغي عليك الجلوس لتبدأ القراءة حالاً، إن كنت تريد إنجازها».

وبذلك، غادر الوالدان. وبينما كان الصبي جالساً على عتبة الباب، وهو يراقبهما، شعر بأنه وقع في الفخّ. فكر الصبي: «إذاً، لقد غادرا وهما يهنئان نفسيهما، كما أفترض، بأنهما يتوقعان أنني سأقوم بعمل جيد طوال الوقت الذي هما غائبان فيه».

وبالتأكيد فإنّ والديه لمْ يهنِّئا نفسيهما في الحصول على أيّ شيء من هذا القبيل؛ وعلى العكس من ذلك، فإنهما سيكونان حزينين. إنّهما فلاحان فقيران، وإنّ مكانهما ليس أكبر من مجرّد مساحة حديقة. وحين انتقلا إلى هناك أول مرة، فإنّ قطعة الأرض لم تطعمْ أكثر من خنزير واحد وزوجيْ فراخ دجاج؛ لكنهما كانا كادحين وبارعين، والآن هما يملكان أبقاراً وإوزات. وتحوّلت الأمور بطريقة جيدة لصالحهما؛ فهما يستطيعان الذهاب إلى الكنيسة في ذلك الصباح يملؤهما الرضا وتغمرهما السعادة،ما لم يكونا يفكران بابنيهما. لقد اشتكى الأب أنّ ذلك الصبي غبي وكسول؛ فهو لا يهتم كثيراً بأنْ يتعلم أيّ شيء في المدرسة، وهو بهذا لا يصلح للمدرسة، وأنه نادراً ما يعنى بالإوز. وأمه لا تنكر حقيقة ذلك؛ وهذا ما يزيد من حزنها لأنه متوحش وسيئ وقاسٍ مع الحيوانات، وعنده نزعة وحشية تجاه الناس. قالت الأم: «ألتمس من ربي أن يليّن قلبه القاسي ويخلّصه من هذه النزعة القاسية. وإذا لم يحدث ذلك، فسيرافقه ويرافقنا البلاء».

وقف الصبي هناك لمدة طويلة يتأمّل فيما إذا كان يقرأ الطقوس أم لا. وأخيراً، وصل إلى قرار، أنه من الأفضل له أنْ يخضع للطاعة في هذا الوقت. جلس على الكرسي المريح، وبدأ يقرأ. ولكنْ، حين بدأ يلفظ الكلمات بصوت خفيض، بدتْ هذه التمتمة تفعل مفعولها به، وبعثت فيه النعاس، وبدأ رأسه ينود.

إنّ الجو رائع في الخارج! إنّه العشرين من شهر مارس/آذار؛ لكنّ الصبي يعيش في أبرشية ويست فيمنهوغ جنوب مقاطعة سكونه؛ حيث فصل الربيع الآن في ذروة عنفوانه. ولمْ يبدُ أنّ

الأرض بدأتْ بالاخضرار، ولكنها طازجة وذات براعم. وهناك مياه في الخنادق، وآثار أقدام على حافة الخنادق علامة الرّيعان، وجميع الأعشاب التي تنمو من منافذ الحجر كانت جوزية ومشرقة. وخشب الزان على مدى المسافات بدأ يزدهر وينمو ويكبر مع كل دقيقة. كانت السماء عالية، وصافية جداً، وباب الكوخ يبدو أنه مفتوح. ويسمع صفير القبّرة في داخل الغرفة، وقوقأة الدجاج والإوز في باحة الكوخ، أما البقرات، اللاتي يشعرن بنسيم الربيع في مرعاهنّ، فيحنين رؤوسهنّ علامة الاستحسان بين الحين والآخر.

والصبي يقرأ وينود برأسه، ويصارع النعاس. فكر: «كلا، لا أريد أنْ أنام، لأنني لا أريد أن يغلبني النوم في منتصف النهار».

ولكنْ، على كل حال، غلبه النعاس ونام.

لم يعرف إنْ كان نام وقتاً قصيراً أم طويلاً، لكنه استيقظ عند سماعه ضوضاء خفيفة خلفه.

على عتبة النافذة التي تواجه الصبي، تنتصب مرآة زجاجية صغيرة؛ تسمح برؤية الكوخ كلّه من خلالها. حين رفع الصبي رأسه، واجه صورته في المرآة، فرأى أنّ خزانة أمه كانت مفتوحة وقد أزيل عنها الغطاء.

تمتلك أمه صندوقاً عظيماً محكماً بأقفال حديدية، وهو مصنوع من خشب البلوط، ولا تسمح أمه لأحد بفتحه أبداً، وتخزن فيه كل ما ورثته عن أمها من أشياء، وخاصة تلك التي تحظى بمكانة خاصة لديها. يحتوي الصندوق ثياب فلاحين تعود إلى جيلين ماضيين، وتحفظ فيه أيضاً ملابس الفلاحين القدماء، المصنوعة من النسيج الصوفي الأحمر وصديريات للنساء والتنورات القصيرة ذات الطيات المرصعة باللؤلؤ، فضلاً عن قبعات منشّاة، وحلي وسلاسل فضية مزخرفة ثقيلة. ولا يهتم الناس هنا كثيراً بالبحث عن مثل هذه الأشياء كما هو في زماننا اليوم. وفكرت أمه عدة مرات أنْ تتحرر من هذه الأشياء القديمة؛ ولكنْ على كل حال، لم يستطع قلبها أنْ يجاريها.

شاهد الصبي بوضوح الآن – في المرآة – أنّ غطاء الصندوق مفتوح. ولم يفهم كيف حدث هذا، لأنّ أمه أقفلته قبل خروجها. فهي لن تترْك ذلك الصندوق الثمين مفتوحاً.

هنا، شعر بالإحباط والقلق. ربما خشي أنّ يكون اللص قد تسلل شاقاً طريقه باتجاه الكوخ. لم يتجرأ أن يتحرك أكثر. وبقي متسمّراً في مكانه وهو يحدّق في المرآة.

بينما هو جالس في مكانه ينتظر أن تتوضح ملامح اللص، بدأ يتساءل: «ما هو ذلك الشيء المظلم الذي ألقى بظلاله على حافة الصندوق؟». حدّق ثم حدّق ولمْ يصدّق عينيه. ولكنْ، أخذ ذلك الشيء الذي بدا له أول مرة يتوضّح أكثر فأكثر؛ ومن ثم رأى أنه شيء حقيقي. إنّه لم يكنْ سوى قزم يجلس هناك – على حافة الصندوق منفرج الساقيْن.

ولكيْ نكون متيقنين، فإنّ الصبي كان قد سمع قصصاً عن الأقزام، لكنه لمْ يحلم أبداً أنّ تلك المخلوقات ستكون بهذا الحجم. ولم يكن ذلك القزم أطول من مساحة عرض كف اليد – أمّا هذا القزم الذي يجلس على حافة تلك الخزانة، فهو كبير السن، تملأ وجهه التجاعيد، وليس لديه لحية. يرتدي سترة سوداء طويلة، وسروالاً يصل حدّ الركبتين، وقبعة سوداء عريضة الحواف. كان نحيفاً وأنيقاً، ويتقّلد قلادة بيضاء، ويضع سواراً في رسغه، ويربط إبزيما فردتي حذائه. وقد أخذ من الخزانة قطعة مطرّزة، وجلس محدقاً في عمل يدوي من الطراز القديم مع لمسة تبجيل، ذلك أنه لمْ ير الصبي قد استيقظ.

راقب الصبي القزم، لكن، من جانب آخر، لم يكن خائفاً تماماً عندما رآه. إنه من المستحيل أنْ يكون خائفاً من شخص صغير جدّاً، وقد كان القزم مستغرقاً في أفكاره إلى درجة أنه لم يسمع ولم ير شيئاً. اعتقد الصبي أنّه سيكون مسلياً جدّاً أنْ يقوم بلعبة معه؛ أنْ يدفعه مثلاً إلى الصندوق ويغلق عليه، أو أن يقوم بشيء من هذا القبيل.

فضلاً عنْ ذلك، لم يكن الصبي شجاعاً جدّاً كي يتجرّأ ليبحث عن شيء يلمس به القزم من يديه، لكن، بدلاً منْ ذلك راح يبحث في الغرفة عنْ شيء ما كيْ يسدد له ضربة، وأطلق العنان لينقل نظره من الكنبة إلى المنضدة ومن المنضدة إلى موقد النار. ثم حدّق في إبريق الشاي، ثم في إبريق القهوة، الموضوعين على الرف، قرب موقد النار على دلو الماء قرب الباب؛ ثم نظر إلى الملاعق والسكاكين والشوك والصحون والأطباق التي يمكن رؤيتها خلال نصف انفتاحة غطاء الصندوق. ثم نظر إلى بندقية والده المعلقة إلى جانب صورة العائلة الملكية الدانماركية، وإلى نبات إبرة الراعي الضاربة للون الأحمر القاني في مقدمة الشباك، وأخيراً، لمح شبكة صيد الفراشات معلّقة على إطار النافذة. وكان من النادر جدّاً أن يطلق نظره باتجاه تلك الفراشة، قبل أنْ يقترب منها ويختطفها ويقفز متأرجحاً عبر حافة النافذة. وكان مندهشاً لهذا الحظ الذي أتاه. وقلّما عرف كيف يتدبر أمر ذلك، ولكنه في الواقع نصب فخّاً للقزم. ووضع هذا الشاب رأسه نحو الأسفل في عمق الفخ الطويل، ولم يتمكن من تخليص نفسه. وفي اللحظة الأولى لم يكن لدى الصبي أدنى فكرة ماذا سيفعل بصيده هذا؛ لكنه كان دقيقاً

جداً ليؤرجح شبكة الصيد نحو الأمام ونحو الخلف ليمنع ذلك القزم من أنْ يتمكن من الحصول على موطئ قدم له كي يتسلق أعلى الشبكة.

بدأ القزم يتكلم، آه، توسل بشفقة من أجل تحريره من الشبكة. قال: «إنّ السنين الماضية قد جلبت له حظّاً جيداً، وإنه يستحق معاملة جيدة. والآن، إذا أطلق الصبي سراحه، فإنّه سيحصل بالمقابل على نقود قديمة وملعقة فضة ونقود ذهبية بحجم ساعة والده الفضية، لأنه يحتاج إلى مثل هذه المعاملة الجيدة».

لمْ يخطر ببال الصبي أنّ هذا العرض مغر جداً؛ إذ كان خائفاً منه حقّاً. ولكنْ، حين وقع القزم في قبضته، شعر بشيء من الخوف إن دخل في اتفاقية مع شيء عجيب وغريب من النوع الذي لا ينتمي إلى عالمه؛ وكان سعيداً جداً أن يحرّر نفسه من رعب هذا المخلوق.

لهذا السبب، فقد وافق مباشرة على الصفقة ورفع شبكة الكمين، فاستطاع القزم أنْ يتدحرج إلى خارجها. لكن حين أصبح طليقاً تماماً، خطرت ببال الصبي فكرة أنْ يطرح صفقة كبيرة تحتوي على كل أنواع الأشياء المفيدة. وعليه أنْ يقوم بهذا على الأقل ليخلق هذه الشروط: استحضر موعظة أو خطبة في رأسه. وفكّر الصبي: «إنّ من الجنون أنْ أطلق سراحه! وبدأ يهزّ الشبكة بعنف. لذا فإنّ القزم تشقلب داخل الشبكة نحو الأسفل مرة ثانية».

حين قام الصبي بذلك، شعر بما يشبه ضربة لاسعة على أذنه، وشعر أنّ رأسه طار مزقاً في الجو، وانقذف بعنف – أولاً أمام الحائط، ومن ثم أمام حائط آخر، وأخيراً وقع على الأرض وبقي مستلقياً، وفقد إحساسه على أثرها–.

حين استعاد وعيه، كان وحيداً في الكوخ. لم تكن هناك أية إشارة لوجود القزم! كان غطاء الصندوق مرمياً، وشبكة الصيد معلّقة في مكانها الطبيعي إلى جانب النافذة. إذ لم يكن قد شعر أنّ حرارة الخد الأيمن قد أحرقته نتيجة الضربة على أذنه، وقد أغري بالاعتقاد أنّ كل شيء كان مجرد حلم. فكّر: «وعلى كل حال، سيكون والدي ووالدتي متأكديْن أنْ لا شيء من هذا القبيل قد حدث – فكر الصبي– لن يتسامحا في أمر قراءة الصلاة جراء ظهور قزم... ومن الأفضل لي أنْ أستمر في تلك القراءة».

لكن وبينما هو يتوجه نحو المنضدة، لاحظ شيئاً مهمّاً، وهو أنه من المستحيل للكوخ أنْ يكبر بهذه السرعة. لكن لماذا ينبغي عليّ أنْ أقطع هذه المسافة أو خطوات أكثر من اللازم للوصول إلى المنضدة؟ وما الذي حدث للكرسي؟ إذ يبدو أنه ليس أكبر من حجمه الطبيعي

قبل فترة قصيرة على الأقل؛ لكن الآن ينبغي عليه أنْ يخطو باتجاه السلّم أولاً، ومن ثم يتسلّق للوصول إلى المقعد. وهذا ما حدث معه للوصول إلى المنضدة أيضاً. ولم يبدُ عليه أنه أكبر مما كان قبل فترة وجيزة من دون أنْ يتسلّق للوصول إلى ذراع الكرسي.

قال الصبي: «ماذا يحدث في هذا العالم؟ أعتقد أنّ القزم قد سحر الكرسي والطاولة والكوخ كلّه».

ما زال كتاب تفسير الإنجيل موضوعاً على المنضدة، ويبدو للجميع، أنه ما من تغيير قد طاله؛ لكن لا بد وأن هناك أيضاً تغييراً غريباً في ذلك تماماً، لأنه لم يستطع أن يقرأ كلمة واحدة تكون فعلاً في الكتاب نفسه.

ثم قرأ بعض السطور، نظر إلى الأعلى، ووقع نظره على مرآة؛ ثم صرخ بأعلى صوته: «انظر! هناك قزم آخر!».

رأى في ذلك الزجاج بشكل واضح، مخلوقاً ضئيلاً جدّاً جدّاً كان يرتدي قلنسوة وسروالاً جلدياً قصيراً.

قال الصبي: «لكنْ، لماذا يرتدي ذلك المخلوق ملابس كملابسي تماماً؟». صفّق بيديه الاثنتين بدهشة. ثم نظر إلى ذلك المخلوق في المرآة وهو يقوم بمثل ما يقوم به. بدأ بعدئذ بشدّ شعره وقرص ذراعيه وراح يتقافز؛ وحالما قام ذلك المخلوق بتقليد ما يقوم به من حركات؛ قال: هذه هي صورتي التي تقوم بتقليد حركاتي ذاتها في المرآة.

أخذ الصبي يدور راكضاً حول الكأس عدة مرات، ليرى إنْ كان هناك شخص ضئيل متوارٍ خلفه، لكنه لم يجد ذلك؛ وهذا ما جعله ينتفض رعباً. لقد أدرك الآن أنّ ذلك القزم قد سحره تماماً، وأنه هو الذي رأى صورته في المرآة، ولم يكن غيره أبداً.

الإوز البرّي

لمْ يصدّق الصبي بأنه قد تحوّل إلى قزم. واعتقد أنّه مجرّد خيال غريب «ولا يمكن أنْ يكون ذلك سوى حلم، فإذا انتظرت دقائق قليلة، فمن المؤكد أنني سأعود إلى وضعي الطبيعي السابق».

وقف أمام المرآة وأغمض عينيه. فتحهما مرة ثانية بعد دقائق معدودة، متوقعاً أنّ كل شيء قد ولّى – لكنْ هذا لم يحدث – فما زال قزماً. وبعبارة أخرى، بقي كما هو، القزم الذي شعره

بلون القش؛ والنمش الذي ينتشر حول أنفه؛ والسروال المبقّع الذي يرتديه، كما أنّ الجوارب ما زالت كما هي مع اختلاف أنها أمستْ حائلة اللون.

كلا، إنّ بقاءه منتظراً ليس في صالحه، لأنه قد تأكد تماماً أنْ لا فائدة منْ ذلك. يجب أنْ يجرّب شيئاً آخر. فكّر بعمق أنّ ما يستطيع القيام به الآن، هو أنْ يقوم بالبحث عن القزم، ويعقد معه صداقة وسلاماً.

قفز فوق الأرضية وبدأ في البحث. نظر خلف الكراسي والخزانات؛ وتحت الكنبة وفي الفرن، حتى إنه زحف في جحور الفئران... لكنه ببساطة، في نهاية الأمر، لمْ يجد القزم.

وبينما هو يبحث، راح يبكي ويصلّي ويقسم بكل شيء يستطيع التفكير فيه. هو لا يريد أنْ يحنث بقسمه لأيّ شخص كان؛ ولنْ يكون صبيّاً مشاكساً بعد الآن؛ ولنْ، ولنْ، يجعل النعاس يغلبه كثيراً أثناء قراءة مراسم الصلاة. إنْ كان من الممكن فقط أن يعود إلى طبيعته كإنسان مرة أخرى، فسيكون صبيّاً طيباً ومطيعاً ومحبّاً للمساعدة. لكنْ يبدو أن قسمه عديم الفائدة، لأن ذلك لنْ يساعده أبداً.

وفجأة تذكر أنه سمع أمه تقول، إنّ جميع الأقزام يبنون بيوتهم في حظيرة الأبقار؛ فقرر الذهاب فوراً إلى هناك، ليرى إنْ كان بإمكانه أنْ يجد ذلك القزم. وسيكون محظوظاً إنْ وجد باب الكوخ مواربا بعض الشيء، ولكنه انزلق الآن من خلال فتحة الباب من دون صعوبة تذكر.

حين خرج إلى عتبة الكوخ، نظر حول المكان للبحث عن الحذاء الخشبي؛ وليتأكد، تجوّل داخل البيت للبحث عن جواربه. استغرب كثيراً كيف أنه استطاع أنْ يجد مع جواربه هذا الحذاء الخشبي الكبير غير المناسب؛ ولكن بعد ذلك تماماً، وجد زوج أحذية صغيراً جدّاً على عتبة الباب. وحين لاحظ أن ذلك القزم كان حاذقاً بحيث سحر حتى الحذاء الخشبي، فقد زاد ذلك من انزعاجه كثيراً. وكان من الواضح أن بقاءه قزماً، يعني استمراراً لتلك المحنة لوقت طويل.

قفز عصفور رمادي فوق اللوح الخشبي في مقدمة الكوخ. كان من الصعوبة بمكان أنْ يلقي نظرة على الصبي قبل أنْ يطلق تغريده: «تي! تي! انظروا إلى الصبي نيلز شبيه الإوزة! انظروا إلى ثمبيتوت! انظروا إلى نيلز هولغيرسون ثمبيتوت!».

وفجأة التفتت الإوزات والدجاجات محدّقات في وجه الصبي؛ بعد ذلك أطلقت قوقآت

مخيفة: «كوك – إيل – إي– كوو –»، وصاح الديك: «رفقاً به! كوك – إيل– كوو– إنه سحب مشط ريشي، كا، كا، كادا، اخدموه جيداً». صرخت الدجاجات، واستمرت بالقوقأة. وتجمّعت الإوزات معاً على شكل مجموعات متلاصقة الرؤوس، وتساءلت: «منْ يستطيع فعل ذلك؟».

لكن الأغرب من كل ذلك، أنّ الصبي فهم ماذا قالوا. اندهش أنه وقف هنا كما لو كان متجذراً بعتبة الباب، وراح يصغي. قال: «لا بد أنْ يكون السبب أنني تحوّلت إلى قزم. ولهذا ربما استطعت فهم لغة الطير؟».

فكر أنّ الأمر لا يطاق، ذلك أنّ الدجاجات لا تريد أنْ تتوقف عن الكلام وهذا الأمر ليس في صالحه. رمى حجراً عليها وصاح: «اخرسن، اخرسن، يا تافهات!».

لكنْ حدث ما لم يحدث له من قبل، وذلك لأنه لم يعد ذلك النوع من الصبيان الذين يخشاهم الدجاج. واندفعت دجاجات المنطقة باتجاهه، وشكّلت حلقة حوله؛ وراحت تصيح بصوت واحد: «كا، كا، كادا، سنعتني بك جيداً، كا، كا، كادا، سنهتم بك جيداً».

حاول الصبي أنْ يهرب، لكنّ الدجاجات ركضت وراءه، وراح يصيح لدرجة ظن فيها أنه فقد سمعه. ومن المحتمل جدّاً ألا يستطيع التخلّص منها إذا لم يأتِ قط الدار مباشرة لإنقاذه منها.

حالما رأت الدجاجات القطّ، حلّ الهدوء التام، وتظاهرت بأنها لا تنوي شيئاً سوى البحث في التربة عن الدود.

هرع الصبي فوراً باتجاه القط. وقال: «عزيزي القط، أنت تعرف كل الزوايا والأمكنة المخفية هنا. وأنت قط صغير لطيف، ولهذا فإنك ستخبرني أين أجد ذلك القزم».

لم يردّ عليه القط مباشرة، فقد جلس باسترخاء، ولفّ ذيله ليشكّل دائرة جميلة حول مخالبه، وراح يحدّق في وجه الصبي. كان قطّاً أسود ضخماً، نقشت على صدره نقطة سوداء. كان فرو جلده أملس وناعماً ومشرقاً تحت أشعة الشمس. كانت مخالبه منسحبة إلى الأمام، وعيناه رماديتين داكنتين، وهناك خط صغير داكن ضيق متجه نحو الأسفل. ويوحي عموماً بالطيبة وأنه مسالم.

قال بصوت ناعم: «أنا أعرف تماماً أين يوجد القزم، ولكنْ هذا لا يعني أنني سأخبرك عن

مكانه». استعطفه الصبي قائلاً: «عزيزي القط يجب أنْ تخبرني أين يسكن القزم. ألا تعلم أنه قد سحرني؟!».

فتح القط عينيه قليلاً، وبدأ الشرّ الأخضر يتلامع. دار حول نفسه وخرْخر مختالاً قبل أنْ يجيب: «هل أساعدك لأنك كنت في الغالب تمسكني من ذيلي؟».

كان الصبي غاضباً ونسي تماماً كم هو صغير وبائس: «أوه، أستطيع الآن جرك من ذيلك أيضاً، أستطيع ذلك». قال الصبي ذلك وركض باتجاه القط.

وسرعان ما تبدّل حال القط تماماً، وكان من الصعوبة بمكان أن يصدّق الصبي أنه نفس الحيوان. انتصبت كل شعرة على حدة، وتقوس ظهره، ومد ساقيه، ومضى يخمش الأرض بمخالبه، وتصلّب ذيله بات قصيراً، وشنّف أذنيه؛ وأزبد فمه، واتسعتْ عيناه وراحتا تلمعان كلمعان النار الحمراء.

لم يُرِد الصبي أنْ يشعر بضآلته وقلة أهميته أمام القط، لذا تقدم خطوة إلى الأمام، ما جعل القط يهاجم الصبي بقفزة واحدة، وطرحه أرضاً، ووقف فوقه – كانت مخالبه الأمامية على صدر الصبي، وقد فتح شدقيه الواسعين فوق حنجرته.

شعر الصبي بحدّة مخالب القط تغوص في صديريته وقميصه لتصل إلى جلده؛ وكانت أنياب القط تداعب حنجرة الصبي. صرخ بأعلى صوته طالباً المساعدة، لكن ليس هناك منْ يلبي نجدته. تأكد أنّ ساعة موته قد دنتْ؛ وشعر أنّ ذلك القط أخرج مخالبه وألقى بكامل ثقله على حنجرته.

قال القط: «يكفيك هذا. سأطلق سراحك الآن، من أجل سيدتي الآنسة. ولكنْ أردتك أنْ تعرف منْ منا هو الأقوى الآن، أنت أمْ أنا؟».

وبذلك ابتعد القط عن الصبي، وبدا رقيقاً وسلساً كما كان قد ظهر للصبي أول مرة. وبدا الصبي كئيباً ولم ينطق ببنت شفة. لكنه أسرع إلى حظيرة البقر ليبحث عن القزم.

لا يوجد أكثر من ثلاث بقرات في الحظيرة. وحين وصل الصبي، لم يجد غير الخوار والتناطح بين الأبقار، بحيث يمكن للإنسان أنْ يتوقع أنّ هناك ثلاثين بقرة على الأقل.

«موو، موو، موو»، جأر ميروس. إنه من المستحسن أنْ يجد مثل هذه العدالة في هذا العالم.

«موو، موو، موو»، غنت البقرات الثلاث بصوت متناغم. ولم يعد بإمكانه سماع ماذا قالتْ

تلك البقرات، وحاولت كل واحدة منهنّ أن تخور مع البقية.

أراد الصبي أنْ يسأل بعد ذلك عن القزم، لكنه لم يعد بإمكانه سماع ذلك، لأن البقرات كنّ صاخبات. استمر ذاك الصخب الذي اعتدن عليه إلى أن يطلق عليهنّ كلباً غريباً. ورحْن يرفسن بأرجلهنّ الخلفية ويهززن بخواصرهن ويمددْن رؤوسهن ويقسْن المسافة بقرونهنّ.

قالت ميروس: «تعال إلى هنا! ستتلقى رفسة لنْ تنساها طيلة عمرك!».

وقالت ليلي غولد: «تعال إلى هنا، سأجعلك ترقص على قرنيّ!».

وزعقت الثالثة: «تعال إلى هنا، وستعرف مدى قوة الضربة حين ترميني بحذائك الخشبي، كما فعلت في الصيف الماضي».

وهدرت ليلي غولد: «تعال إلى هنا، وستدفع ثمن ذلك اليعسوب الذي وضعته في أذني!».

قالت ميروس أكبرهن سنّاً وأعقلهنّ، لكنها في الوقت ذاته أكثرهن هيجاناً: «تعال إلى هنا! وسأعيد لك أضعافاً منْ قناني الحليب التي أخذتها من أمك، وجميع الكمائن التي نصبتها لأمك حين كانت قادمة وهي تحمل سطل الحليب ولكل الدموع التي ذرفتها عليك!».

أراد الصبي أنْ يبدي اعتذاره لهن لأنه كان قاسياً عليهنّ، وأنه لنْ، ولنْ يعود إلى ذلك أبداً، ولن يسمعن منه غير السلوك الجيد، إنْ أخبرنه أين يجد القزم. لكنّ البقرات لم يصغين إليه. وبدلاً من ذلك، قمْن بجلبة. بدأ يشعر بالخوف، فربما تقوم إحداهن بما لا يحمد عقباه. لذا فقد فكر أنّ أفضل شيء يقوم به هو أن يذهب بعيداً وبهدوء عن حظيرة الأبقار...

حين خرج مرة ثانية كان مثبط العزيمة جداً. وقد أدرك أنْ لا أحد هنا في هذا المكان يريد أنْ يساعده في إيجاد القزم، وأن يقدم له مساعدة بسيطة إنْ وجد القزم فعلاً.

تدحرج فوق الحافة العريضة التي تسيّج الحقل الذي كان يتنامى بالأشنيات والأزهار البرّية. بعد ذلك جلس يتأمّل كيف تسير الأمور معه. ربما لا يعود إلى طبيعته كإنسان مرة ثانية. حين عاد والده ووالدته من الكنيسة، كانا مندهشيْن، نعم كانا مندهشيْن. وسيعرف العالم ذلك في أنحاء الأرض كلها؛ وسيتدفّق جميع الناس من ضاحية فيمنهيغ الشرقية ومن مناطق تورب وسكوروب. وستأتي جميع أبرشيات فيمنهيغ لتحدّق فيه. وربما سيأخذه والداه إلى مدينة شيفيك، وربما سيعرضونه في السوق العمومية.

كلا، سيكون ذلك مروعاً تماماً إنْ فكرنا فيه. وهو لا يريد لأحد في العالم أنْ يراه مرة أخرى.

إنّ تعاسته ببساطة فظيعة. وليس هناك في العالم كلّه تعيس مثله. هو لم يعد إنساناً بعد الآن... وسيبقى حالة استثنائية من دون شك.

وبدأ يعي شيئاً فشيئاً ماذا يعني ألا يكون إنساناً. لقد انفصل عن كلّ شيء الآن؛ ولم يعد يلعب مع الأطفال الآخرين. كما لمْ يستطع أنْ يكون مسؤولاً عن الحقل بعد أنْ يرحل والداه إلى العالم الآخر؛ وبالتأكيد فليس هناك فتاة تفكر في الزواج به.

جلس وراح يتطّلع إلى منزله المبني من ألواح الخشب البسيطة، الذي يبدو كما لو أنه قد انهار نحو الأرض، تحت سقف مائل. كما أنّ البيوت الأخرى صغيرة أيضاً؛ وبقع القرميد الأرضية كانت صغيرة بحيث من الصعب على الحصان أنْ يدور حولها. إذاً، المكان صغير ويسكنه الفقراء، لكنه سيكون جيداً جداً بالنسبة إليه الآن. فهو لم يعد يأمل ببيت أكبر من حفرة تحت أرضية الإسطبل.

كان الجو جميلاً ومثيراً للإعجاب! وكل شيء من حوله جميلاً، فالأشجار تضج بالبراعم، وتتمايل مصدرة حفيفاً، والطيور تغرد. ورغم ذلك، جلس الصبي هناك مثقلاً بأحزانه. ولنْ يكون سعيداً بعد الآن بأيّ شيء.

كما لنْ يرى زرقة السماء كما كانت يوماً ما. فالطيور المهاجرة تحمل رسائل في أجنحتها، قادمة من بلدان أجنبية، فوق بحر البلطيق عبر ميناء سميغاهوك في طريقها نحو الشمال، إنها طيور من أنواع مختلفة؛ لكنها تتآلف مع البط البرّي فقط، الذي جاء محلّقاً في سربين طويلين يلتقيان في زاوية.

وثمة أسراب من الإوز البرّي قد حلّقت عالياً الآن. وما زال الصبي يسمع صراخ الإوز «إلى التلال، إننا الآن منطلقون نحو التلال».

حين شاهد الإوز البرّي الإوز الأليف يتنزه حول الحقل غاص قرب القاع، ونادى: «تعالوا بسرعة! تعالوا بسرعة! إننا سنتسلق التلال!».

لم يقاوم أفراد الإوز الأليف الإغراء، فرفعوا رؤوسهم يستمعون، ولكنهم أجابوا بحساسية: «إننا سعداء جداً حيثما نكون، إننا سعداء جداً حيثما نكون...».

وكما يقال، كان يوماً جميلاً غير عادي، وهو جوّ لا بدّ وأنْ يكون ممتعاً حقاً لنطير بخفة وانتعاش. ومع كل تحليق جديد للإوز البرّي، كان الإوز الأليف أكثر إثارة. وبعد ساعتين

صفقت الإوزات بأجنحتها، كما لو أنها أضاعت نصف عقلها في الطيران. ولكنْ ثمة إوزة أمّ تريد أن تقول لهم دائماً: «يجب ألا تكونوا سخيفين. إنّ هذه المخلوقات سوف تعاني من الجوع والبرد».

وهناك ذكر إوز شاب أحرقه إوز برّي بعاطفة المغامرة: «إذا جاء سرب آخر إلى هذا الطريق فإننا سنتبعه».

ثم جاء سرب آخر، وهو يصرخ مثل الآخرين. أجابه الإوز الشاب: «انتظرْ دقيقة! انتظر دقيقة!».

فرش جناحيْه ورفع نفسه في الهواء؛ ولكنه لم يكنْ معتاداً على الطيران، ما جعله يسقط على الأرض مرة ثانية.

وعلى أيّ حال، فعلى الإوز البرّي أنْ يسمع نداءه، لأنهم استداروا وطاروا نحو الخلف ببطء ليشاهدوا إنْ كان قد جاء.

وصرخ: «انتظروا، انتظروا!» وقام بمحاولة طيران ثانية.

سمع الصبي كل ذلك، حين كان مضطجعاً على السياج. قال: «يا له من أمر حزين إن استطاع ذكر الإوز الذهاب بعيداً. سيتسبب ذلك بخسارة وأسى كبيرين لوالديه بعد عودتهما من الكنيسة حين يدرك أنه قد ذهب».

كان يفكّر بذلك، وقد نسي كليّاً مرة أخرى أنه قزم ولا حول له ولا قوّة. ثم قام بقفزة واحدة نحو الأسفل حيث سرب الإوز، رمى ذراعيه حول رقبة ذكر الإوز. وصرخ: «أوه، كلا! لا يمكنك أنْ تطير بعيداً هذه المرة، يا سيدي».

لكنْ بعد ذلك تماماً، كان ذكر الإوز يفكر كيف يستطيع أنْ يذهب إلى العمل وينهض عن الأرض. ولا يمكنه التوقف عن خض نفسه، كي يطير بعيداً معه – إلى الأعلى في الهواء.

حمله باتجاه الأعالي المرتفعة بسرعة، إلى حدّ أنّ الصبي راح يلهث. قبل أنْ يملك الوقت الكافي ليفكر أن عليه أنْ يمسك برقبة ذكر الإوز، الذي كان قد ارتفع عالياً، حتى شعر أنّه على وشك أنْ يقتل، حين هوى نحو الأرض.

الشيء الوحيد الذي يستطيع القيام به هو أنْ يجعل من نفسه أكثر ارتياحاً ويحاول الإمساك بظهر ذكر الإوز. وبعد ذلك تملّص فوراً؛ لكنْ ليس دون بذل جهد كبير. إذ ليس من السهولة

بمكان أنْ يتماسك بنفسه ليكون آمناً كي لا ينزلق عن ظهر ذكر الإوز – وبين جناحين يصطفقان – كان عليه أنْ يحفر عميقاً بين ريش الإوز ويداه نحو الأسفل كي لا يسقط نحو الأرض.

فاحص القماش الكبير

كان الصبي مصاباً بالدوار، ويحتاج إلى وقت طويل كيْ يستعيد وضعه السابق. وقد عوت الريح وراحت تهبّ عليه بقوة، وراح حفيف الريش وضربات الأجنحة تعصف كالريح. حلّق حوله ثلاثون طائر إوز، وهم يخفقون بأجنحتهم، ويئزون في أذنيه. كما راحت عيناه ترقصان. لكنه لم يعرف فيما إذا كانوا يطيرون عالياً أو على مستوى واطئ وفي أيّ اتجاه هم مسافرون.

بعد وقت قصير، استعاد وعيه تماماً وراح يدرك ضرورة معرفته إلى أين يتجه به الإوز. لكنّ ذلك ليس بالأمر السهل، لأنه لم يعرف كيف يجمع شجاعته الكافية كي ينظر نحو الأسفل. وكان متأكداً أنّه سيغمى عليه إنْ هو فعل ذلك.

ولم يحلّق الإوز البرّي عالياً جداً في الجو؛ لأنّ رفيق السفر الجديد لا يستطيع تنفّس الصعداء في الريح. ومن أجله، فإنّهم حلّقوا في الجو أوطأ مما يجب.

وأخيراً، تنفّس الصبي الصعداء وعدّل منْ جلوسه، وألقى نظرة نحو الأسفل حيث الأرض. ووجد نفسه يتخيّل بساطاً كبيراً جداً ممتداً تحته مصنوعاً منْ عدد لا يحصى من المربعات الكبيرة والصغيرة.

وتساءل باندهاش: «أين أنا من العالم الآن؟».

إنّه لم ير شيئاً باستثناء رقعة فوق رقعة. بعضها كان واسعاً ويتقاطع عرضيّاً، وبعضها الآخر كان طويلاً وضيّقاً، وفي كل مكان كانت هناك زوايا ومنعطفات. وليس هناك شيء مدور ولا معقوف.

قال الصبي لنفسه من دون أنْ يتوقع أيّ ردّ منْ أحد: «أيّ نوع من الملابس المبقّعة الكبيرة قد شاهدتها، وأيّها التي أنظر إليها في الأسفل؟!».

ولكن فجأة، ناداه الإوز البرّي الذي شكل حلقة حوله: «حقول ومروج. حقول ومروج».

ثم أدرك أنّ قطعة الملابس الكبيرة التي يسافر فوقها عبر الأرض المنبسطة هي جنوب السويد؛ وبدأ يفهم لماذا تبدو مربّعة ومزيجاً من الألوان. إن المربعات الخضراء البرّاقة التي

رآها أول مرة، هي حقول الشوفان التي تبذر في فصل الخريف وتحافظ على خضرتها الدائمة تحت جليد الشتاء. أما المربّعات الرمادية المائلة إلى اللون الأصفر، فهي مصاطب الحقول وبقايا محصول الشوفان الذي نما في فصل الصيف الماضي. أمّا اللون البنّي فهو مروج البرسيم، والنبات الأسود هو المراعي المهجورة وهو حرث أراضي البور. أما المربعات الرمادية ذات الحافات الصفراء، فهي بالتأكيد غابات أشجار الزان؛ وفيها ستجد أشجاراً عالية تنمو في وسط الغابة، وتكون جرداء في فصل الشتاء؛ بينما القليل من أشجار الزان ينمو على طول الحدود؛ ويحافظ على أوراقه المصفرّة المائلة إلى اللون الرمادي حتى وقت الربيع. وهناك أيضاً مربّعات داكنة مع بعض الألوان الرمادية الأساسية: فهذه ستكوّن عقارات كبيرة تحيط بها أكواخ صغيرة سقوفها من القش وحجرها مقسّم إلى قطع أراض. وهناك أيضاً بقع خضراء في الوسط حدودها رمادية: وهذه هي البساتين؛ حيث هناك سجادة من العشب تحوّلت إلى اللون الأخضر، رغم أنّ الأعشاب والأشجار حولها ما زالت في لحائها البنّي المكشوف.

لم يتمالك الصبي نفسه من الضحك حين شاهد أنّ كل شيء يبدو مربّع الشكل.

لكن حين سمعه الإوز البرّي يضحك، هتف بعبارات الاستحسان: «أرض جيدة وخصبة. أرض جيدة وخصبة».

أمسى الصبي جدياً. «عندما يرى المرء أنكم تضحكون؛ فسيظن أنكم، أنتم الذين واجهتم معظم سوء الحظ العاثر ذلك الذي من المحتمل أنْ يحدث للإنسانية!». وبعد لحظة انتابته مشاعر مهيبة تماماً. وقبل أنْ يستمر في الحديث، استغرق في الضحك طويلاً مرة أخرى.

وبدأ يعتاد الآن، إلى حدّ ما، على مواصلة ركوب الإوز كما اعتاد على سرعتها، لذلك كان بإمكانه أنْ يفكّر في شيء آخر إلى جانب ركوبه على ظهر ذكر الإوز. بدأ يلاحظ أنّ الهواء كان يدفع الطيور باتجاه الشمال. وكان هناك صراخ ونداء منْ سرب إلى سرب. صرخ بعضهم: «لذا، سنصل في هذا اليوم؟». «نعم»، أجاب الإوز. «كيف سترى فصل الربيع؟» جاء الجواب: «أرى الأشجار في هذا الفصل جرداء، ويغطي الجليد البحيرات».

حين حلَّق الإوز فوق مكان ما شاهدوا إوزاً أليفاً، وديكاً نصف عارٍ. صرخوا. ما اسم هذا المكان؟ ما اسم هذا المكان؟ ثم صاح الديكة وأجابوا: «اسمه ليلغارد هذه السنة، كما كان اسمه في السنة الماضية، كما هو اسمه في العام القادم».

كانت مُعظم الأكواخ تُسمى بأسماء مالكيها، كما هي العادة في مقاطعة سكونه. فنقول «Per matsson`s» أو «Ola Bosom`s Ola Bosom`s»، ركز الديكة على نوع الأسماء طِبقاً لعاداتهم. وهي الأكثر مناسبة. وأمّا أولئك الذين يعيشون في الحقول الصغيرة أو الأكواخ الفقيرة فقد صاحوا: «هذا المكان يُسمَّى غرينكيرسيي». وأولئك الذين يعيشون في أفقر الأكواخ صاحوا: «اسم هذا المكان هو little– to eat قليلاً من الأكل، قليلاً من الأكل، قليلاً من الأكل، Little –to ،little – to eat».

أمّا المزارع الكبيرة المعُتنى بها، فلها أسماء ديكةٍ رنّانة – مثل لاكي ميدو Lucky meadow، إيغبيرغا Eggberga، ومونيفيل Moneville.

لكنَّ الديكة التي تسكن في العقارات الغنية هي الأخرى لها أسماء عظيمة، وتتفاخر حتى بأتفه الأشياء. بعضهم يزاحم وينادي بأيِّ شيء، يبدو كما لو أنهم يريدون أن يسمعوا بوضوح الشمس: «هذا عقار السيد ديبيك؛ وهو الاسم ذاته للسنة الماضية، وهذه السنة هي السنة الأخيرة».

ليس بعيداً عن الغطرسة صاح أحد الديكة: «هذه سوانهولم، والعالم كله بالتأكيد يعرفها!».

لاحظ الصبي أنَّ أولئك الإوز لا يطيرون باستقامة نحو الأمام، إنما يطيرون باتِّجاهات مُتعرِّجة هنا وهناك فوق البلد. كما لو أنهم كانوا فرحين في مقاطعة «سكونه» مرة أخرى أرادوا أنْ يعيدوا احترامهم لكل الأمكنة.

وجاؤوا إلى أحد الأمكنة؛ حيث هناك عدد من الأبنية ذات المنظر غير الرشيق، بمداخنها الكبيرة والطويلة، وحول كل هذه الأبنية هناك عدد من البيوت الصغيرة. «وهذا معمل تكرير سكر ناحية جوردبيرغا».

تدافعت الديكة، وارتجف الصبي بينما هو جالس هناك على ظهر الإوز؛ إذ عليه أن يُميِّز هذه المنطقة المحلية، لأنها ليست بعيدة عن دار سكناه.

هنا قد عمل قبل سنة كصبي حارس؛ لكن من المؤكد أنه لا يبدو له شبيهاً بما كان عليه قبل سنة، وبخاصة إذا كنا نشاهده من الأعلى.

فكِّر، فقط فكِّر! والإوزة أوسا والصغير ماتس، كانا رفيقيه في السنة الماضية. وفي الحقيقة سيكون الصبي سعيداً إنْ عرف أنهما كانا في أيِّ مكان حول هذه المنطقة. وتخيَّل ماذا قد

قالا، هل هما كانا يشتكيان من أنه كان يطير فوقهما.

بعد فترة وجيزة جداً، اختفت جورد بيريا عن النظر، وقد سافرا باتجاه بحيرة سفيدالا، وعادا مرة ثانية عبر دير بورنغا... وشاهد الصبي مدينة «سكونه» مرات عديدة في هذا اليوم قبل أي وقت خلال السنة التي عاش فيها.

وحين حدث أنَّ الإوز البرّي يتجاوزون الإوز الأليف، سخروا منهم كثيراً! ثم حلَّقوا إلى الأمام ببطء ونادوا بأصواتهم نحو الأسفل: «اتجهوا نحو التلال ببطء؟ هل أنتم قادمون بالاتجاه نفسه؟ هل أنتم ذاهبون بالاتجاه نفسه»؟

لكن الإوز الأليف أجابوا: «ما يزال فصل الشتاء مبكراً في هذا البلد. لقد خرجتم في وقت مبكر جداً. ارجعوا! ارجعوا!».

خفف الإوز البري من هبوطهم نحو الأسفل كي يستطيعوا أنْ يسمعوا قليلاً، ثم نادوا: «تعالوا مباشرة، نحن سنعلّمكم كيف تطيرون وتعومون».

لكن الإوز الأليف ازدادوا غضباً ولم يردّوا عليهم.

غاصوا نحو الأسفل، ثم الأسفل، حتى تمكنوا من التماس مع الأرض تقريباً – ثم أسرعوا كما سرعة الضوء، نهضوا كما لو أنهم يشعرون بالفزع. راحوا يصيحون: «أوه، أوه، أوه،– تلك المخلوقات ليست من الإوز– إنهم أغنام وحسب، إنهم أغنام وحسب».

أما الإوز الذين كانوا على الأرض فكانوا إلى جانبهم يشتعلون غضباً، ويصيحون: «هل بالإمكان أنْ تطلقوا النار، جميعكم،! جميعكم!».

حين سمع الصبي كل هذه الإغاظة ضحك. ومن ثم تذكر كيف أنّ الأشياء السيئة كانت تلازمه دائماً. وصرخ، ولكن اللحظة التالية، راح يضحك مرة ثانية.

قبل أنْ يركب سريعاً؛ وبطيشه المعتاد – حيث دائماً ما يقوم بذلك –فإنه بالتأكيد أيضاً، لم يحلم أبداً، أنه من الممكن أن تكون الرحلة طازجة ومنعشة كما كانت في الهواء، أو حين صعد إلى الجو من الأرض، وأن تكون بمثل هذه الرائحة الجميلة أو مادة الراتنج أو التربة. لم يحلم أبداً ما الذي يحب وما الذي يريد أن يركبه ويطير به عالياً فوق الأرض. إنه تماماً يحب الطيران بعيداً عن الحزن والإزعاج والمشاكل، أو أي نوع يمكن أنْ يفكر فيه.

الفصل الثاني
أكا منْ جبل كيبينيكايسي

هذا المساء

وتبعهم ذكر الإوز الأليف، راكباً الهواء، شعر بالاعتداد بالسماح له للعودة بالطيران إلى الخلف وإلى الأمام وعبر جنوب البلد مع الإوز البرّي. راح يطْلق النكات مع الطيور الأليفة. لكنه كان سعيداً رغم أنه شعر بالتعب مع حلول المساء. حاول أنْ يأخذ أنفاسه مع ضربات سرعة خفقان الجناح، كانت هناك أيضاً عدة أسراب طويلة من الإوز إلى جانب الإوز الآخرين.

حين طار الإوز البرّي أخيراً، لاحظ أنّ إحدى الإوزات الأليفة لم يعد بإمكانها أنْ تحافظ على سرعتها معهم، مما حدا بهم أنْ ينادوا على الإوزة التي حلّقت وسط الحافة أن تقود الموكب. سأل القائد: «أكّا من كيبينيكايسي! أكّا من كيبينيكايسي!»، «ماذا تريد مني». «ماذا تريد مني؟ إنّ الإوز الأبيض سيعود إلى الخلف، إنّ الإوز الأبيض سيعود إلى الخلف». صرخ القائد وهو يتسابق كما كان في السابق. قالت أكّا: «أخبره أنه من السهولة بمكان أن يسرع بالطيران، ذلك أفضل له من الإبطاء!».

بالتأكيد حاول ذكر الإوز أنْ ينفّذ النصيحة، ويزيد من سرعته؛ لكنْ سرعان ما شعر بالإرهاق الذي دفعه للغوص نحو الأسفل باتجاه شجر الصفصاف المتدلي المحدد للحقول والمروج.

«أكّا، أكّا، أكّا، من كيبينيكايسي»، صرخ أولئك الذين طاروا مؤخراً ولاحظوا أنّ الوقت الذي كانوا يطيرون فيه حرج. «ماذا تريد الآن؟». سألت القائدة – وبدت أنها كانت غاضبة جداً. «إنّ الإوز الأبيض غاص نحو الأرض؛ إن الإوز الأبيض غاص نحو الأرض». «أخبره أنه من السهل أن يطير أعلى من طيرانه الواطئ؟». صرخت الإوزة القائدة لكنها لم تبطئ من طيرانها أبداً. وراحت تتسابق كما كانت في السابق.

حاول ذكر الإوز الأبيض أنْ يتبع النصيحة؛ لكن حين جرب أن يرتفع نحو الأعلى شعر بالريح تصطدم بصدره، فصرخ أولئك الذين طاروا أخيراً. «أكّا اكّا، ألا تدعيننا نطير بسلام؟». وأسرعت القائدة، وبدْت أكثر جنوناً من السابق.

صرخت القائدة: «إنّ الإوز الأبيض على وشك السقوط. أخبره أنه لا يملك القوة للاستمرار بالطيران مع السرب، هل يستطيع العودة إلى البيت؟». وبالتأكيد ليست لديها القدرة على تقليل سرعتها، لكنها تسابقت كما كانت من قبل.

فكر ذكر الإوز وفهم حالاً أن الإوز البرّي لا يملكون أيّة فكرة في أننا سنأخذهم جنباً إلى جنب إلى مقاطعة لابلاند وقد جذبوه فقط بعيداً عن بيته. «أوه، هل هذه هي الطريقة التي تعصف بها الريح!».

شعر ياستياء تام وكان يفكر أنّ قوته تلك ستخذله الآن، لذا فإنّه لنْ يتمكن من مشاهدة تلك الرحلات الشاقة حتى إنّ الإوز الأليف حاول أنْ يكون صالحاً لشيء ما! ولكن ما أزعج الجميع هو سقوطه مع أكّا من كيبينيكايسي. وكان الإوز الأليف الذي سمع عن الإوزة القائدة، الذي يطْلق عليها اسم أكّا، كانت تبلغ من العمر أكثر من مئة عام. إنها تحمل مثل هذا الاسم الكبير، هي من أفضل الإوز البريّ في العالم الذي يتبعها. ولكن ليس هناك مثل هذا الازدراء للإوز البري مثل أكّا وسربها، وستكون مسرورة لتثبت لهم أنها لا تتميز عنهم.

طار ببطء إلى جانب البقية، لكنه كان يتأنّى مفكراً فيما إذا كان سيعود أو سيستمر. وأخيراً، قال المخلوق الصغير الذي كان يحمله على ظهره: «عزيزي مورتن، أيها الإوز الذكر إنك تعرف بما فيه الكفاية أنه من البساطة عليك تماماً، أن تطير، مع الطيور البرية كل الطريق باتجاه لابلاند. أليس من الممكن أن تعود قبل أن تعرّض نفسك للموت؟!».

لكنّ الصبي الفلاح كان على وشك أنْ يعرف أسوأ شيء، أنّ الإوز الذكر قد عرفه، ومع طلوع الفجر اعتقد أنّ ذلك المخلوق الضئيل لا يمكنه الاستمرار فعلاً في رحلته، وقرر التخلّي عنه. ثم قال: «إذا كانت لديك أيّة فكرة أخرى حول ذلك، فإنني سأسقطك في أول خندق يكون أسفلنا!». وفي الوقت نفسه كان غضبه الشديد يمنحه قوة صاعدة كي يبدأ بالطيران كما فعل الإوز الآخرون في الغالب.

لم يكن محتملاً، حفاظه على سرعة طيرانه لفترة طويلة، ولن يكون ذلك ضرورياً، لأنّ الشمس بدأت تغرب بسرعة؛ ومع الغروب سيهبط الإوز نحو الأرض، قبل أن يعرف الصبي ذكر الإوز ما الذي حدث لهم، ليقفوا على شاطئ بحيرة فومب.

فكر الصبي بينما هو يقفز عن ظهر الإوز «من المحتمل أنهم يظنون أننا سنقضي ليلتنا هنا».

ووقف الآن على ضفة ضيّقة إلى جانب بحيرة صغيرة. ومنْ ينظر إلى المشهد يراه قبيحاً. لأنه

في الغالب مغطّى بالجليد الذي كان أسود ومتفاوتاً ومليئاً بالشقوق والحفر، كما هو الحال عموماً في جليد فصل الربيع.

ويبدو أنّ الجليد بدأ يتكسر. كان رخواً وعائماً يحيط به حزام عريض من الظلام، ويشكل الماء المشرق دائرة حوله أيضاً. لكنْ ما يزال الكثير منه يجب أنْ يترك لينشر رعب برد الشتاء فوق المكان.

في الجانب الآخر من البحيرة يبدو أنّ المنطقة مفتوحة والبلد منار، فيه شجر صنوبر كثيف حيث حطّ عليها الإوز. وبدا كما لو أنه غابة من أشجار التنّوب والصنوبر التي تملك القوة لمقاومة الشتاء ذاته. وكانت الأرض في كل مكان جرداء. لكنْ تحت أغصان الصنوبر الحادة يمتزج ويتجمد، يمتزج ويتجمد، إلى أنْ يتحول جليداً صلباً.

فكّر الصبي أنه قد صعق بهذه البرّية، كان منزعجاً وكاد الأمر أن يودي به إلى أنْ يصرخ. كان جائعاً، ولم يتناول أيّ شيء طيلة هذا النهار. لكنْ أين يجد الطعام؟ ويبدو أنْ لا شيء يؤكل سواء في الأرض أو في الشجر في شهر آذار/مارس.

نعم، أين يجد الطعام، ومنْ يمنحه الحماية، ومنْ يرتّب له فراشه، ومنْ يوفر له الأمان من الحيوانات المفترسة؟

بدأت الشمس منذ الآن تنحدر نحو المغيب، وراح الصقيع يأتي من البحيرة. وبدأ الظلام يخيم على الأرض، وبدأ الرعب ينحدر على درب الشفق، والغابة تثرثر ويسمع حفيفها.

إنّ السخرية الآن التي بدأ الصبي يحسها حين كان معلّقاً في الهواء قد انتهت. وفي حالته المزرية هذه بدأ يتطلع إلى رفاق الرحلة. فليس لديه غيرهم يتشبث بهم.

بعد ذلك رأى أنّ الإوز يجتاز وقتاً صعباً جدّاً، فهو متمدد على بقعة، ويبدو كما لو أنه على وشك أنْ يموت، وقد مد رقبته باسترخاء على الأرض، وعيناه مغمضتان، أما تنفسه فبدا يشبه هسيساً واهناً.

قال الصبي: «عزيزي مورتن يا ذكر الإوز، حاول أنْ تشرب ماء! إنه لا يبعد أكثر من خطوتين عن البحيرة».

لكنّ ذكر الإوز لم يتحرك من مكانه أبداً.

ويبدو أن الصبي بالتأكيد قاسٍ على الحيوانات جميعاً، وعلى ذكر الإوز خاصة في أوقات

مضت؛ لكنه الآن يشعر أنّ الإوز الذكر هو الوحيد الذي يشعر بارتياح إزاءه، وأنه كان يشعر بالرعب خشية أنْ يفقده.

بدأ الصبي يندفع مباشرة نحوه ليسحبه، ليوصله إلى مصدر الماء، لكن ذكر الإوز كان كبيراً وثقيلاً، وتعتبر المهمة صعبة على الصبي؛ لكنه نجح في نهاية الأمر.

أخذ الصبي يستعيد وعيه، أولاً، رفع رأسه. بعد لحظة استلقى من دون حركة، وتساقط الماء من عينيه، ثم تنشّق قليلاً. ثم عام باعتداد بين القصب والأعشاب البرية.

كان البط البرّي في البحيرة أمامه. لمْ يلتفتوا حولهم، سواء لذكر الإوز أو لراكبه. لكنهم اتجهوا مباشرة نحو الماء. وراحوا يعومون ويجعّدون بريشهم. اضطجعوا الآن، وشربوا ماء فاسداً من بركة الأعشاب، وأكلوا منْ برسيم المياه.

توفرت فرصة جيدة لذكر الإوز للتجسس وهو جاثم. وقد اقتنصها بسرعة، حين لمح سمكة ساحل الشاطئ، أمسك بها بسرعة، عام وإيّاها إلى ساحل البحر، وضعها أمام الصبي. قال: «هنا أريد أنْ أشكرك، لمساعدتك إيّاي في الغوص في الماء».

كانت هذه أولى عبارات الشكر التي سمعها الصبي هذا اليوم. كان سعيداً جدّاً إلى حدّ أنه أراد أنْ يرمي بذراعيه حول رقبة ذكر الإوز، لكنه لم يفعل ذلك؛ وكان أيضاً شكوراً للهدية في الوقت نفسه. في البداية فكر أنه من المستحيل أنْ يأكل سمكاً نيّئاً، لكنه بادر بحركة ليجرّب طعمها.

تحسس جسده إنْ كان ما يزال يملك غمد سكين معه؛ كان متأكداً تماماً، أنها كانت معلّقة – في أزرار سرواله. رغم أنه قال إنه من الصعوبة بمكان الوصول إلى علبة الثقاب. حسناً، على كل حال، لم يمض وقت طويل حتى شرعا بتناول سمك الزوري.

حين شبع الصبي، شعر بخجل قليل، لأنه تناول لحماً نيئاً. وفكر «إنه من الواضح أنني لم أصبح حيواناً، لكنني مجرد قزم حقيقي».

بينما كان يتناول طعامه، وقف ذكر الإوز بهدوء إلى جانبه. لكن حين بلع آخر لقمة، قال بصوت خافت: «إننا في الحقيقة نصادف أنْ نجد سرب الإوز تحتقر جميع الطيور الأليفة».

قال الصبي: «نعم، أنا لاحظت ذلك».

«أيّ نصر أحققه إنِ استطعتُ متابعتهم بشكل واضح حتى مقاطعة لابلاند. وسأريهم أنه حتى

الإوز الأليف يستطيع أنْ يحقق ما يريد!».

«اييييييه» قال الصبي، وهو يتشدّق بكلامه، لأنه لا يصدّق أنّ ذكر الإوز استطاع أنْ يفعلها؛ نعم، إنه لم يرغب في معارضته. وقال ذكر الإوز «لأنني لا أريد أنْ أفكر طويلاً وحدي في هذه الرحلة. وأحبّ أنْ أسأل، إنْ كنت تستطيع أنْ تقدم لي أيّة مساعدة؟» كان الصبي، بالطبع، لم يتوقع أي شيء من ذلك القبيل، باستثناء العودة إلى بيته بأسرع ما يمكن، وكان مندهشاً جداً لأنه عرف ماذا يريد أنْ يجيب، رغم صعوبة الأمر. قال: «اعتقدت أن كلانا عدو للآخر». لكن بدا أنّ ذكر الإوز هذا يتناسى كليّاً. وتذكر فحسب، أنّ الصبي يتذكر أنّه يريد إنقاذ نفسه فقط.

قال الصبي: «إنني أفترض حقّاً أنه ينبغي عليّ الذهاب إلى البيت، إلى والدي ووالدتي». قال ذكر الإوز «إنني سآخذك إليهما في يوم ما في الربيع. أنا لنْ أتركك حتى أتمكن من إيصالك إلى عتبة باب دارك».

فكر الصبي أنه من الأفضل له ألا يرى والديه حتى يمر وقت مناسب. إنه لا يحجم عن هذا الاقتراح، لكنه مجرّد ملاحظة للقول إنه موافق تماماً على الفكرة، في هذه الأثناء سمعا خشخشة في الخلف، جاء الإوز البري مباشرة من البحيرة – جميعهم في وقت واحد – وقفوا يرتجفون والماء يقطر خلفهم، كانت تلك الخشخشة صادرة عنهم. بعد ذلك، نظموا أنفسهم في طابور طويل مع قائد الإوز القائد في المركز، واتجهوا إليهم.

عندما قدّر ذكر الإوز الأبيض حجم الإوز البري، شعر بوهن لذيذ. توقع أنهم يشبهون كثيراً الإوز الأليف، وبهذا يجب أن يشعروا بقرابة أوثق بينهم. كانوا أصغر حجماً منه، وليس من بينهم أحد كان لونه أبيض. بل، كان لونهم جميعاً رماديّاً مع نثار من اللون البني. وكان في الغالب يخشى عيونهم الصفراء اللامعة، كما لو أن ناراً قد أوقدْت من خلفها. وتعلم ذكر الإوز أنه من المناسب أنْ يقوم ببطء وبحركة دحرجة. لكن تلك المخلوقات لم تَسِرْ على أقدامها – بل راحت تجري. وقد انتابه حذر، على كل حال، حين نظر إلى أقدامها. كانت كبيرة، وممزقة، ويبدو باطنها خشناً. كان من الواضح أن الإوز البريّ لم يسألوا أبداً ما الذي شرّدهم. لم يتخذوا منعطفاً. كانوا أنيقين جداً، وبعبارة أخرى كانوا معتنين بمظهرهم، لكن يستطيع المرء أن يخبرنا من خلال أقدامهم أنهم كانوا قبيلة بريّة.

كان ذكر الإوز هو الوحيد الذي يستطيع أن يهمس بأذن الصبي: «تحدث بسرعة مع نفسك،

ولكن لا تخبرهم من أنت!» – قبل أن يتحدث الإوز الآخرون.

حين وقف الإوز البرّي في مقدمتهم، كانوا مجاملين وهم يحنون رقابهم مرات عديدة، قام ذكر الإوز بطريقة مماثلة عدة مرات. وحالما انتهى الحفل، قال قائد الإوز«الآن، أفترض أننا سنسمع أيّ نوع من المخلوقات أنتم؟».

قال ذكر الإوز«ليس هناك الشيء الكثير الذي يقال عني، فقد ولدت في سكانور في الربيع الماضي. في ذلك الخريف اشتراني هولغر نلسون حاكم فيمنهيغ الغربية. وأنا أسكن هناك منذ ذلك التاريخ». قال قائد الإوز «لكن لا يبدو عليكم أنكم من نسب تفتخرون به. إذاً، ما هو الموضوع الذي يدفعكم إلى التعالي للارتباط مع الإوز البري؟» أضاف الإوز الذكر: «السبب هو أنني أريد أن أعرض عليكم أيها الإوز البرّي نحن الإوز الأليف ربما كنا في وقت ما جيدين في شيء ما». «نعم، سيكون من المستحسن إذا أريتمونا ذلك». وتحداه قائد الإوز البري قائلاً: «لاحظنا الآن ما تعرفونه عن الطيران؛ ولكن ربما أنتم الآن أكثر مهارة في مجالات رياضية أخرى، وربما أنتم أقوياء في مسابقات السباحة مثلاً؟». رد ذكر الإوز «كلا، أستطيع أن أعتدّ بنفسي في ذلك». يبدو له كما لو أن القائد البري شرع في تشغيل عقله لإرساله إلى الوطن، لذلك لم يهتم كثيراً كيف يجيب. «إنني لم أسبح مطلقاً أكثر من مسافة قصيرة، ومن ثم فإنني أفترض أنها مجرد جعجعة عدّاء». قالت الإوزة: «لم يسبق لي أن رأيت بطّاً أليفاً عدّاء، ولا أنا نفسي، وأوضحت أن الأشياء تبدو أكثر سوءاً من حقيقتها».

كان الإوز الأبيض الكبير متأكداً الآن أنّ قائد الإوز يريد أنْ يقول إنهم أخذوه بعيداً تحت ظروف غير معروفة لهم. كان مندهشاً جداً حين قالت الإوزة: «إنك أجبت عن الأسئلة بشجاعة؛ وإنه هو الذي يملك الشجاعة ويستطيع أن يتحول إلى رفيق سفر جيد، حتى وإن كان جاهلاً في البداية». قال ذكر الإوز «وأنا سعيد تماماً. ماذا تقول كي تقف معنا لبعض الأيام، إلى أن نستطيع أن نرى ما هو الشيء الذي يمكن أن تجيده».

بعد ذلك أشارت الإوزة القائدة بمنقارها قائلة: «لكنْ من الذي أخذك إلى هناك؟ إنني لم أرَ أيّ أحد يشبهه من قبل». قال ذكر الإوز «كان ذلك رفيقي، إنه كان إوزاً رقيقاً في حياته كلها، لنأخذه معنا في سفرتنا». قال الإوز البري: «ربما يكون مناسباً للإوز الأليف. وسيكون نافعاً، حسناً، ماذا ستطلق عليه من اسم؟». قال ذكر الإوز بتردد: «إنه يحمل عدة أسماء»، – غير عارف ماذا يلائمه من سباق– لأنه ما أراد أنْ يظهر أنّ ذلك الصبي كان إنساناً. قال أخيراً: «أوه! اسمه هو ثمبيتوت» سأل قائد الإوز «وهل يعود لعائلة الأقزام؟ في أيّة ساعة

تعتقد أنه سيعود الإوز البري؟». قال ذكر الإوز «حالاً» – محاولاً تجنب ذلك السؤال الأخير. «إنّ عينيّ قريبتان من الاتفاق».

من السهولة بمكان أن يرى المرء أنّ تلك الإوزة التي تحدثت مع الإوز البري كانت عجوزاً جداً. وريشها متكاملاً بلون الجلد الرمادي من دون خطوط رمادية. رأسها كان أكبر من الإوز الآخر؛ ساقاها خشنتان، وقدماها باليتان. أما ريشها فهو خشن إلى حد ما ومتصلب؛ وصدرها مليء بالعقد؛ ورقبتها ثخينة. كل هذا بسبب العمر. ولكن من ينظر إلى عينيها لا يرى أن الزمن قد ألقى بظلاله عليهما. كانتا مشرقتين أكثر من الإوزات الأخريات.

التفتت بغطرسة عالية إلى ذكر الإوز وقالت: «افهم يا سيد الإوز الأليف، أنني الإوزة أكّا من كيبينيكايسي! وأنّ تلك الإوزة التي تحلّق حولي – من الجهة اليمنى – هي الإوزة إكسي من فياسيولي. وافهم أيضاً، أن تلك من الجهة اليسرى هي كولمي من شرييكياكو من سيريكتاكو، والثانية من الجهة اليسرى أيضاً هي نيليا من سفابفارا، والذي خلفهم أوفيكسفيالن من فيزي وكوسمي من سياغلي، واعرف أن هؤلاء، فضلاً عن أفراخ الإوز الستة الذين طاروا أخيراً – ثلاثة من الجهة اليمنى وثلاثة من الجهة اليسرى – هم إوز الجبل العالي وهم منْ أرقى الأصول! وينبغي عليك ألا تضعنا منْ ضمن مالكي الأرض الذين يقتنصون فرص التعارف مع أي كائن كان. ويجب ألا يخطر ببالك أننا سنسمح لأي أحد بالمشاركة في منطقتنا ما لم يخبرنا عن أصوله».

وبينما كانت أكّا قائدة الإوز تتحدث عن هذه السلالة، خطا الصبي برشاقة إلى الأمام من دون تكلّف، وسيقدم مثل هذه الأجوبة الموجعة لأنّ ذكر الإوز الذي تحدث بعفوية عن نفسه، سيقدم أجوبة مراوغة كانت تقلقه حقّاً.

قال: «أنا لا أهتم أنْ أصنع لنفسي سرّاً عمّنْ أنا، فأنا نيلز هولغرسون. وأنا ابن فلاح. حتى هذا اليوم، كنت إنساناً؛ لكن في هذا الصباح» – لكنه لم يزد كثيراً – حالما، قال إنه كان إنساناً. ترنح قائد الإوز على مدى ثلاث خطوات نحو الخلف، وقد تراجع بقية الإوز نحو الخلف أيضاً. وهسهس الجميع استهجاناً لكلامه.

قالت أكّا: «إنني قد شككت بهذا منذ أول مرة شاهدتك هنا، على هذه الشواطئ، والآن عليك أنْ تنصرف منْ هنا حالاً. إننا لا نطيق آدميّاً بيننا».

تأمّل ذكر الإوز وقال: «هذا ليس مستحيلاً، إنكم أيها الإوز البرّي بإمكانكم أنْ تخشوا أيّ

إنسان مهما كان صغيراً! ومنذ يوم غد بالطبع، عليه أن يعود إلى البيت. وسندعه يمكث هنا لهذه الليلة فقط. وليس بإمكان أحد من بيننا تحمّل أن يدع مثل هذا المخلوق الصغير المسكين يتجول وحيداً في الليل – بين أبناء عرس والذئاب!».

اقترب الإوز البرّي أكثر. لكننا نرى هناك إوزة كان من الصعوبة عليها أنْ تسيطر على خوفها. قالت: «تعلّمت أنْ أخاف منْ أيّ شيء شبيه بالإنسان – سواء كان كبيراً أم صغيراً. لكن إذا أردت أنْ تسأل هذا المخلوق، أن يقسم لنا أنه لن يؤذينا، فإنه ربما سيبقى معنا هذه الليلة. لكنني لا أعتقد أنّ مأوى ليلتنا ستكون مناسبة له أو لكم، لأننا ننوي أنْ نجثم فوق الجليد هنا هذه الليلة».

قال إنّها فكرت بالطبع، أنّ ذكر الإوز سيشك حين يسمع ذلك، لكنه لنْ يفشي سرّاً. قال: «إنها حكيمة تماماً، لكن منْ يعرف كيف يختار سريراً آمناً، وسيكون تحت المساءلة عند عودته غداً».

قال ذكر الإوز «إذاً، سأغادرك، فإنني أقسمت أنني لن أهجره أبداً».

قالت قائدة الإوز «إنك حرّ في الطيران أينما شئت».

وبهذا رفعت جناحيها وحلّقت عالياً فوق الجليد، ثم تبعها الإوز واحداً بعد الآخر.

كان الصبي حزيناً جداً لأنه كان يظن أن رحلته إلى لابلاند غير موفقة، وهي متعلقة بالصفقة. كان خائفاً من المكان الجليدي الذي سينام فيه الليلة. قال «إنّ الأمر سيكون من سيئ إلى أسوأ» وأردف: «سنتجمد تماماً حتى الموت ونحن على الجليد».

لكن ذكر الإوز كان في مزاج رائق حين قال: «ليس هناك أي خطر، فقط أسرع الخطى، إنني أطلب منك أن تجمع كمية كبيرة من العشب ولتكن أخفّ مما تستطيع حمله جيداً».

حين كان الصبي يحمل قبضة من العشب اليابس، أمسكه ذكر الإوز من حزام قميصه، ورفعه إلى الأعلى، وطار به فوق الجليد، حيث الإوز البري قد غط في نومه الآن ومناقيرهم تحت أجنحتهم.

قال ذكر الإوز «انشر الآن العشب فوق الجليد ليكون مقاوماً لبرودته، وكي لا يجمدني بسرعة. ساعدني وأنا أساعدك».

هكذا فعل الصبي. وحين انتهى من ذلك، التقطه ذكر الإوز مرة ثانية من حزام قميصه،

ووضعه تحت جناحيه. قال ذكر الإوز وهو يغطي الصبي بجناحيه: «أعتقد أنك ستنام مرتاحاً، ودافئاً هنا».

كان الصبي مطمئناً تحت الغطاء ولا يمكنه الإجابة؛ وكان لطيفاً ومرتاحاً، أوه، ولكن، كان يشعر بالتعب! حيث غطّ سريعاً في نومه بعد أقل من رمشتين من عينيه.

الليل

وفي الحقيقة فإنّ الجليد دائماً ما يكون مخادعاً ولا يمكن الوثوق به. ففي منتصف الليل نراه كبقايا كعكة تتحرك حول سطح بحيرة فومب التي تلامس إحدى زواياها ساحل البحر. والآن حدث ما يلي، أنّ السيد الماكر فوكس (Smirre Fox الثعلب الماكر)[1]. الذي يسكن في هذا الوقت في منطقة حدائق دير أوفيد – لمح في إحدى تلك الزوايا حين كان في إحدى مطارداته ليلاً، الإوز البرّي في مستهل أحد المساءات، لم يتوقع أنْ يأمل ذلك المساء بصيد، كما لم يأمل في أنْ يحصل على أحدهم؛ لكنه الآن راح يسير باستقامة على سطح الجليد.

حين كان الثعلب الماكر قريباً جدّاً من الإوز، راحت مخالبه تحفر في الجليد، ما جعل الإوز يستيقظ، ويصفق بأجنحته، ويتهيأ للطيران. لكن الثعلب الماكر كان أسرع منه. إذ شقّ طريقه إلى الأمام رغم أنه قد اصطاد، وأمسك إوزة من جناحها وهرع بها باتجاه الأرض اليابسة مرة ثانية.

لكن في هذه الليلة لم يكن الإوز البرّي وحده على سطح الجليد، لأن بينهم إنساناً – صغيراً كما كان، وقد استيقظ الصبي حين مدّ قائد الإوز جناحيه. فقد تشقلب نحو الأسفل حيث كان الجليد وجلس هناك وقد أصيب بدوار، لم يعرف أسباب وحيثيات كل هذا الاضطراب حتى لمح كلباً صغيراً طويل الأقدام كان يركض على سطح الجليد وبين فكيه إوزة.

في ثانية واحدة كان الصبي يركض وراء ذلك الكلب لينقذ الإوزة من بين أسنانه. ربما قد سمع أنّ ذكر الإوز كان يناديه: «احذر يا ثمبيتوت! كن على حذر! كن على حذر!». لكن الصبي فكر أنّ الكلام من مثل ذلك القزم الصغير لا يمكن أن يثير في نفسه الخوف، وهكذا اندفع باتجاهه.

إنّ الإوزة البرّية التي كان الثعلب الماكر يسحبها، قد سمعت طقطقة حذاء الصبي يضرب الجليد. لم تصدق بسهولة أذنيها. وتساءلت باندهاش: «هل إنّ ذلك الرضيع يعتقد أنه يستطيع أنْ يأخذني بعيداً عن الثعلب؟» تساءلت الإوزة. ورغم وضعها المزري، فقد بدأت تثرثر

ببهجة، وغاصت عميقاً في تصفيرها. كانت في الغالب كما لو أنّها تضحك.

وقد فكرت «إنّ أول شيء يعرفه، هو أن يسقط فوق تصدعات الجليد».

لكن كان هناك ظلام يخيّم تماماً كما لو أنّه ليل، ورغم ذلك كان الصبي قد ميّز كلّ التصدعات والحفر، ما دفعه إلى أنْ يتخذ قفزات جريئة فوقها. ذلك لأنّه يملك نظر قزم جيد الآن، وبإمكانه أنْ يرى حتى في العتمة. وقد رأى البحيرة والشاطئ تماماً كما لو أنه يراهما في وضح النهار.

غادر الثعلب الماكر الجليد حين لامس الشاطئ. تماماً كما كان يشق طريقه باتجاه حافة الأرض. ناداه الصبي: «أسقط تلك الإوزة، أنت أيّها المتسلل!» لكن لم يعرف الذئب الماكر من الذي يناديه، ولم يضيّع الوقت في المراوحة حول نفسه، إنما على العكس منْ ذلك، فقد زاد منْ خطواته.

شقّ الثعلب طريقه باستقامة باتجاه الغابة وتبعه الصبي، من دون أنْ تخطر بباله فكرة المغامرة التي يقوم بها. إنما على العكس من ذلك، فإنه كان يفكر طيلة هذه الفترة بالاحتقار الذي تلقّاه من الإوز البرّي ذلك المساء، وقد فكر في جعلهم يرون أنّ الإنسان هو مخلوق راقٍ أكثر من جميع المخلوقات الأخرى.

صرخ، مرة أخرى وأخرى على ذلك الكلب، كي يسقط لعبته: «أيّ نوع من الكلاب أنت، منْ يستطيع أنْ يسرق كل الإوز ولا يشعر بالخجل منْ نفسه؟ أسقط ما بين فكيك، أقول لك، أو إنني سأخبر سيدك بتصرفك هذا!».

حين رأى الثعلب الماكر أنه قد وقع في خطأ مع كلب مخيف، شعر بمتعة أنه على وشك أن يلقي بالإوزة منْ بين فكّيه نحو الأرض، ويعتبر الثعلب الماكر متأملاً كبيراً لا يقنع بصيد الفئران وطير اليمام في الحقول، لكنه أيضاً يخاطر في مساحات الحقول ليسرق الدجاج والإوز. وقد عرف أنه كان يخاف السرقة بين الضواحي؛ وأي نوع منْ هذه الحماقات التي لم يسمع بها منذ أنْ كان طفلاً صغيراً.

جرى الصبي بسرعة شديدة بحيث إنّ أشجار الساحل كانت تبدو جارية لتسبقه – وأخيراً، كان قريباً جداً منه وأوشك على الإمساك بذيله. «والآن، سآخذ الإوزة منك بأيّة طريقة». صرخ الصبي، وأمسك بقوة بقدر ما يستطيع، ولكن لم تكن لديه القوة الكافية ليوقف الثعلب الماكر عند حدّه. سحبه الثعلب إلى الأمام، إلى حدّ أنّ أوراق الشجر الجافة شكّلت دوّامة منْ

حوله.

بدأ الفجر يبزغ على الثعلب الماكر، لكن كيف يمكنه الخلاص من ذلك المخلوق الذي يطارده. توقف فترة قصيرة، وضع الإوزة على الأرض، ثم حملها بين مخالبه الأمامية، وهكذا، فإنها لن تستطيع الطيران طويلاً. كان تماماً على وشك أن يعضّها منْ رقبتها – لكن لمْ يستطع مقاومة رغبة تمزيقها قال: «أسرع الآن واشكني لسيدك، لأنني الآن سأعض الإوزة حتى الموت!».

بالتأكيد يمكن للمرء أنْ يندهش حين يرى أنفاً مدبباً، ويسمع صوتاً أجشّ غاضباً لذلك الكلب الذي يتعقبه والذي كان – هو الصبي! لكنّه الآن غاضب لأنّ الثعلب كان يسخر منه أو أنه لم يفكر أبداً أنه كان خائفاً. أمسك بذيله واستعد تماماً في مواجهة جذع الشجرة؛ وفي اللحظة التي فتح فيها الثعلب فكيّه عن حنجرة الإوزة، انسحب قدر استطاعته. كان الثعلب الماكر مندهشاً جداً في أنْ يرى نفسه قد انسحب نحو الخلف خطوتين – هربت الإوزة من بين فكيّه، ورفرفت عالياً بوهن لشعورها بالثقل. كان أحد جناحيها قد جرح جرحاً عميقاً وكان من الصعوبة عليها أنْ تستخدمه. فضلاً عن ذلك، إنها لن تستطيع الرؤية أثناء الليل الدامس في الغابة، كما لو أنها عمياء، لكن لا حول لها ولا قوة. بعد ذلك، لا تستطيع مساعدة الصبي بأيّ طريقة. راحت تتلمس طريقها من خلال أغصان الأشجار وطارت نحو الأسفل باتجاه البحيرة مرة ثانية.

قام الثعلب الماكر بحركة إزاء الصبي: «إذا لم أحصل على إحدى الإوزات، فإنني بالتأكيد سأحصل على غيرها، وستعرف عن طريق صوتها كيف كانت هي مجنونة». «أوه، لا تصدق ذلك». قال الصبي الذي كان في أفضل وضع نفسي لأنه قد أنقذ تلك الإوزة. وقد أسرع بإمساك الثعلب من ذيله وتأرجح به إلى جانب واحد كما تأرجح الذيل أيضاً؛ بينما حافظ الصبي على تشديد قبضته عليه، وهكذا لم يستطع الثعلب الإمساك به هو الآخر.

ثمة رقص في تلك الغابة التي تطفو فوقها أوراق الزان بهدوء! كان الثعلب الماكر يتأرجح دائرياً، كما الذيل هو الآخر يتأرجح؛ بينما يمسك بقبضته بشدة عليه، وهكذا فإنّ الذئب لم يستطع الإمساك به.

كان الصبي مرحاً جداً بعد نجاحه ذلك، وضحك فقط وراح يسخر من الثعلب. لكن الأخير بقي مواظباً – بوصفه صياداً قديماً عموماً – وبدأ الصبي يشعر بالخوف من الإمساك به في

نهاية الأمر.

وبسرعة البرق، ترك ذيل الثعلب وتسلّق شجرة الزان. كان الثعلب الماكر مثاراً، ما جعله يستمر بالرقص والدوران طويلاً حول نفسه بعد أنْ ترك الصبي ذيله.

قال الصبي: «لا تزعج نفسك بالرقص بعد الآن».

لكن الثعلب الماكر لم يستطع تحمّل إذلاله وفشله في الحصول على الأفضل لمثل هذا التطفل القليل، وهكذا استسلم تحت الشجرة، ليس بعيداً عن مراقبته.

لكن الصبي لم يكن يتمتع بوقت جيد بهذه العملية حيث جلس، منفرج الساقين، كغصن واهن. لم تكن شجرة الزان اليانعة حتى الآن، تصل إلى ظل الأغصان – وهكذا فإنّ الصبي لم يستطع هو الآخر الصعود إلى الشجرة الأخرى، ولم يتجرأ على الهبوط. كان يشعر بالبرد القارس والخدر الذي دائماً ما يفقد قدرة الإمساك بالغصن تماماً؛ ونام بطريقة مرعبة؛ ولم يجرؤ على النوم خشية السقوط إلى أسفل الشجرة.

ربّاه! كان ذلك الجلوس محزناً بتلك الطريقة طوال الليل في الغابة! إنه لم يفهم من قبل المعنى الحقيقي ل «الليل» ويبدو كما لو أنّ العالم كله قد تحول إلى حجر، ولم يعد بإمكانه المجيء إلى الحياة مرة أخرى. ثم بزغ الفجر. كان الصبي سعيداً، وعاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي السابق؛ رغم أنّ البرد كان أشد قسوة مما كان عليه في الليلة الماضية.

انحدرت أشعة الشمس نحو غروبها مثل عناقيد عظيمة؛ ترقباً لطبيعة ليل قادم، وظهر كل شيء أحمر، كما لو أنّ الجميع يشعر بالذنب: الغيوم في السماء؛ وأغصان الزان الحريرية؛ وتشابك الأغصان؛ وظلال الغابة. واعتقد الصبي أن كل هذه الأشياء تبدو كما لو أنها غاضبة، وقد اندهش من سبب غضبها، فربما يكون الليل قد سبّب لها برداً وجعلها تشعر بالكآبة على الأرض حين غادرت الشمس الأرض مساء. وقد هبط شعاعها على شكل عناقيد عظيمة، لتبرهن على مصير الليل وإلى أين سيؤول، ولتبرهن أيضاً ما الذي يحمله؛ وها هي أضفت على جميع الأشياء حمرة خجلة – كما لو أنّها تشعر بتأنيب الضمير.

الغيوم في السماء، وأطراف الزان الحريرية؛ والأغصان الغضّة المتشابكة؛ وظلال الغابة التي تغطي الأجمة – أمست كلّها متوردة وذات صبغة حمراء. وتزداد أشعة الشمس أكثر فأكثر لتلقي انفجاراً في الفضاء، ولكن سرعان ما راح رعب الليل يتلاشى؛ ثم برزت الأشياء المدهشة من الكائنات الحية، مثل: نقّار الخشب، ذو الرقبة الحمراء الذي بدأ يطرق بمنقاره

على الغصن، وانحدار السنجاب من عشّه حاملاً حبة بندق، وهو جالس على الغصن ويزيل قشرتها، ومن ثم فقد التهمه الثعلب؛ ولم يزعجوا أنفسهم بالبحث عنه.. ثم جاء الزرزور طائراً وبمنقاره دودة، وأخيراً صدح غناء طائر الدغناش قادماً من أعلى الشجرة.

بعد ذلك أدرك الصبي أنّ الشمس قد قالت لكل تلك المخلوقات الصغيرة: «استيقظي الآن، واخرجي من أعشاشك! فأنا هنا! والآن لا تخافي من أي شيء».

وجاء نداء الإوز البرّي الذي يسْمع من البحيرة، في وقت كان يتهيأ للطيران؛ وفجأة جاء أربع عشرة من الإوز طائراً عبر الغابة. حاول الصبي أن يناديهم، لكنهم حلّقوا عالياً إلى حدّ أنّ صوته لم يصلهم. ربما اعتقدوا أن الثعلب كان قادماً إليهم ليأكلهم، لكن لم يعيروا له انتباهاً للبحث عنه.

اقترب الصبي باكياً بغمّ؛ لكنّ الشمس ما زالت واقفة هنالك – بلونها البرتقالي تغمرها السعادة – وتبعث الشجاعة في العالم أجمع. قالت الشمس: «ليس مهماً، أنْ يتعرض نيلز هولغيرسون لهذا الإزعاج، طالما أنني هنا».

مطاردة الإوز

الاثنين، الحادي والعشرون، آذار/ مارس.

ما زال كلّ شيء على وضعه في الغابة طالما بقيت إوزة تتناول فطورها. لكنْ في الصباح الباكر، جاءت الإوزة وحدها محلّقة تحت ظلال الشجر الكثيف. جاءت وهي تتلمس طريقها بتردد بين سيقان النبات والأغصان، وتطير ببطء. حالما رآها الثعلب الماكر، غادر مكانه تحت أشجار الزان، وتسلّل باتجاهها. وعادة لا يتجنب الإوز البرّي الثعلب، لكنها طارت بهدوء قريباً منه. وقفز الثعلب قفزة عالية نحوها، لكنه أخطأها؛ واستمرت الإوزة في طريقها، إلى البحيرة.

لم يمر وقت طويل حتى جاءت إوزة أخرى طائرة، واتخذت الطريق نفسه في البداية، استمرت في الطيران ببطء، ببطء، وطارت أيضاً قريبة من الثعلب الماكر، وقام بقفزة كبيرة باتجاهها إلى حدّ أن أذنيه مستا أقدامها.

لكنها، أيضاً، استطاعت أنْ تهرب منه دون أذى، وشقّت طريقها باتجاه البحيرة، صامتة كظل.

مرّ وقت قصير، ومن ثم مباشرة جاءت إوزة أخرى. كانت تطير على علوّ منخفض، بدا صعباً

بالنسبة إليها أن تجد طريقها بين أغصان الزان. قفز الثعلب قفزة قوية! كان على مسافة شعرة من رأسها للإمساك بها؛ لكن تلك الإوزة استطاعت الإفلات منه.

بعد أن اختفت تماماً، جاءت أربع إوزات أخر. طارت ببطء وعلى نحو رديء، إلى حد جعل الثعلب يعتقد أنّ بإمكانه الإمساك بها من دون جهد يذكر، لكنه الآن خشي الفشل، وقرر أنْ يتركها تطير عابرة من دون تحرّش. اتخذت الاتجاه ذاته الذي اتخذه الإوز الآخرون؛ كانت تماماً فوق الثعلب، غاصت نحو الأسفل إلى حد أنه حاول الإمساك بذيلها. لكنها انحرفت بسرعة باتجاه آخر وأنقذت حياتها.

قبل أن ينهي الثعلب لهاثه، جاء سرب مكوّن منْ أكثر من ثلاث إوزات طائرات. كن تماماً محلقات كما بقية الإوز. قام الثعلب بقفزات عالية على تلك الإوزات، لكنه لم ينجح باصطياد أيّ منهنّ.

بعد ذلك، جاءت أكثر من خمس إوزات؛ لكنّهنّ يطرن أفضل من الإوزات السابقات. رغم أنهن ظهرْن كما لو أنهن يراوغن الثعلب في القفز، إلا أنه قاوم الإغراء. بعد مرور وقت طويل جاءت إوزة منفردة. كانت الثالثة عشرة. كانت كبيرة في السن بحيث بدت تميل إلى اللون الرمادي من دون أنْ تظهر بقع داكنة في أي مكان من جسمها. ومن الواضح، أنها كانت تستخدم جناحاً واحداً فقط، وتطير بطريقة بائسة، ومنحنية بحيث إنها تمس الأرض في طيرانها في الغالب. لم يقم بقفزة عالية عليها، إنما كذلك راح يتعقبها، يجري ويقفز كل الطريق المؤدي إلى البحيرة. ولكن في هذا الوقت سيواجه متاعب كثيرة بهذا الشأن.

حين جاءت الإوزة الرابعة عشرة مباشرة، بدت جميلة لأنها بيضاء اللون. ولأنها تملك جناحين كبيرين للطيران، أخذت تتلألأ كمصباح في الغابة. حين رآها الثعلب الماكر، سيطر على قوته وقفز نصف قفزة فوق الشجرة المظللة. لكنّ الإوزة البيضاء طارت من دون أن يصيبها أذى كما بقية الإوزات السابقات.

والآن ساد الهدوء للحظة تحت ظلال الزان. وبدا كما لو أنّ سرب الإوز كله قد طار سريعاً.

وتذكر فجأة أسيره، ورفع عينيه باتجاه شجرة الزان اليانعة. وتماماً كما لو أنه توقع – أنّ الصبي قد اختفى.

لكنّ الثعلب الماكر لم يملك الوقت الكافي للتفكير؛ عادت الإوزة الأولى الآن مرة ثانية من البحيرة وهي تطير ببطء تحت الشجرة اليانعة. ورغم كل سوء حظه، فقد كان الثعلب الماكر

سعيداً بعودة هذه الإوزة. اندفع وراءها بقفزات عالية. كان يسرع أكثر من اللازم، إذ لم يكنْ لديه الوقت الكافي ليحسب المسافة بينه وبين الإوزة، وهكذا توقف قريباً من الإوزة. ومنْ ثم جاءت إوزة أخرى؛ وثالثة؛ ثم رابعة؛ وخامسة؛ إلخ.. إلى أن اكتملت الحلقة في منطقة الجليد الرمادي القديم، والجليد الكبير الأبيض. وحلق الإوز كله نحو الأعلى ثم نحو الأسفل. تماماً كما لو أنهم يشكلون دائرة قرب الماكر، ثم غاصوا نحو الأسفل – كما لو أنّ هناك دعوة له – ليأخذهنّ. وفعلاً جرى خلفهن وزاد من عدد قفزاته إلى علو عدة أمتار، لكنه لم يستطع الإمساك بأيّ منهن.

كان يوماً مرعباً في تجربة الثعلب الماكر. حافظ الإوز على رحلاتهم فوق رأسه. ذهاباً وإياباً – ذهاباً وإياباً. إوز عظيم، ورائع. يتغذى الثعلب على دسم أجسادهم التي تغذت في المروج الألمانية وحقول القمح، ويدورون طيلة النهار بين ثنايا الغابة، ويقتربون منه جدّاً ويلامسونه مرات عديدة؛ نعم، ومع ذلك لم يسمح له أن يشبع جوعه ولو بإوزة واحدة.

لم يبق من فصل الشتاء إلا ذيوله، ويتذكر الثعلب الماكر ويعيد لياليه ونهاراته حين أرغم على الصيد بتكاسل في الغابة، من دون الحصول على أرنب واحد؛ حين اختفت الفئران تحت الأرض المتجمدة؛ وحين أغلق الدجاج أبوابه كلّها. إلا أن جوع الشتاء صعب لدرجة أنه لا يحتمل التقديرات الخاطئة.

لم يكن الثعلب الماكر شاباً. وقد واجه مطاردة الكلاب إيّاها مرات عديدة وسمع أصوات إطلاقات النار تئز حول أذنيه. وكان يخفي نفسه وهو مضطجع في عرينه، بينما كانت الكلاب الألمانية تزحف لحفر الشقوق بحثاً عنه. لكن كل المعاناة التي أرغم عليها خلال المطاردات الساخنة، لا تعدّ شيئاً مقارنة بالوقت الذي يبدده في ملاحقة الإوزات البرية.

وفي الصباح حين تبدأ المطاردة، يبدو الثعلب الماكر منصعقاً حين يكون الإوز مندهشاً عند رؤيته له. وهو يستعرض نفسه مرتدياً معطفه الأحمر اللماع؛ وبصدره الأبيض؛ وأنفه الأسود؛ بذيله الشبيه بريشة كثيفة. لكنْ حين يطلع النهار، يطوي معطفه بطيات سائبة. أما هو فيسبح بعرقه؛ وتبدو عيناه من دون بريق؛ ولسانه معلّقاً بعيداً عن فتحة فكيّه؛ والزبد يسيل من فمه.

حين يخيّم المساء، يكون التعب قد أنهك الماكر إلى حدّ الهذيان. ولا يرى أيّ شيء أمام عينيه باستثناء تحليق الإوز، يروح يقفز فوق بقع الشمس التي يراها فوق الأرض؛ ويقفز على الفراشات المسكينات اللائي خرجن من يرقاتهن منذ لحظات.

ويطير ويطير الإوز البري من دون توقف طيلة النهار، وهو يستمر في تعذيب الثعلب الماكر. ولن يفكر الإوز بالإشفاق عليه، لأنه كان ينفق وقته محموماً من دون أن يفكر قيد أنملة. الإوزات مستمرات من دون توقف، رغم أنهن يفهمن أنه نادراً ما يراهنّ، ولذلك فهو يقفز على ظله فقط.

غاص الماكر في نهاية الأمر نحو الأسفل على قشرة أعشاب جافّة، لا حول لها ولا قوة، وفي الغالب فقد بدا مستعداً للتخلي عن الشبح، وقد توقفن عن إرضائه.

«والآن، إنك تعرف يا أيها السيد الماكر، ماذا يحدث لشخص إذا تجاسر واقترب من أكّا ألكيبنكسي» بهذا صرخت الإوزات في أذنيه؛ وتركنه بسلام.

- سنطلق عليه عبارة الثعلب الماكر، وسنقرؤها هكذا أينما ترد في هذا الكتاب. المترجم.

الفصل الثالث
الرحلة العجيبة لنيلز

في الحقل

الخميس، الرابع والعشرون من آذار/ مارس.

حدث حينها شيء ما في «سكونه»، وفتح باب النقاش، الذي تسرب إلى الصحف وقد نشرته، إلا أن كثر اعتقدوا أن الأمر لا يتعدى الخرافة، إذ ما من أحد وضّح الأمر.

وبيان ذلك: إنّ سيدة السنجاب قد ألقي القبض عليها في قارورة عسل على ساحل بحر بحيرة فومب، ونقلت إلى بيت ريفي قريب من الساحل. وإنّ جميع الناس في الحقل، شباباً وشيباً، كانوا مسرورين بهذا المخلوق الجميل ذي الذيل الكثيف، والعينين الفضوليتين الحكيمتين والقدمين الأنيقتين. وراحوا يمتّعون أنفسهم من خلال مراقبة حركاتها الرشيقة طيلة موسم الصيف، وطريقتها الحاذقة، وصدفتها البندقية، وألعابها المهرجة، وسارع هؤلاء الناس إلى بناء قفص سنجاب، وبيت صغير أخضر اللون، له أبواب ونوافذ، وعجلة ذات أسلاك أسطوانية. راحت السيدة السنجاب تستخدم غرفة الطعام وغرفة النوم، بعد ذلك، جلبوا لها سرير نوم، فضلاً عن سلطانية حليب، وبعض البندق، كان السلك الدائري تستخدمه كبيت للعب، حيث تستطيع أنْ تركض وتتسلق وتدور حول نفسها.

يعتقد الناس أنهم وفّروا كل أسباب الراحة للسيدة السنجابة، واندهشوا حين بدت متأففة، وأنها جلست في زاوية غرفتها كئيبة مضطربة. وباتت تطلق صرخة حزينة بين الفينة والأخرى. لم تذق الطعام، وما عادت تلعب وتدوّر العجلة. قال الفلاحون: «من المحتمل أنها خائفة، وغداً ستشعر بالارتياح وتعتاد على البيت، وستبدأ بتناول الطعام واللعب».

في هذه الأثناء، بدأت النساء في الحقل يتهيأن للتحضير لحفلة؛ ومنذ أنْ ألقي القبض على السيدة سنجاب، كنّ مشغولات بصنع الكيك، وكن غير محظوظات أحياناً: إمّا العجين غير ناضج أو إنّهن كنّ متلكئات، لأنهن اضطررن للعمل فترة طويلة بعد حلول الظلام.

من الطبيعي أن يكون هناك إثارة وصخب شديدان في المطبخ، من المحتمل أنْ ليس هناك منْ لديه الوقت الكافي كي يفكر في السيدة أو يتساءل كيف ترتحل، لكن لدينا جدّة في

الدار بلغت من العمر عتيّاً تستطيع تحضير الخبز، وهذا ما تعرفه جيداً، إلا أنها لا تعرف أيضاً بأنها أمست خارج اللعبة. شعرت إلى حدّ ما أنها مكتئبة؛ لهذا فإنها لم تستطع الذهاب إلى فراش النوم، وذهبت إلى غرفة الجلوس بدلاً من ذلك لتنظر خارجها. كان باب المطبخ مفتوحاً جراء تزايد الحرارة؛ ومن خلاله بدأ الضوء يتدفق إلى الفناء الخارجي إلى حد أن المرأة كان بإمكانها أن ترى كل الشقوق والثقوب من طبقات الجص على الجدار المقابل. ورأت أيضاً قفص السنجاب، الذي كان معلّقاً حيث كان الضوء يسقط بجلاء. كما لاحظت كيف تجري السنجابة من الدولاب إلى غرفتها، ومن غرفتها إلى الدولاب، طيلة الليل، من دون أنّ تتوقف لحظة واحدة. ولاحظت أنها مخلوق غريب قلق قد تغلب على الحيوان؛ لكنها اعتقدت، بالطبع، أن الضوء الشديد قد حافظ على يقظتها.

بين حظيرة الأبقار والإسطبل كانت هناك عربة نقل عريضة مغطاة؛ يأتي هذا أيضاً من خلال حزمة شعاع. حين حلّ الظلام، رأت الجدة العجوز مخلوقاً صغيراً، ليس أكبر من كف اليد، يتسلل بحذر من خلال البوابة. كان يرتدي سروالاً جلديّاً، وحذاء خشبيّاً، مثل أي عامل آخر. شخّصت الجدة العجوز حالاً أنه كان القزم، وأنها لن تخاف منه أبداً، لأنها دائماً ما تسمع أنّ ذلك القزم يحافظ على نفسه في مكان ما، رغم أنها لم تره سابقاً؛ ولكنه قزم، وكي تتأكد، فإنه سيجلب الحظ الحسن أينما يظهر.

حالما دخل القزم الساحة الحجرية المبلّطة، ركض باستقامة باتجاه قفص السنجاب. منذ أن تعلّق عالياً، فإنه لم يستطع أن يصلها، وصعد إلى المخزن بعد أنْ وضع قضيباً مقابل القفص؛ وأرجح نفسه للأعلى، بالطريقة التي يتعلق بها البحار بواسطة حبل. حين اقترب من القفص، هزّ باب البيت الصغير الأخضر كما لو أنه يريد فتحه؛ لكن الجدة العجوز لم تحرك ساكناً؛ لأنها عرفت أنّ ذلك الطفل قد وضع قفلاً على الباب، كأنهم كانوا خائفين من ذلك الصبي القادم من الحقول المجاورة ساعياً إلى سرقة السنجاب. أدركت الجدة العجوز، حين لم يستطع الصبي فتح الباب، أنّ السيدة سنجاب تتقدم نحو عجلة الأسلاك والتقيا. حين أصغى الصبي إلى ما كان يجب على جميع تلك الحيوانات المسجونة أن تقول له، تزحلق على القضيب، ونزل نحو الأرض، وراح يجري باتجاه بوابة العربة.

لم يكن وارداً لدى العجوز أن ترى شيئاً بعد أن رأت القزم، إلا أنها بقيت ملازمة النافذة. لحظات وعاد ذلك القزم. كان في عجلة من أمره، وبدا لها كما لو أنّ قدميه تلامسان الأرض؛ اندفع بسرعة نحو الأعلى إلى قفص السنجابة. شاهدته المرأة العجوز بوضوح؛ وهو يحمل

بيديه شيئاً ما؛ لكن لم تتخيّل ما هو وضع ما يحمله بيده اليسرى على الأرضية، لكن ما تحمله يده اليمنى أخذه معه إلى القفص. ركل بحذائه الخشبي النافذة الصغيرة بقوة، ما أدى إلى كسر زجاجها. ثم دفع بما كان يحمله بيده السيدة سنجابة إلى الأمام. انزلق نحو الأسفل، رفع ما كان قد وضعه على الأرض، ثم تسلّق القفص بما حمله. وفي اللحظة التالية جرى مرة ثانية بسرعة، إلى حد أنّ المرأة العجوز وجدت صعوبة في متابعته.

لكنّ الجدة العجوز لم تواصل جلوسها في الكوخ. خرجت ببطء شديد إلى الفناء الخلفي، وجلست في ظلال مضخة الماء، بانتظار عودة القزم. هناك شيء آخر شاهدته أيضاً يثير الاستغراب؛ إنه قط المنزل، الذي راح يتسلل إلى الأمام بمكر، توقف بالقرب من الحائط؛ على مسافة خطوتين من تيّار الضوء. وكلاهما وقف طويلاً وبنفاد صبر؛ في ليلة آذار/مارس القارسة. كانت المرأة العجوز قد بدأت تفكر بالذهاب مرة أخرى حين سمعت صوت قعقعة على الرصيف، ثم شاهدت مخلوقاً صغيراً يشبه القزم قادماً وهو يهرول أكثر من مرة، حاملاً ثقلاً في كل يد من يديه كما فعل في السابق. وما كان يحمله هو فرخ وفرخة السنجابة. والآن أشرق ضوء الفجر على المرأة العجوز. وفهمت أن ذلك القزم كان يسرع الخطى نحو بستان البندق، ثم عاد حاملاً صغيري السيدة سنجاب، ومن ثم حملهما وأعطاها إياهما، وبذا لم يعانيا من الجوع.

بقيت الجدة العجوز واقفة مكتوفة اليدين من دون حركة، لكي لا تزعجهما؛ وظهر كما لو أنّ القزم لم يلاحظها أبداً. كان يبدو كما لو أنه يريد أنْ يضع أحد الصغيرين على الأرض. لذلك راح يؤرجح نفسه نحو الأعلى مع الصغير الآخر، وحين رأى عيني القط الخضراوين تتلالآن قريبتين من صغير السنجابة، وقف هناك، مندهشاً، وهو يحمل أحد الصغيرين في كلتا يديه.

استدار ونظر إلى كل الجهات؛ أدرك الآن حضور المرأة العجوز. لم يتردد طويلاً، لكنه خطا نحو الأمام، ورفع ذراعيه إليها بأعلى ما يستطيع لتأخذ أحد صغيري السنجابة.

لم ترغب المرأة العجوز أن تبرهن لنفسها أنها غير جديرة بالثقة، لهذا انحنت وحملت السنجاب الصغير لحين تمكن الصبي من الوصول إلى القفص حاملاً السنجاب الآخر. ثم عاد إلى ذلك الذي ائتمنها عليه.

في الصباح التالي، حين جاء الأبناء ليتناولوا فطورهم، كان من المستحيل على المرأة العجوز الامتناع عن إخبارهم بما رأت الليلة الماضية. ضحك الجميع منها، بالطبع، وقالوا لها إنك

كنت تحلمين فقط، وليس هناك سناجب صغار في هذا الوقت المبكر من السنة.

لكنها كانت متأكدة من نفسها، وطلبت منهم أن يلقوا نظرة على قفص السنجابة، وفعلوا ذلك تماماً. كان هناك، على سرير أوراق الشجر، أربعة سناجب صغار نصف عراة، عيونهم بالكاد مفتوحة، لا تتجاوز أعمارهم اليومين..

حين رأى الفلاح نفسه صغار السنجابة، قال: «يبدو ذلك صحيحاً كما نراه الآن؛ لكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً، إذ إننا في هذه المزرعة، قد تصرفنا بهذه الطريقة المخجلة أمام الحيوانات والكائنات الإنسانية». بعد ذلك، أخذ السنجابة الأم وجميع صغارها من القفص، ووضعهم في حضن المرأة العجوز.

قال: «اذهبي إلى بستان البندق معهم، كي يعيشوا بحريتهم مرة ثانية».

دار حديث كثير عن هذه الحادثة، حتى تناولتها الصحف، لكن أغلبية الناس لم يصدقوها، ولم يكن بإمكانهم حتى تصديق أنّ مثل هذا الشيء من الممكن حدوثه.

فيتسخوفله Vitskovle

السبت، السادس والعشرون من آذار/مارس.

بعد يومين، وفي أحد الصباحات، حدث شيء غريب؛ إذ جاء سرب من الإوز البريّ طائراً، وحطّ في أحد المروج شرق مقاطعة «سكونه» ليس بعيداً جدّاً عن مزرعة «فيتسخوفله». كان من ضمن ذلك السرب ثلاث عشرة من الإوز البري من اللون الرمادي المتنوع، أحدها ذكر الإوز ذو اللون الأبيض، الذي كان يحمل على ظهره صبيّاً صغيراً يرتدي بنطال جلد أصفر اللون، وصديرياً أخضر، وقبعة صوفية بيضاء على مزلجة جليد.

هم الآن قريبون جدّاً من بحر البلطيق؛ وعلى المرج هبط الإوز على تربة رملية، كالمعتاد، على ساحل البحر. ويبدو كما لو أنه، كان في الماضي، وهناك رمال متحركة في المنطقة المجاورة ينبغي أن تحملها نحو الأسفل؛ وباتجاهات عدة، والتي يمكن أن نرى من خلالها أشجار غابات الصنوبر.

حين راح الإوز البريّ يتلقف أكله، جاء بعض الأطفال مشياً على الأقدام عبر حافة المروج. نهض الإوز الذي يقوم بدور الحراسة مباشرة، وطار في الهواء وخفق بأجنحته بقوة. لذا فإن جميع السرب أدرك أنّ ثمة خطراً على وشك الوقوع. طار إلى الأعلى؛ لكن الإوز الأبيض

تبختر بطيرانه غير مبالٍ. حين رأى الآخرين محلّقين عالياً، رفع رأسه وراح يناديهم: «يجب ألا تبتعدوا كثيراً! إنهم مجرّد مجموعة من الأطفال ليس إلا!».

أما المخلوق الصغير، الذي كان يركب على ظهره، جلس على هضبة صغيرة في ضواحي الغابة والتقط مخروطاً صنوبرياً ليقطعه، لكي يحصل على البذور. كان الأطفال قريبين جدّاً منه، إلى حد أنه لم يجرؤ على الهروب عبر المرج إلى الإوز الأبيض، لكنه أخفى نفسه تحت شجرة الشوك، وفي الوقت ذاته أطلق صرخة تحذير. أما الإوز الأبيض فقد راح يفكر بشكل واضح بطرد الخوف من داخله. وراح يتبختر على طول الطريق كل هذه الفترة، ولم ينظر أبداً في أيّ اتجاه كانوا يسيرون.

في هذه الأثناء، عادوا من المنعطف وساروا عبر الحقل، راحوا يقتربون ويقتربون من قائد الإوز الذي كان يبحث عنهم، راحوا هم أيضاً يبحثون عنه. كان مصعوقاً جدّاً، وراح يشعر بالاضطراب إلى حد أنه نسي أنه كان يطير، وحاول أن يخرج عن مسارهم عن طريق الطيران. لكن الأطفال تبعوه، وطاردوه ولحقوه إلى الخندق. وكان أكبر الأطفال قد التصق به تحت ذراعه.

حين اضطجع الصبي تحت شجر الصفصاف، رأى أنه قفز كما لو أنه يريد أن يلهيهم قائد الإوز؛ وكان عليه تَذكُّر بأنه ضئيل الحجم بلا قوة تُذكر. لقد رمى نفسه على الهضبة ووقع على الأرض بقبضتين مكورتين.

صرخ قائد الإوز بكل ما يستطيع من قوة لنجدته: «يا ثمبيتوت، تعال لنجدتي! أوه، ثمبيتوت، تعال لنجدتي!». وبدأ الصبي بالضحك، رغم ما كان يحمله من حزن في داخله. قال ساخراً: «أوه، نعم! استطيع مساعدة الجميع وأنا في هذا الوضع».

على كل حال، نهض وتبع قائد الإوز. وقال: «إنني لا أستطيع مساعدته، ولكنني سأكتشف على الأقل إلى أيّ مكان قد أخذوه».

كان الأطفال قد بدؤوا بداية جيدة؛ لكن الصبي لم تكن لديه أية صعوبة في إبقائهم تحت مدى نظره إلى أنْ دخلوا في جوف غدير يتدفق إلى الأمام بشكل لا يحتمل. لكنه هنا كان مضطراً للركض بجانبه لبعض الوقت، قبل إيجاد مكان ضيق كافٍ له كي يقفز فوقه.

حين عاد من التجويف الذي اكتشفه الأطفال، اكتشف أثر أقدامهم على الدرب الضيق الذي يؤدي إلى الغابة، وبذلك استمر في متابعتهم.

ثم سرعان ما عاد إلى تقاطع الطريق. وهنا يجب على الأطفال أن يفترقوا، لأنهم اكتشفوا أيضاً أنّ هناك آثار أقدام في اتجاهين. فكر الصبي الآن كما لو أنّ الأمل قد تلاشى. ثم رأى شيئاً صغيراً أبيض على هضبة نباتات الخلّنج. فهم أنّ قائد الإوز الذكر أسقط هذا على جانب الطريق لكي يعرف في أيّ اتجاه كان يحمله؛ وبهذا استمر في بحثه. وتبع الأطفال في مجاهل الغابة كلّها. لم يره قائد الإوز؛ لكن مهما كان المكان الذي هو فيه، فمن المحتمل أنه فقد طريقه، ووضع شيئاً صغيراً أبيض ليؤشر له إلى الطريق الصحيح.

استمر الصبي باهتمام بالغ يتابع أصغر الأشياء التي تقوده إلى الغابة، عبر مجموعة من المروج، وليدخل بعدئذٍ الدرب عبر منعطف واسع، وفي نهايته وجد هناك جملونات[1] وأبراجاً من القرميد الأبيض، مؤطرة بأبعاد لمّاعة وأخرى مزخرفة برّاقة. حين رأى الصبي أنّ ذلك ما يشبه مزرعة كبيرة، فكّر أنه قد عرف أنّ هذا يؤدي إلى مكان قائد الإوز. قال لنفسه: «لا شك أنّ الأطفال قد حملوا قائد الإوز إلى المزرعة وباعوه هناك. وفي هذا الوقت ربما قد ذبحوه»، لكن لا يبدو أنه مقتنع بهذا حيث لم يكن هناك ما يثبت ذلك. استعاد شجاعته وراح يجري إلى الأمام. لم يواجه أيّ إنسان في المنعطف – وهذا، مثل ذلك الذي دائماً ما يخيفه الناس – وذلك شيء حسن.

أما قصر صاحب المزرعة الذي وصله فقد كان بناء رائعاً قديماً، يحتوي أر بعة أجنحة فضلاً عن الفناء. ففي الجناح الشرقي هناك قوس عالٍ يؤدي إلى ذلك الفناء. وهكذا جرى الصبي من دون تردد، لكن حين وصل إلى هناك توقف. لم يتجرأ بالمضي أبعد من ذلك، فقد وقف وراح يتأمل ما الذي يستطيع فعله في الخطوة القادمة.

وبينما كان واقفاً هناك، يتفكر واضعاً اصبعه على أنفه، سمع صوت خطى آت من خلفه، التفت فرأى جمهرة متجهة نحوه، وسرعان ما توارى خلف برميل ماء كان قرب القنطرة.

كانت تلك الجمهرة مكونة من عشرين طالباً شاباً من المدرسة الشعبية العليا، وكانوا في جولة راجلة رفقة أحد معلميهم. طلب منهم المعلم انتظاره لدقيقة، حيث قام بالسؤال إن كان ممكناً مشاهدة القلعة القديمة لمدينة «فيتسخوفله».

كان القادمون الجدد حميمين ومتعبين، كما لو أنهم كانوا في رحلة شاقة. كان أحدهم ظمآنَ جدّاً حيث ذهب مباشرة إلى برميل الماء وانحنى ليشرب. كان يحمل صندوقاً صغيراً جدّاً كأنه صندوق عالم نبات معلّق في رقبته. فكّر به بوضوح وهو في طريقه، لذلك فقد رماه على

الأرض. بهذه الطريقة طار غطاء الصندوق، ويستطيع المرء أن يرى أزهاراً ربيعية في داخله.

سقط الصندوق تماماً أمام الصبي؛ ورأى فيه بالتأكيد فرصته لدخول القلعة، واكتشاف مصير قائد الأوز. وبسرعة دسّ نفسه داخل الصندوق الصغير، واستطاع أن يخفي نفسه بين أزهار شقائق النعمان وأزهار أقدام المهد.

بالكاد كان قد توارى داخل العلبة حين همّ الشاب بالتقاطها، وعلقها متدلية من رقبته وأغلق غطاءها.

ومن ثم عاد المعلّم، وقال إنهم قد مُنحوا موافقة لدخول القلعة. بداية قاد الطلاب إلى فناء القصر، حيث توقف، ثم بدأ يتحدث إليهم عن البناء القديم.

فأخبرهم كيف أنّ الأقوام الذين سكنوا هذا البلد، قد اضطروا للعيش في مغارات وكهوف الجبال؛ وعرائن الحيوانات الوحشية، وفي الأجمات، وكانت تلك حقبة زمنية طويلة جداً انقضت قبل أنْ يتعلموا كيف يبنون الأكواخ من جذوع الأشجار، وبعد ذلك، كيف أرغموا لفترة طويلة على العمل والكفاح قبل أنّ يتقدموا في بناء أكواخ خشبية، ولا يزيد كل كوخ على غرفة واحدة، إلى بناء القلاع التي تضم مئات الغرف مثل، مدينة «فيتسخوفله».

قال: كان هذا قبل ثلاثمائة وخمسين سنة قبل أن يبنوا لهم قلاعاً ثمينة وقوية مثل هذه القلاع. كان من الواضح أن «فيتسخوفله» انتصبت في زمن جعل فيه اللصوص والحروب «سكونه» غير آمنة للعيش فيها. تحيط بالقلعة الخنادق المليئة بالمياه من كل جانب؛ وعبر ذلك كان هناك جسر في الأيام الغابرة يرفع برافعات. وينتصب فوق قوس القلعة برج مائي حتى أيامنا هذه. كانت القلعة محاطة بأروقة حراسات، وفي الزوايا هناك جدران سمكها متر واحد؛ نعم، كانت هذه القلعة لا وجود لها في زمن الحرب الهمجية؛ أما المهندس جينز براهي، الذي بناها، فقد عانى كثيراً ليجعل زخرفتها وديكورها جميلين. فإن استطاعوا أن يجدوا حجر بناء كبيراً وصلداً في غليمنغي، التي بنيت قبل جيل، فإنهم سيكونون مستعدين ليروا البنّاء جينز هولغرسن أولفستاند، ولن يعتمدوا على أيّ شخص لبناء كبير وقوي وآمن من الآن – من دون منح فكرة تعتمد على مواصفات الجمال. فإن كان هناك زوار لهذه القلاع مثل، مارسفنسهولم، وسنوكيهولم، ودير أوفيد – التي شيدت قبل مئات السنين تقريباً – فإنهم سيجدون أنّ الأزمنة أقل من سنوات الحروب. فالرجل المهذب الذي بنى هذه القلاع لم يزينها بالتحصينات؛ لكن لديه العناية الكافية ليزودها ببناء بيوت رائعة.

وتحدث المعلّم مطوّلاً– وبالتفصيل – بينما كان الصبي المستلقي على ظهره قد حبس نفسه في العلبة الصغيرة؛ لكن يجب عليه أن يبقى مستلقياً؛ لأنّ مالك العلبة ليس لديه أدنى فكرة أنه كان يحمله طيلة هذا الوقت الطويل.

وأخيراً، دخلت المجموعة القصر. وإن كان الصبي يأمل بأن تتاح له الفرصة ليتدحرج خارجاً من العلبة الصغيرة، فإنه سيكون مخطئاً، لكون الطالب واصل حمله العلبة طيلة تلك الفترة، وقد اضطر الصبي أن يصطحبه خلال جولته في جميع الغرف. كانت نزهة مملة في الواقع. وكان المعلم يتوقف كل دقيقة ليشرح ويعطي التعليمات.

وجد في إحدى الغرف موقداً قديماً، وقبل هذا قد توقف ليتحدث عن مختلف أنواع المواقد، التي كانت تستخدم على مرّ الزمن. بداية كانت كبيرة داخل البيوت، وعبارة عن مواقد صخرية مسطّحة على أرضية الكوخ، مع وجود فتحة في تلك الأرضية لا تسمح بتسريب الأمطار والرياح. فضلاً عن أنّ هناك إحماء للصخرة الكبيرة من دون أنْ تكون لها فتحة في السقف. وهذا يجعل من حرارة الكوخ مرتفعة جداً، لكنها أيضاً تملؤه بالدخان والسخام. حين بنيت مدينة «فيتسخوفله»، كان الناس متطورين بحيث أنهم قاموا بإنشاء فتحات، لها مداخن مرتفعة لتسريب الدخان إلى الخارج؛ لكنها كانت تأخذ معظم الحرارة معها نحو الأعلى.

إنْ كان ذلك الصبي يملك صبراً طويلاً، فإنّه سيعطى درساً جيداً في الصبر في هذه الأيام. ويجب أنْ يبقى مضطجعاً هذه الساعة كلّها الآن.

ثم دخلوا الغرفة الثانية، وقف المعلم أمام سرير نوم قديم جداً تحيطه ستائر ثمينة ومظلات. بدأ مباشرة يتحدث عن أسرّة النوم ومكانها في الزمن القديم.

لم يكن المعلم في عجلة من أمره؛ لكنه، بعد ذلك، لم يعرف، بالطبع، أن ذلك المخلوق الصغير الفقير قد استلقى على ظهره وأغلق باب العلبة النباتية الصغيرة جداً مترقباً الخروج منها. حين جاؤوا إلى الغرفة حاملين ستائر جلدية مذهبة، تحدث إليهم كيف كان الناس يزيّنون جدرانهم وسقوفهم منذ بدايات العصور. حين وصلوا إلى صورة عائلة قديمة، أخبرهم كل شيء عن المتغيرات في نوع الأزياء كافة، وفي صالة الولائم وصف لهم الأزياء القديمة لولائم احتفالات الأعراس والمآتم.

عند ذلك، تحدث المعلم قليلاً عن النساء والرجال الممتازين الذين عاشوا في القصر: عن

براهيس والشيخ بارنيكاوس المسيحي، الذي أهدى حصانه إلى الملك كي يساعده على تهريب مارغاريتا أشيربيري، التي تزوجت الملك شيل بارينكوف، وهي الأرملة التي أدارت العقارات وكل أمور الضاحية لمدة خمس وخمسين سنة؛ للصيرفي هاغرمان ابن فلاح من «فيتسخوفله»، الذي أصبح غنيّاً جداً واشترى كل عقار شتيرنز فيردز لمدة خمس وثلاثين سنة؛ الذي أعطى سكان «سكونه» أفضل المحاريث التي مكّنتهم من التخلي عن المحاريث الخشبية القديمة البائسة والتي من الصعوبة بمكان أن تسحبها تلك الثيران. خلال كل ذلك، كان الصبي لا يزال مستلقياً. فإنْ كان قد تضرر كثيراً وأغلق باب السرداب على والدته أو والده، قبل ساعات وساعات قبل وصوله إلى هذا المكان، فقد فهم الآن مشاعرهما.

وأخيراً، خرج المعلم إلى الفناء مرة ثانية. ومنْ ثم تحدّث عن العمل الدؤوب للإنسانية التي ستحصل بمشقة على الأدوات والأسلحة، والملابس والبيوت، فضلاً عن الحلي. فقد قال هناك قلعة قديمة مثل قلعة «فيتسخوفله» تبعد مسافة ميل حسب سرعة الطريق السريع. وهنا، يستطيع الإنسان أنْ يرى ما هي المسافة التي تقدمت بها الإنسانية قبل ثلاثمائة وخمسين سنة؛ ويستطيع أيضاً أنْ يحكم بنفسه إنْ كانت الأشياء قد تقدمت نحو الأمام منذ زمنهم ذاك.

لكنْ الصبي كان قد هرب من سماع هذا البحث؛ لأن الطالب الذي كان يحمله كان يشعر بالعطش، فتسلّل خلسة إلى المطبخ ليطلب شربة ماء. والآن قد جلب الصبي إلى المطبخ؛ فعليه أنْ يبحث من حوله عن ذلك الإوز. وبدأ فعلاً بالتحرك، وأثناء ذلك حدث أنْ ضغط بشدة على الغطاء – وطار منفتحاً. كانت غطاءات العلبة النباتية دائماً ما تطير بعد فتحها، لذا فإن الطالب لم يعر انتباها خاصّاً لها، لكنه قد ضغط عليها مرة ثانية. ثم سألته الطباخة إنْ كانت هناك أفعى في الصندوق.

أجاب الطالب: «كلا، لا أملك غير نباتات قليلة فقط». لكنّ الطباخة أصرت: «كان بالتأكيد شيء ما يتحرك». ثم أزال الطالب الغطاء ليريها أنّها كانت على خطأ: «انظري، بنفسك – إذاً –».

ورغم أنه لم يبتعد كثيراً، فقد تجرأ الصبي الآن، على عدم البقاء في الصندوق وقتاً طويلاً، رغم ذلك بقي مكتوف اليديْن على الأرض، وانطلق إلى الخارج. ورغم أنه قلما أنْ تجد الخادمات وقتاً ليرين ما الذي كان يجري، إلا أنهن رغم ذلك أسرعنْ خلفه.

بقي المعلم واقفاً يتحدث حين قاطعته صرخة حادة: «أمسكوا به، أمسكوا به!» صرخ أولئك

الذين جاؤوا من المطبخ؛ الطلاب الشباب جميعاً أيضاً، يتسابقون وراء الصبي، الذي هرول بعيداً أسرع من الفأر. حاولوا أن يقاطعوه قرب البوابة، لكن لم يكن من السهل الإمساك بمثل هذا المخلوق، وهكذا، من حسن الحظ، خرج بعيداً في الفضاء.

لم يتجرأ الصبي أنْ يجري باتجاه المنعطف المفتوح، لكنه استدار باتجاه آخر. اندفع داخل الحديقة إلى الفناء الخلفي. كان الناس يجرون كل هذه الفترة بعده، يصرخون ويضحكون. أما الصبي الصغير المسكين، فقد ركض بأقصى ما يستطيع من قوة لينحرف عن طريقهم؛ لكنه ما زال ينظر كما لو أن الحشد يحاول الإمساك به.

بينما هو يسرع إلى الأمام تجاوز كوخ العمال، وقد سمع ذكر إوز يقوقئ، رآه أبيض اللون مستلقياً على عتبة الباب، في آخر المطاف، كان ذكر الإوز! ويبدو أنه كان على الدرب الخطأ. فكر أنه ليس هناك أكثر من مدبرات المنزل والرجال الذين كانوا يطاردونه، لكنه تسلّق السلالم إلى مدخل الرواق. لا يستطيع أنْ يقترب أكثر من هذا، ذلك لأن الباب كان مغلقاً، وسمع أنّ ذكر الإوز كان يصرخ ويئن في الداخل، لكنه لم يستطع فتح الباب. كان الصيادون يطاردونه، اقتربوا أكثر فأكثر، وفي الغرفة، كان صراخ ذكر الإوز أكثر فأكثر إيلاماً، وتوجه نحو الاهتياجات الرهيبة، وقد تحلّى أخيراً بالشجاعة وراح يدق على الباب بكل ما يستطيع من قوة.

فتح الطفل الباب وتطلع الصبي إلى الغرف. جلست امرأة في وسط الأرضية التي كانت تمسك بذكر الإوز بقوة – تمسك بإحدى ريشاته. كان طفلها هو الذي وجده، ولا تريد أن تسبب له أذى. كان قصدها أن تضعه بين الإوزات حالما تقص جناحيه، كي لا يطير بعيداً، لكن القدر السيئ قلّما يحدث لذكر الإوز، ومنْ ثم صرخ وتأوّه بأعلى صوته.

لكن من حسن حظه أن المرأة لم تشرع بقص ريشه. سقطت ريشتان الآن من قوادمه حين فتح القزم الصغير الباب ووقف على عتبة الباب. لكنّ مخلوقاً مثل تلك المرأة لم تر مثله أبداً. لم تصدق رغم أنه غو– نيز Goa–Nisse نفسه؛ ونتيجة رعبها ذلك قصّتْ ريشتين، وصفّقت بيديها الاثنتين – ونسيت أن تنتظر ذكر الإوز.

حالما شعر بالخوف، جرى باتجاه الباب. لم يمنح نفسه الوقت للوقوف؛ لكن بينما هو يجري أمسكه الصبي من شريط رقبته وقاده بالاتجاه الذي يريد. ولكنه فرش جناحيه على درجات السلّم وارتفع في الهواء؛ في الوقت ذاته، قام باجتياح رشيق مادّاً رقبته وأجلس الصبي على

ظهره الناعم السلس.

وهكذا حلّقا، بينما كان سكان مدينة «فيتسخوفله» جميعاً واقفين ويحدقون به.

في متنزه دير أوفيد

بينما كان الإوز البريّ يلعب مع الثعلب، طيلة النهار، استلقى الصبي ونام في عش السنجاب المهجور. حين استيقظ، في المساء، شعر بقلق. وفكر: «حسناً، سأرسل إلى البيت حالاً! ومنْ بعد ذلك، سوف أعرض نفسي أمام الوالد والوالدة». لكن حين نظر نحو الأعلى ورأى الإوز البريّ، الذي كان مستلقياً في الحمّام في مدينة بحيرة فومب ليك، لم يقل أحد كلمة واحدة عنْ ذهابه.

فكر الصبي: «ربما كانوا يفكرون أنّ الإوز الأبيض كان متعباً جداً ليسافر إلى الوطن معي هذه الليلة».

في الصباح التالي كان جميع الإوز مستيقظاً مع طلوع الفجر، قبل فترة طويلة منْ بزوغ الشمس. شعر الصبي أنه متأكد من الذهاب إلى الوطن؛ كان من الفضول جداً، السماح له ولذكر الإوز الأبيض بمتابعة الإوز البري في رحلته الصباحية القصيرة. لم يدرك الصبي سبب تأجيل الرحلة، لكن حسبها بهذه الطريقة، أنّ الإوز البري لا يعنيه إرسال ذكر الإوز لمثل هذه الرحلة الطويلة حتى يأكل كلاهما طعامهما. وكان سعيداً فقط لكل لحظة تمر قبل أن يلتقي والديه.

سافر الإوز البري عبر دير أوفيد الذي يقع في حديقة جميلة شرق البحيرة، الذي يبدو جليلاً بقلعته العظيمة، وجداره المخطط جيداً ويحيط به فناء وأجنحة؛ وحديقة جميلة من الطراز القديم وتعريشات مغطاة، وجداول، ونافورات؛ وأشجار جميلة، بموازاة أعشاب مشذبة، ومروج مهذبة، بمغارس أزهار الربيع الجميلة.

بينما كان الإوز البري يحلّق فوق العقار في ساعات الصباح المبكرة، فإننا لا نجد أيّ أثر لأيّ إنسان. بينما هم يؤكدون لأنفسهم باعتناء بهذا، غاصوا باتجاه وجار الكلاب، وصاحوا: ما هو نوع هذا الكوخ الصغير؟ ما هو نوع هذا الكوخ الصغير؟

وفجأة خرج إليهم الكلب من وجاره وراح ينبح في الهواء – بشراسة وغضب –.

«هل تسمي هذا كوخاً، أيها الصعلوك! ألا تراه مجرد صخرة قلعة عظيمة؟ ألا ترى أنها

مدرجات، وما هذه البيوت الجميلة والشبابيك والأبواب العظيمة التي تملكها، هو، بوو، وو، وو، وو،؟ ألا ترى الأرضيات، ألا ترى تلك الحدائق، ألا ترى تلك المؤسسات العملاقة، ألا ترى تلك المعاهد المبنية من الرخام؟ أتسمي هذا كوخاً؟ وهل الأكواخ تملك متنزهات مزينة بخشب الزان والبندق وكرم متعرش وأشجار البلوط والألعاب النارية وأراضي الصيد ووو، ووو، وون؟ وهل تسمي هذا كوخاً؟ وهل رأيت أكواخاً كثيرة خارج القصور التي تبدو كما لو أنها قرية؟ يجب أن تعرف أنّ بعض الأكواخ لديها كنيستها وشخصيتها، التي تحكم الضاحية وبيوت الفلاحين والحقول المجاورة والثكنات العسكرية كلها، ووو، ووو، ووو؟ وهل تسمي هذا كوخاً؟ ذاك الذي يعود إلى أغنى المالكين في «سكونه»، أيها الشحاذ! إنك لا ترى ذرة واحدة من الأرض وأنت معلق في الغيوم، هذه ليست طاعة من أوامر هذا الكوخ، ووو، ووو، ووو!».

وبعد كل ذلك، استطاع الكلب أنْ ينبح صارخاً بنفس واحد؛ بينما عاد الإوز البري بطيرانه فوق المقاطعة، وأصغوا إليه حتى تقطعت أنفاسه. لكن بعد ذلك عادوا للصراخ: «ما هذا الجنون هنا؟ إننا لم نسأل عن المقاطعة؛ إننا نريد أن نعرف فقط عن كلبك المكلوب، أيها الغبي!».

حين سمع الصبي هذه النكتة، راح يضحك؛ ثم خطرت بباله فكرة دفعته إلى أنْ يكون جادّاً، فكر كم عدد هذه الأشياء المضحكة التي قد تسمعها، إن كنت تستطيع الذهاب مع الإوز البري من خلال كل البلد، في كل الطريق إلى منطقة لابلاند! قال في نفسه: «والآن حين تتوصل إلى حل سيئ فقط، ورحلة مثل هذه، ستكون أفضل شيء تستطيع الإمساك به».

حلّق الإوز البرّي عالياً متجهاً إلى أحد الحقول الواسعة، شرق المقاطعة، ليلتقطوا حبوب الأعشاب، وبهذا حافظوا على البقاء هناك عدة ساعات. في غضون ذلك، تجوّل الصبي في متنّزه كبير يحاذي الحقول. التقط بذور جوز الزان، وبدأ في البحث عن الأعشاب إنْ كان ثمر الجوز ما زال معلقاً فيها منذ فصل الخريف الماضي. وفكر مراراً وتكراراً في أن تقترب منه الرحلة. وبينما هو يتنزه في المتنزه، تخيل نفسه في الوقت الجميل الذي يستطيع فيه السفر مع الإوز البري. تجمّد وشعر بالجوع. اعتقد أن عليه القيام بكل ما يستطيع؛ وكي يكافئ نفسه عليه أنْ يعمل ويدرس.

بينما هو يمشي هناك، جاءه قائد الإوز الكبير الرمادي اللون وسأله إنْ كان قد وجد أيّ شيء يؤكل. «كلا، ليس لديّ ما يؤكل». أجابه ومن ثم حاول أنْ يساعده. ولم يجد حتى الجوز.

لكنه اكتشف عدداً من الأزهار اليابسة معلقة على نباتات برية. أكل الصبي ذلك النبات ذا النكهة الطيبة. لكنه اندهش لما ستقوله الأم، إنْ عرفت أنه كان يعيش على السمك غير المطبوخ أو المشوي وعلى أزهار الشتاء الجافة والقديمة.

حين أكل الإوز البري ذلك كله، استطاعوا حمله إلى البحيرة مرة ثانية، حيث متّعوا أنفسهم باللعب إلى وقت العشاء تقريباً.

تحدى الإوز البري ذكر الإوز الأبيض أنْ يشارك في أنواع الرياضة جميعها. وقد بدؤوا بسباق السباحة، وسباق الركض، وسباق الطيران معه. وقام الإوز الأليف بأفضل مستوى يليق به، لكن ذكر الإوز البري كان يتغلب عليه في كل مرة. في كل هذه الفترة، كان الصبي يجلس على ظهر ذكر الإوز ويشجعه، وكان يقوم بالسخرية كما البقية. وكانوا يضحكون ويصرخون ويثرثرون، ومن الملاحظ أن الناس في المقاطعة لا يسمعونهم.

حين تعب الإوز البري من اللعب، قاموا بالطيران فوق الجليد ليأخذوا سويعات من الراحة، قضوها في المساء كما هي في النهار. هذه السويعات للتغذية ثم السباحة واللعب بالماء على حافة الجليد، حتى غروب الشمس، حين جهزوا أنفسهم للنوم.

فكر الصبي بينما هو يزحف تحت جناح الإوز «هذه هي حياتي، ولكن في الغد، أفترض أنني سأرسل إلى الوطن».

قبل أن يغلبه النوم، استلقى مفكراً فيما إذا كان من الممكن الذهاب بعيداً مع الإوز البري ليهرب من كل التوبيخات لأنه كان كسولاً. وسيكون حرّاً في كل يوم، وقلقه الوحيد هو الحصول على شيء ما يأكله. لكنه الآن بحاجة إلى شيء قليل في هذه الأيام. وستكون هي الطريقة الوحيدة للحصول على ذلك.

هكذا تخيّل المشهد برمته؛ ماذا سيرى، خاصة وأنّ كل المغامرات ستواجهه. نعم، إنه شيء ما يختلف عن الضعف الذي يمزق الوطن. فكر: «إن استطعت الذهاب مع الإوز البري في رحلتهم، فإنني لن أكون حزيناً لأنني سأتحول إلى وضعي الإنساني السابق».

لم يخشَ شيئاً – باستثناء إرساله إلى البيت؛ وكذلك الإوز لم يقل شيئاً حتى يوم الأربعاء – باستثناء إرساله إلى البيت. ومضى ذلك اليوم كما يمضي يوم الثلاثاء هو الآخر، وراح الصبي يقتنع بالأمر أكثر فأكثر وهو في الهواء الطلق. وكان يفكر أنه يقضي أياماً جميلة في متنزه دير أوفيد، الذي كان واسعاً كما الغابة بالنسبة إليه. ولم يكن متلهفاً للعودة إلى الكابينة الخانقة

والبقعة الصغيرة من الأرض الصغيرة هناك في البيت.

في يوم الأربعاء اقتنع تماماً أن الإوز البري يفكر بالاحتفاظ به؛ لكن في يوم الخميس فقد الأمل مرة أخرى.

وبدأ يوم الخميس كما بقية الأيام، وراح الإوز يتغذى على المروج الواسعة، وأخذ الصبي يصطاد طعامه في المتنزه. بعد مدة جاءت الإوزة أكّا وسألته إنْ كان قد وجد أيّ شيء يأكله. كلا. لم يأكل أي شيء. منْ ثم نظرت إلى الأعلى نحو أعشاب الكمّون الجاف، التي حافظت على كلّ بذورها سليمة.

حين انتهى الصبي منْ طعامه، قالت أكّا إنها اعتقدت أنه كان يتجوّل معهم في المتنزّه بتهوّر. اندهشت كثيراً أنه كان يعرف أعداء كثيرين يحتاط منهم – وأنه، هو الذي كان قزماً. كلا، إنه لا يعرف أيّ شيء عن ذلك كلّه، وشرعت أكّا تحصيهم.

حين كان يتنزّه في المتنزه، قالت إنه ينبغي عليه أن يحترز من الثعلب ومن حيوان الدلق حين يأتيان إلى شواطئ البحيرة، كما عليه أن يحذر ثعالب الماء، حين يستلقي على جدار الصخرة، ويجب ألا ينسى حيوان أبي عرس الذي يتدحرج بين الصخور الصغيرة؛ وإنْ رغب في الاستلقاء لكي ينام على أوراق الشجر، عليه أن يكتشف أولاً الأفاعي التي لا تكون في حالة سبات في موسم الشتاء بين أكوام الشجر المتساقط. حالما يخرج من الحقول المفتوحة عليه أن يكون حذراً من الصقور والنسور، لأنها تحلق في الهواء. أما إذا نام بين أعشاب العلّيق فيمكن أن يكتشفه صقر العصافير؛ وطيور العقعق والغربان التي نجدها في كل مكان، وبناء على هذا ينبغي ألا يثق بأيّ منها مطلقاً؛ وحين يخيم الغسق، يجب أن تكون أذناه صاغيتين لأصوات طيور البوم الكبيرة، التي تطير بعيداً من دون أن نشعر بخفقات صوت أجنحتها وربما تمر من أمامه من دون أن يراها.

حين سمع الصبي أنّ هناك كثيراً من الذين يهتمون بحياته، بعد سماع تحذيرات أكّا؛ أدرك أنها ستكون قريبة منه جداً كي يهرب. كان خائفاً بشكل خاص من الموت؛ لذلك سأل أكّا ماذا يفعل ليحمي نفسه من الحيوانات آكلة لحوم الحيوانات الأخرى.

أجابت أكّا فوراً أنّ على الصبي أنْ يحاول التعايش مع جميع الحيوانات الصغيرة في الغابة والحقول ومع فصيلة السناجب وعائلة ذكور الأرانب وطيور الدغناش المغردة، ونقارات الخشب، والقبّرات. إذا أقام صداقات معها، فإنها ستحذره حتماً من أيّ خطر، وستجد أمكنة

آمنة ومحميّة.

لكن، في آخر النهار، حين حاول الصبي الإفادة من هذه النصيحة، التفت نحو السنجاب ليطلب منه الحماية، وكان من الواضح أن السنجاب لا يعير لكلامه اهتماماً. وقال: «إنك بالتأكيد لا تتوقع مني أيّ شيء من هذا القبيل، أو من بقية الحيوانات».

لكن، في آخر النهار، حين حاول الصبي عن طريق الاستشارة أن يتحول إلى سنجاب ويطلب حماية له، كان من الواضح أنه لم يهتم للعناية به. «إنك بالتأكيد لا تتوقع أيّ شيء مني، أو من بقية الحيوانات الصغيرة». قال سيريل السنجاب: «لا تظن أننا لا نعرف أنك نيلز الصبي الإوز، الذي مزق عش السنونو السنة الماضية، ودمر بيض الزرزور، ورمى صغير الغراب في خندق الطين، واصطاد طائر السمان في الفخ، ووضع السنجاب في الأقفاص؟ ساعد نفسك تماماً بقدر ما تستطيع؛ وربما نكون مشكورين لأننا لم نكن نشكل عصابة ضدك؛ ونعيدك إلى جنسك الأصلي! «.

كان هذا الجواب للصبي الذي لنْ يفلت من طائلة العقاب، في الأيام التي كان فيها يسمّى نيلز، الصبي الإوز. لكنه الآن خوفاً من الإوز البرّي على الأقل، اكتشف كم كان شريراً. لكنه كان قلقاً من ألا يسْمح له بالبقاء مع الإوز البرّي الذي لم يكن جريئاً في أن يكون على الأقل مؤذياً إلى حد ما منذ أن ارتبط بصحبته. حقيقة، إنه لا يملك القوة ليقوم بالكثير من الأذى الآن، ولكن القليل منه كما كان؛ بحيث يستطيع أنْ يدمر كثيراً من أعشاش الطيور ويسحق كثيراً أيضاً من بيضها. والآن فهو صبي طيب. لم يقم حتى بنزع ريشة من جناح إوزة، أو يوجه كلام خشناً لأيّ كائن كان، وفي كل صباح حين تستدعيه أكّا، فهو دائماً ما يرفع قبعته وينحني احتراماً لها.

ويبقى طيلة يوم الخميس وهو يفكر بجملة الشرور التي اقترفها. ومن المؤكد أن هناك إوزاً بريّاً واحداً على الأقل لا يعير أدنى اهتمام له في أن يأخذه بعيداً إلى لابلاند. وفي ذلك المساء، سمع أن سيريل زوجة السنجاب قد سرقت وأن أولادها يعانون الجوع المميت، وقد سمعنا كثيراً في مساعدته إياها. وقد سمعنا كيف أنه نجح حقّاً.

حين جاء الصبي إلى المتنزّه في يوم الجمعة، سمع طير الدغناش المغرّد يغني في كل مكان بين العشب، وعرف أنّ السارقين القساة قد هربوا صغار سيريل زوجة السنجاب، وكيف أنّ نيلز، صبي الإوز، قد خاطر بحياته بين الكائنات الإنسانية في أن يُرجع السناجب الصغار

ويسلمها إيّاها.

«ومنْ يشرّفه جداً في متنزه دير أوفيد الآن، مثل «ثمبيتوت!» غرّد ذلك طائر الدغناش؛ ومن الذي يخاف حين تحول نيلز إلى إوز صبي. وراحت زوجة السنجاب سيريل تعطيه البندق؛ أما ذكور الأرانب المساكين فقد ذهبوا للعب معه؛ وستحمله الحيوانات البرية الصغيرة على ظهورها، وتطير به حين يقترب منه الذئب الماكر. أما حيوانات القرقف فقد حذرنه من الصقر. والعصفور حسونة، والقبرة، سيغنون له أغنية الشجاع».

كان الصبي متأكداً تماماً أنّ أكّا والإوز البري قد سمعا كل هذا. وحتى الآن، قضى يوم الجمعة معهم بكامله من دون أن ينبس بكلمة واحدة.

وحتى يوم السبت تناول الإوز البري غذاءه حول حقول أوفيد، بعيداً عن إزعاجات الذئب الماكر.

لكن في صباح يوم السبت، حين دخلوا المرج، كان الثعلب الماكر مستلقياً هناك بانتظارهم، طاردهم من حقل إلى حقل، لذا لم يسمح لهم بتناول طعامهم بسلام. وحين أدركت أكّا ذلك أنه لا يميل إلى أن يتركهم بسلام، اتخذت قراراً بسرعة، ارتفعت في الهواء، وحلّقت هي وسربها فوق سهل فيرس وتلال ليندیرود Fars وLindderod. ولم يتوقفوا حتى وصلوا ضاحية «فيتسخوفله».

لكن ذكر الإوز في «فيتسخوفله» قد سرق، وما قد حدث حالياً فله صلة بالثعلب الماكر. إذا لم يكن الصبي قد استعمل كل حيله لمساعدته، فإنهم لن يجدوه مرة ثانية.

في مساء السبت، حين عاد الصبي منْ بحيرة فومب مع ذكر الإوز، فكر أنه أنجز عملاً جيداً هذا اليوم، وقد اندهش كثيراً لما ستقول له أكّا الإوز البري. ولم يكن الإوز البري يدخر وسعاً في ثنائهم عليه، لكنهم لم ينطقوا بالكلمة التي كان يتلهف لسماعها.

وجاء يوم الأحد، وقد انقضى الأسبوع بكامله منذ أن انسحر الصبي، رغم أنه ما زال صغيراً.

لكنه لم يظهر أنه يريد أن يضيف لنفسه قلقاً آخر بسبب ذلك. في مساء الأحد جلس حاشراً نفسه تحت ظلال شجرة الصفصاف قرب البحيرة، وراح يزمّر بمزمار قصب. جلس الذين كانوا حوله جميعاً، العصفور حسّونة والطائر دغناش المغرّد وطائر الزرزور، حتى العشب كان متجاوباً معهم تماماً – الذي غنى أغاني حاول فيها أن يعلّم نفسه الغناء. لكن الصبي لم يكن

في المنزل في هذه الفعالية الفنية حينذاك. وقد عزف بصوت نشاز، ضحك الصبي من أعماق قلبه لإثارتهم إلى حد أسقط فيه مزماره. حاول مرة ثانية، وفي هذه المرة أيضاً كان الأمر يتجه نحو الأسوأ. ومن ثم فإن جميع الطيور الصغيرة ناحت في هذا اليوم، «فقد عزفت بطريقة أسوأ من المعتاد يا ثمبيتوت؟ فإنك لم تستخدم نوتة حقيقية! أين براعتك يا ثمبيتوت؟».

قال الصبي: إنها في مكان آخر، وكان ذلك حقيقة. جلس هناك وتأمل ما هي المدة التي سيسمح له بها في البقاء مع الإوز البري؛ أو ربما سيعيدونه إلى وطنه ولربما هذا اليوم.

أخيراً، رمى الصبي مزماره وقفز من بين العشب. رأى أكّا والإوز الآخرين جميعاً قادمين إليه على شكل طابور طويل. كانوا يمشون بطريقة غير اعتيادية كما لو أنهم يتبخترون، وفهم الصبي حالاً أن عليه أن يعرف الآن ماذا يفعلون بشأنه.

حين توقفوا أخيراً. قالت أكّا: «ربما لديك سبب مقنع جدّاً قد يلقى إعجابي، يا ثمبيتوت، من الذي لم يقل شكراً لك لإنقاذك إيّاي من الثعلب الماكر». لونا إحدى الإوزات اللائي يشكرن على الأفعال وليس على الأقوال. وقد أرسلت كلمة إلى القزم الذي سحرك. بداية لا يريد أن يسمع أيّ شيء حول معالجتك؛ ولكنني قد أرسلت إليه رسالة بعد رسالة، أخبره فيها عن سلوكك الجيد. إنه يحييك، ويقول إنه حالما تعود إلى البيت ستعود إنساناً من جديد.

فكر في الأمر! كان الصبي سعيداً حين شرع الإوز البري يتكلم، في ذلك المأزق الذي وقع فيه، حين انتهت أكّا من كلامها لم ينبس بكلمة، لكنه أدار وجهه وراح يبكي.

قالت أكّا: «ماذا يعني هذا في العالم كله؟ ويبدو أنك توقعت مني أكثر مما عرضته عليك أنا».

لكن الصبي كان يفكر بالأيام السعيدة والمزاح؛ المغامرة والحرية والسفر، أبعد مما هو على الأرض، وقد يفقد كل ذلك وربما يزعق ويشعر بالحزن. قال الصبي: «أنا لا أريد أنْ أكون إنساناً، أريد أنْ أذهب معك إلى لابلاند». وقالت أكّا: «سأخبرك بشيء ما: إن القزم شديد الحساسية، وإنني أخشى أنك إذا لم تقبل عرضه الآن، سيكون من الصعب عليك أن تنتزعه بالملاطفة في وقت آخر».

هناك شيء غريب في ذلك الصبي – طيلة حياته–، إنه لا يهتم بأيّ شخص آخر. إنه لم يهتم حتى بوالده ووالدته؛ ولا بمعلم مدرسته؛ ولا بزملاء مدرسته، ولا بالصبيان الجيران. وقد تمنوا أن يقوم بكل هذا – إن كان عملاً أو مسرحية – وإنه شعر فعلاً بالإرهاق.

وبناء على ذلك، ليس هناك أحد قد يفتقده أو يتوق إلى رؤيته.

إنما فقط أولئك الذين جاؤوا إلى مكان الاتفاق معهم: أوسا، الإوزة والصغير، ومات – ومجموعة من الأطفال الذين يميلون إلى الإوز في الحقول، مثله. لكنه لم يعر انتباهاً لهم بشكل خاص!. «إنني لا أريد أن أكون إنساناً». زعق الصبي. «أريد الذهاب معك إلى لابلاند. هذا هو السبب الذي جعلني أكون سعيداً خلال هذا الأسبوع كله!». «أنا لا أريد أن أمنعك من أن تأتي معنا بقدر ما ترغب». قالت أكّا. «لكن فكر أولاً إذا كنت لا ترغب في الذهاب إلى البيت مرة ثانية. وربما سيأتي اليوم الذي ستندم فيه».

قال الصبي: «كلا، ليس هناك ما يستدعي الندم. فأنا لم أكن أشعر بالراحة كما أنا هنا معك».

قالت أكّا: «إذاً، حسناً، ليكن هذا طبقاً لرغبتك».

قال الصبي وشعر بسعادة غامرة إلى حد البكاء للفرحة: «تشكراتي!».

كان يصرخ باكياً قبل أن يكون حزيناً.

- الجملون truss: هو أحد أنواع الأنظمة الإنشائية التي تستعمل في تسقيف الفضاءات، والتي عرفها الإنسان وطورها لاستخدامها في مجالات متنوعة. المترجم

الفصل الرابع
قلعة غليمنغي

الفئران السوداء والفئران الرمادية

في مقاطعة «سكونه» الجنوبية، ليس بعيداً عن البحر، هناك قلعة قديمة تسمى غليمنغي، إنّها بناء حجري كبير وأساسي؛ ويمكن رؤيتها عبر سهل طوله عدة أميال. وهي تتكوّن من أربعة طوابق عالية؛ لكنها مضجرة جداً إلى حدّ أنّ بيتاً زراعيّاً عاديّاً بالمقارنة معها، يقع في المقاطعة ذاتها، ويشبه ملعب أطفال هو أكثر تسلية منها.

والبيت الحجري الكبير هذا مكوّن من سقوف وجدران سميكة، ونادراً ما تجد غرفة في داخله باستثناء جدران سميكة. سلالمه ضيقة، ومداخله صغيرة، وغرفه قليلة. أما الجدران فيبدو أنّها احتفظت بقوّتها، إذ يوجد أقلّ عدد من الشبابيك في الطوابق العلوية، ولكنك لن تجد أبداً أيّ شبّاك في الطوابق السفلى. في أزمان الحرب القديمة، يجد الناس أنفسهم سعداء وهم داخل مثل هذا البيت القوي والهائل في أيامنا هذه كي يتمكنوا من التدثر بالفراء اتّقاء شر البرد القارس. لكن حين تأتي أيام السلام، فإنّهم لن يهتموا للعيش في الظلام أو في قاعات الحجر البارد للقلعة القديمة طويلاً. وكثيراً ما يحنّون إليها منذ أنْ هجروا قلعة غليمنغي، وانتقلوا للسكن في أمكنة يخترقها الضوء والهواء.

في ذلك الوقت كان نيلز هولغيرسون يتجول حول القلعة مع الإوز البريّ، لم يكن هناك كائن بشري في قلعة غليمنغي؛ ومع ذلك فإنها لا تخلو من السكان. ففي كل صيف يعيش هناك زوجان من طائر اللقلق في عش كبير جداً في السطح، وفي العلية يعيش زوجان من البوم رماديّي اللون، وفي المجازات السرية يتعلق طائر الخفاش. في سخان المطبخ تعيش قطة عجوز؛ وفي السرداب تعيش مئات الفئران السوداء.

وهذه الفئران لا تحظى بتقدير الحيوانات الأخرى؛ لكن الفئران السوداء في قلعة غليمنغي تحظى بالاستثناء. فهي دائماً ما يذكرونها باحترام، لأنها تظهر بسالة ضد أعدائها في المعركة. كما تظهر تحمّلاً كبيراً تحت سوء الحظوظ المزعجة، التي تحلّ على نوعها. وهي تعود اسميّاً إلى قبائل الفئران التي في زمن مضى كانت تمتاز بحجمها الضخم جداً وقوتها؛ ولكنها انقرضت الآن. وخلال حقبة طويلة من الزمن احتلت الفئران السوداء منطقة «سكونه» والبلد

برمته. وتتواجد في كل سقف وفي كل علية وفي مخازن حفظ اللحوم وحظائر الأبقار والعنابر؛ وفي المخمّرات، والمطاحن، في الكنائس وفي القلاع، وفي جميع منشآت البناء. ولكنها الآن أبعدت من كل هذه الأماكن وقد انقرضت في الغالب. ويمكن الآن أن نراها تجري من مكان قديم إلى آخر ومن نقطة منعزلة إلى اللامكان؛ حيث يوجد عدد هائل منها كما هو الحال في قلعة غليمنغي.

وحين ينفق حيوان، فيكون الإنسان عموماً مسؤولاً عن موته، لكن في هذه الحالة فليس للإنسان يد في هذا. فالناس يتصارعون بالتأكيد مع الجرذان السوداء. لكنهم ليسوا قادرين على إيذاء أيّ حيوان آخر يستحق الذكر. ولكن من غزتهم كانت حيوانات شعبية في نوعها الخاص، يطلق عليها الفئران الرمادية.

وهذه الفئران الرمادية لا تعيش على الأرض منذ زمن سحيق، مثل الفئران السوداء، لكنها منحدرة من مجموعة من الفئران المهاجرة التي هبطت على مدينة مالمو قادمة من ليبيا عن طريق المراكب الشراعية عبر مئات السنين. كانت من دون مأوى، ولا طعام، باستثناء تعاستها. فهي تقترب من الميناء، وتعوم بين القشور تحت الجسور، وتأكل الفتات الذي يرمى في الماء. وهي تعدّ العيش في المدن نوعاً من المغامرة، التي تملكها الفئران السوداء.

لكن تدريجيّاً، ومع ازدياد عدد الفئران الرمادية، راحت جرأتها تتضاعف. وراحت في بادئ الأمر تعيش على المخلفات المرمية. وكانت تصطاد طعامها من تحت المزاريب والأعشاب القذرة. وتجمع أغلب فضلات القمامات التي تتركها الفئران السوداء، وإنه لمن الصعوبة بمكان بالنسبة إليها، أن يقلعوها من دون خشية. بعد سنوات قليلة تحولت إلى قوة أهّلتها إلى أن تزيح الفئران السوداء خارج مدينة مالمو. واغتصبت منها العليات والسقوف والمخازن جميعاً، وأماتتها جوعاً. ذلك لأنها لن تعرف الخوف في المعركة.

حين استولت تلك الفئران على مدينة مالمو، تقدمت إلى الأمام، على شكل مجاميع صغيرة وكبيرة لغزو البلد بأكمله. كان في الغالب من المستحيل عليها أن تدرك لماذا لم تستطع الفئران السوداء حشد نفسها بطريقة عظيمة، وتوحيد حملة الحرب لإبادة الفئران الرمادية. وعكس الفئران السوداء فقد كانت واثقة من قوتها تلك التي لا تفتقدها لأن من المستحيل عليها أن تخسر الحرب. وما زالت في مقاطعتها، وفي الوقت المحدد، استولت الفئران الرمادية على حقولها الواحد تلو الآخر، ومدينة بعد الأخرى. وقد أماتتها جوعاً، وأجبرتها على الخروج، واقتلاعها من جذورها. أما في «سكونه» فإنها لم تستطع أن تحقق لنفسها

مكاناً واحداً باستثناء قلعة غليمنغي.

كانت القلعة القديمة تملك أسواراً آمنة وممرات قليلة استطاعت فئران قليلة أن تمر من خلال تلك الأسوار، إلى حد أن الفئران السوداء استطاعت أن تحتاط لكل ما من شأنه أن تنهي من خلاله الفئران الرمادية تجمعهم هنالك. وليلة بعد ليلة، وسنة بعد سنة، استمر الصراع بين المعتدين والمدافعين، ولكن الفئران السوداء راقبت وحاربت بحذر وحتى الموت. وجزيل الشكر لذلك البيت القديم الذي نغزوه.

ولا بد من الاعتراف بأنّ الفئران السوداء هي المتسلطة، فقد تجنبها كثير من المخلوقات الحية الأخرى، كما هو الحال مع الفئران الرمادية في عصرنا – ولسبب ما محدد؛ رمت نفسها على المساكين، والسجناء المكبلين بالقيود، وعذبتهم؛ كما اغتصبت حتى أمواتها؛ وسرقت نبات اللفت من سراديب الفقراء؛ وقضمت أقدام إوزاتها النائمة؛ وسرقت البيض والكتاكيت من تحت الدجاج؛ واقترفت آلافاً من عمليات السلب. ولكن منذ أن وصلت إلى مرحلة الكارثة، بدا كل ذلك كما لو أنه كان نسيّاً منسيّاً، ولا أحد يستطيع أن يبدي المساعدة ما لم تحدث معجزة في نهاية السباق.

أما الفئران الرمادية التي عاشت في فناء غليمنغي، وفي المناطق المجاورة، فقد حافظت على الاستمرار في الحرب، وكانت دائماً في حالة مراقبة لكل فرصة مناسبة للسيطرة على القلعة. وعلى المرء أن يفكر أنها ستسمح لمجموعة صغيرة من الفئران السوداء باحتلال القلعة بسلام، منذ أن كانت تتطلب أن تكسب بقية البلد كله؛ لكن من الممكن أن تتأكد أن هذه الفكرة لم تتحقق لها. وأرادت أن تقول إنها مسألة شرف لغزو الفئران السوداء من وقت إلى آخر، ولكن تلك التي كانت قد تعرفت على الفئران الرمادية ينبغي لها أن تعرف أنها استخدمت قصر غليمنغي كمخزن للحبوب، لهذا لم تستقر الفئران الرمادية في ملكيته.

اللقلق

الاثنين، الثامن والعشرون، آذار/مارس.

في أحد الصباحات المبكّرة، كان الإوز البرّي واقفاً ونائماً في الوقت ذاته، فوق الجليد لبحيرة فومب، وقد استيقظوا على صوت نداءات طويلة قادمة عن طريق الهواء: «تري روب، تري روب!» وأرسل طائر الكراكي تحياته إلى أكّا تريانْت. إنّ الإوز البرّي، وسربه سيأتون غداً وسيكون يوماً لرقص الكراكي في منطقة كولابيرغ.

رفعت أكّا رأسها وأجابت فوراً: «تحياتي، وتشكراتي. تحياتي، وتشكراتي!».

وبذلك، حلّقت طيور الكراكي عالياً، وبقي الإوز البرّي يسمعهم لفترة طويلة، بينما هم مسافرون، ويصرخون عند مرورهم بكل حقل، وبكل تلة مشجّرة «تريانْتْ»، مرسلين بذلك تحياتهم. وغداً سيكون يوم رقص الكراكي العظيم في كولابيرغ.

كان الإوز البرّي سعيداً جداً بهذه الدعوة. وقالوا لذكر الإوز الأبيض: «إنّك لسعيد، لحضورك حفل رقص طائر الكراكي في كولابيرغ، وإنّه لمن الرائع جداً أنْ تشاهد هذا الحفل. وإنّه لشيء لم تحلم به أبداً!».

قالت أكّا: «والآن، ينبغي أنْ نفكر ماذا سنعمل مع ثمبيتوت غداً، كي لا يتعرض إلى أيّ أذى ونحن نحلّق عالياً باتجاه كولابيرغ». قال ذكر الإوز «إنّ ثمبيتوت لن يترك وحيداً، فلن تسمح له طيور الكراكي بمشاهدة الحفل، وعلى هذا، إنني سأبقى هنا معه». قال ذكر الإوز «إذا لم تسمح له الكراكي بحضور رقصهم، في هذه الحالة سأمكث معه». ورد عليه الإوز البري: «إنه شيء لم تحلم به أبداً».

قالت أكّا: «لا يسمح لأيّ إنسان حضور مؤتمر الحيوانات في كولابيرغ. وأنا لنْ أتجرّأ على اصطحاب ثمبيتوت إلى ذلك المؤتمر. لكن سنناقش ذلك بتفاصيل مسهبة في النهار. والآن، ينبغي أولاً، وعلى الأغلب، أنْ نفكر بالحصول على الطعام لنأكله».

وبذلك أعطت أكّا إشارة لإرجاء الاجتماع. وفي هذا اليوم بحثت أيضاً عن تغذيتها في مكان جيد وبعيد عمّا يدور في تفكير الثعلب الماكر، ولكنها لم تحطّ إلى أن تأتي إلى مروج المستنقعات القريبة قليلاً من جنوب قصر غليمنغي.

جلس الصبي ذلك النهار كله على ضفاف بركة سباحة صغيرة تقع على الشاطئ، وراح يزمّر بمزمار قصبي. كان عكر المزاج لأنّه لم يستطعْ أنْ يرى حفل رقص طيور الكراكي، وأنّه لم يستطع أيضاً أنْ ينطق بكلمة واحدة قطّ، حتى مع ذكر الإوز أو مع أي شخص آخر.

ومن الصعوبة القصوى، أنْ تصرّ أكّا على شكّها فيه. حين تخلّى الصبي عن كونه إنساناً، وعليه فحسب، أنْ يتجول مع قليل من إوزات بريات بائسات، وبالتأكيد ينبغي أنْ يفهم أنه ليس لديه رغبة في أن يخدع نفسه. وبعد ذلك، أيضاً، ينبغي لهم أن يدركوا أنه حين تنازل كثيراً للحاق بهم، فمن واجبهم أن يدعوه يرى كل العجائب.

فكر الصبي: «يجب أنْ أتحدث معهم بنفسي مباشرة»، ولكن مضت ساعة وأعقبتها أخرى وما زال يدور حول نفسه. ويبدو أنه أمر رائع، ولكن فعلاً، يُطلب منه نوع من الاحترام لقائدة الإوز العجوز. وشعر أنه ليس من السهل عليه أن يتبارى مع هذه الإوزة العجوز.

وعلى جانب واحد من مروج المستنقعات، حيث يتغذى الإوز، هناك حافة حجر عريض. وقبيل حلول المساء، حين رفع الصبي رأسه فجأة ليتحدث مع أكّا، وقع نظره فجأة على تلك الحافة العريضة ليأخذ قسطاً من الراحة. أطلق صرخة مدهشة، وفجأة تطلع إليه الإوز جميعاً، وحدّقوا بالاتجاه نفسه. في البداية، ظنّ الصبي والإوز، أن كل الحجر العريض الرمادي مستدير الشكل على حافة الصخر يتطلب منهم سيقاناً طويلة، وقد بدؤوا في الجري، وتحركوا بسرعة شديدة، وركضوا إلى الأمام جنباً إلى جنب، وسرب فوق سرب، واستمروا في الطيران، لبعض الوقت، حتى غطوا حافة الصخر كلها.

كان الصبي يخاف الفئران، منذ أنْ كان كبيراً، وإنساناً قويّاً. ولكن ما هي مشاعره الآن بالضبط. حين كان بالغ الصّغر، فإنّه من السهولة بمكان أنْ يتغلب عليه اثنان أو ثلاثة من الفئران! وسقطت رعشة بعد أخرى نحو أسفل عموده الفقري حتى استقر واقفاً، وراح يحدّق بهم.

لكن من الغريب جداً، أنْ يبدي الإوز البرّي مشاعر النفور ذاتها إزاء الفئران التي اشمئز منها الصبي. ولم يتحدثوا معها. لكن حين غادروا، خضوا أنفسهم كما لو أنّ ريشهم قد زيّن باللمعان.

قال إكسي من «فازيوري»: «هناك عدد كبير من الفئران الرمادية في الخارج! وهذا يعني فألاً غير حسن».

وقد قصد الصبي أنْ يستفيد من هذه الفرصة ليقول لأكّا إنه قد فكر في أنْ تدعه يذهب معهم إلى كولابيرغ، ولكن، هناك منْ منعه منها. وفجأة هبط طير كبير منْ بين طيور الإوز.

ويستطيع المرء أنْ يفكر، حين ينظر إلى ذلك الطير، بأنه يتمنى لو أنه قد استعار جسماً، ورقبة، ورأساً من إوزة صغيرة بيضاء اللون وساقين طويلتين. لكنْ، فضلاً عن ذلك، لو أنه استعار لنفسه جناحين طويلين، وساقين حمراوين، ومنقاراً ضخماً يناسب رأسه الصغير، وهنا، أدلاه نحو الأسفل حتى أضفى عليه نظرة حزينة وقلقة.

أمّا أكّا فقد جنحت للهبوط باستقامة بعد أنْ طوت جناحيها وفرشتهما مرات عديدة بينما هي

تقترب من اللقلق. لم تكنْ مندهشة بشكل خاص لرؤيته في «سكونه»، في وقت مبكر منْ هذا الربيع، لأنّها تعرف ذلك النوع من اللقالق الذكور التي تأتي في الفصل المناسب لتلقي نظرة على العش، وكي تتأكد هذه اللقالق أنّ معاناتها لا تدمرها خلال فصل الشتاء، قبل أنْ تذهب إناث اللقالق بطيرانها فوق محيط البلطيق. كانت مندهشة تماماً لما يمكن أن يعني بحثه عنها، منذ أنْ فضّل اللقالق الارتباط بأفراد عوائلهم.

قالت أكّا: «من الصعوبة بمكان أنْ أصدق أيّ شيء ناقص في منزلك أيّها السيد إيرمينرج. والآن، كان من الواضح، أنّ القول القديم هو حقيقة».

إنه من النادر أنْ يفتح اللقلق منقاره من دون أنْ يعاني منْ شيء ما. لكن ذلك الذي جعل الأشياء تبدو أكثر كآبة كلها، وأنه من الصعوبة بالنسبة إليه أن يتكلم، راح يطقطق بمنقاره؛ وبعد ذلك تكلم بصوت أجش وضعيف. راح يشكو من كلّ شيء؛ من العش، الذي يقع في أعلى قمة من الشجرة في قلعة غليمنغي، التي كانت قد دمرتها عواصف الشتاء؛ وليس هناك من طعام يغذيه في «سكونه». وكان سكان هذه المدينة مناسبين لكل احتياجاته. فقد حفروا مستنقعاته ووضعوا نفايات مستنقعاته، وينوي الانتقال بعيداً عن هذا البلد، ولن يعود إليه مرة ثانية.

وبينما راح اللقلق يتذمّر، لم يكن بمقدور أكّا الإوزة البرّية التفكير، في نفسها، ولا في وطنها ولا في حمايته، «إنْ كنت أمتلك أشياء مريحة كما تمتلكها أنت، أيّها السيد إيرمينرج، فإنني سأترفّع عن الشكوى. لقد بقيت متحرراً، وطيراً بريّاً؛ وتقف حتى الآن مع الناس الذين لم يطلقوا النار عليك، أو يسرقوا البيض من عشك». ولكن مع كل هذا بقيت أكّا محافظة على نفسها. وما يتعلق باللقلق، فقد لاحظت فقط أنها لن تستطيع تصديق نفسها بأنه يرغب في الانتقال من منزل تسكن فيه لقالق منذ تشييده وحتى الآن.

وبعد ذلك، سأل اللقلق فجأة الإوز إنْ كانوا قد رأوا الفئران الرمادية التي كانت تمر باتجاه قلعة غليمنغي. وحين أجابت أكّا أنها قد رأت مخلوقات فظيعة، بدأ يخبرها كل شيء عن الفئران السوداء الشجاعة التي بقيت تدافع عن القصر لسنوات طويلة. تأوّه اللقلق.

وسأل السيد إيرمينرج: «ولكن لماذا هذه الليلة بالضبط؟».

ردّ اللقلق: «حسناً، لأنّ جميع الفئران السوداء قد وصلت تقريباً كولابيرغ الليلة الماضية، لأنها أدركت أنّ جميع الحيوانات هناك أخذت تسرع في الرحيل أيضاً. ولكن الفئران

الرمادية بقيت في الوطن؛ والآن هي تحشد للوقاية من العاصفة على القصر. وعندما تدحرهم مخلوقات ضعيفة جداً والوصول إلى كولابيرغ، فمن المحتمل أنهم سينجزون هدفهم. لكنني أسكن هناك منسجماً مع الفئران السوداء منذ سنين عديدة، لأن فكرة العيش في مكان يسكنه أعداؤهم غير مقبول بالنسبة إلي.

فهمت أكّا الآن أنّ اللقلق أصبح ساخطاً على مزاج الفئران السوداء، وهو الفعل الذي بحثت عنه كمبرر للتذمر منها. لكن بعد أسلوب اللقالق هذا، فإنه لم يفعل شيئاً بالتأكيد لتجنب الكارثة. تساءلت أكّا: «هل بعثتم أيّة رسالة للفئران السوداء، يا سيد إيرمينرج؟» أجاب اللقلق: «كلا، سيكون من العبث إرسال رسالة، قبل أن يعودوا، ويستولوا على القلعة». «ألا ينبغي أن تكون متأكداً، يا سيد إيرمينرج؟». أجاب اللقلق: «لا فائدة من ذلك، بما أنهم لم يرجعوا، فإنّ القلعة ستسقط». قالت أكّا: «إنني أعرف إوزاً برّياً عجوزاً، أعرفه تماماً، هو الذي يمنع وبسرور ذلك النوع من الاعتداء».

حين قالت أكّا هذا الكلام، هزّ اللقلق رأسه وحدّق فيها. لم يثر هذا الدهشة لدى أكّا، لأنّ أكّا تعرف أنّ لا المخالب ولا المنقار ستكون مناسبة للمعركة، وفي الصفقة؛ لأنها من الطيور النهارية، وسرعان ما تنام عند حلول الظلام، بينما الفئران تقوم بحربها أثناء الليل.

لكن أكّا فكرت بشكل واضح في مساعدة الفئران السوداء. وقد استدعت إكسي من «فازيوري»، وأمرته أنْ يأخذ الإوز البري إلى منطقة بحيرة فومب؛ وحين اعتذر الإوز البرّي قالت بصوت آمر: «أعتقد أنه من الأفضل لنا جميعاً أنْ تطيعوني. ويجب أنْ أطير إلى البيت الحجري الآن، وإن اتبعتموني، فمن المؤكد أنّ الناس في ذلك المكان سيشاهدوننا. والشخص الوحيد الذي يجب أن أصطحبه معي في هذه الرحلة، هو ثمبيتوت. فهو يستطيع أنْ يقدّم لي خدمة كبيرة، ذلك لأنه يملك بعد نظر، وقادر على السهر ليلاً».

كان الصبي متعكّر المزاج، وعلى غير عادته في ذلك اليوم. حين سمع ما قالته أكّا نهض بأعلى قامته الصغيرة وتقدم إلى الأمام واضعاً يديه خلف ظهره، ورافعاً أنفه في الهواء؛ ويميل للقول إنّه قرر قطعاً ألا يشترك في الحرب مع الفئران الرمادية. وربما تبحث أكّا عن مساعدة في مكان آخر.

لكنْ سرعان ما ظهر للصبي، أن اللقلق بدأ يتحرك، وقد وقف منحنياً إلى الأمام، كما هي عادته، منحني الرأس واضعاً منقاره على رقبته. لكنّ الآن تسمع قرقرة نحو الأسفل في قصبته

الهوائية، كما لو أنه يريد أنْ يضحك، سريعاً كالبرق، وقد أحنى منقاره إلى الأسفل، ماسكاً الصبي، قاذفاً إياه في الهواء على بعد أمتار. وهذا العمل البطولي أنجزه سبع مرات، بينما كان الصبي يصرخ كان الإوز البري يصيح: «ماذا تحاول أنْ تفعل يا سيد إيرمينرج؟ هذا ليس ضفدعاً. إنه إنسان».

أخيراً، وضع اللقلق الصبي على الأرض، ولم يصب بأيّ أذى يذكر. قال ثمبيتوت لأكّا: «والآن أنا عائد إلى قصر غليمنغي، أيّتها الأم أكّا. فكل الذين يعيشون هناك كانوا قلقين جداً حين غادرتهم، وربما ستتأكدين أنهم سيكونون سعداء جداً حين أخبرهم أنّ أكّا الإوز البرّي، وثمبيتوت الإنسان القزم في طريقهم لإنقاذهم». وبذلك، لوى اللقلق رقبته، ونشر جناحيه، واندفع إلى الأمام مثل سهم ينطلق في الهواء حين يغادر قوسه. وفهمت أكّا أنّه بذلك يقوم بالسخرية منها، ولكنها لن تدع ذلك يزعجها. وانتظرت إلى أنْ وجد الصبي حذاءه الخشبي، الذي تخلص اللقلق منه، ثم وضعته على ظهرها واتبعت اللقلق. وفي حساباته، لم يعترض الصبي عليها، ولم ينبس بكلمة عن عدم رغبته في الذهاب بعيداً. واشتعل غضباً مع اللقلق الذي في الواقع قد جلس وهو يتأفف. إنّ ذلك الشيء ذا الساقين الحمراوين الطويلتين، أعتقد أنه لم يكن لديه عقل تماماً لأنه مجرد كونه صغيراً، ولكنْ سيريه أي نوع من البشر ذلك نيلز هولغيرسون القادم من ويست فيمنهوغ.

بعد دقائق وقفت أكّا على عش اللقالق في قلعة غليمنغي. كان عشّاً جميلاً، وكبيراً ومستدير الشكل منذ تأسيسه، وفوقه مجموعة حواشٍ من الأعشاب، وبعض الغصيْنات. وكان العش قديماً جداً إلى حد أنّ مجموعة من الشجيرات والنباتات تجذّرت حوله؛ حين تجلس اللقلق الأم على بيضها في وسط الحفرة المستديرة للعش، لا تبدو أنها تملك وسامة للتمتع بأفق جميل لمقاطعة «سكونه»، ولكنها تملك أيضاً مشهداً لأزهار شوكية برية وكذلك حقلاً من نبات الكراث.

وشاهدت أكّا والصبي فجأة شيئاً كان يسير أمامهما، كان يرتفع نحو الأعلى والأسفل بانتظام. على حافة العش تجلس بومتان رماديتان وقطة عجوز رمادية مبقعة، ومجموعة من الفئران بلغت من العمر عتيّاً، أسنانها بارزة وعيونها مائية. وهي لم تكن تماماً من نوع الحيوانات التي عادة ما تجد معاً حياة آمنة.

لم يلتفت أحد منها للنظر إلى أكّا أو ينحني ليحييها. لم تفكر بأيّ شيء باستثناء أن يجلس ويحدق باتجاه بعض الخطوط الرمادية، التي تتأرجح في المشهد هنا وهناك، في المروج

الشتائية الجرداء.

كانت الفئران السوداء جميعها صامتة. كان من الواضح أيضاً، أنها في يأس عميق. من المحتمل أنها تعرف أنه ليس بإمكانها أنْ تدافع لا عن حياتها ولا عن القلعة. تجلس البومتان وتتدحرج عيونهما الكبيرة، وتتشابك حواجبهما الكبيرة المستديرة، كما لو أنهما تبحثان في فراغ، مثل أصوات شبحية لقسوة مرعبة للفئران الرمادية، وكيف تتحرك هاتان الفأرتان بعيدتين عن عشهما، منذ أنْ سمعوها تقول لهما إنهما لم يوفرا لا البيض ولا فراخ الطيور. كانت القطة المرقّطة متأكدة أنّ الفئران السوداء ستأكلها حتى الموت، منذ أنْ دخلت القلعة بأعدادها الهائلة، وبقيت تحتقر الفئران السوداء طيلة هذه الفترة. «كيف تسنى لك أنْ تكون غبيّاً وتدع أفضل مقاتليك يذهبون بعيداً؟ وكيف تثق بالفئران الرمادية؟ وهذا عمل لا يمكن مغفرته مطلقاً!».

لم تنبس الفئران السوداء الاثنتا عشرة بأيّة كلمة. لكنّ اللقلق ورغم تعاسته، لم يمتنع عن إغاظة القط في التعليق إذ قال: «لا تقلق كثيراً يا تومي قط ّالمنزل، ألا تستطيع أنْ ترى الأم أكّا وثمبيتوت قد جاءا لإنقاذ القلعة؟ ويجب أنْ تتأكد أنهما سينجحان. الآن، يجب أن أذهب إلى النوم، وأبذل قصارى جهدي لأن أكون هادئاً. وغداً، حين أستيقظ من النوم، لا أريد أنْ أجد فرداً واحداً من الفئران الرمادية في قصر غليمنغي».

غمز الصبي أكّا ورسم علامة – بينما كان اللقلق واقفاً على طرف حافة العش، وقد سحب إحدى ساقيه نحو الأعلى كي ينام –ذلك لأنه أراد أنْ يدفعه نحو الأرض؛ لكن أكّا كبحته. لم تبد على الأقل أنها غاضبة. وبدلاً من ذلك قالت بنغمة صوت واثق: «سيكون شأن سيئ إن كان المرء بلغ من العمر كعمري لا يستطيع أن يتدبر أمره ويتجاوز أسوأ الصعوبات أكثر مما نحن فيه. فإنْ كان السيد والسيدة البوم اللذان بقيا ساهرين الليل بطوله، سيطيران حاملين مجموعة من رسائلي من أجلي، فأعتقد أنّ الأمور ستسير بصورة لا بأس بها».

وترغب البومتان في نقل رسائل أكّا. دعت أكّا السيد البوم أولاً للذهاب في البحث عن الفئران السوداء التي انصرفت، وأرسلت السيدة البومة إلى مدينة فلاميا حيث كاتدرائية مدينة لوند مع تفويض سري جداً جعل أكّا تتجرأ على كشف سر تأتمنه من خلال همسة فحسب.

غرفة الفئران

انسحب القط إلى الأمام بعد منتصف الليل، حين كان الفأر الرمادي، بعد بحث مجهد، نجح

في إيجاد فتحة هواء تؤدي إلى السرداب. كانت هذه الفتحة إلى حد ما مرتفعة عن الجدار، ولكن الفئران شكلت جسراً لم يكن طويلاً قبل أن تتجرأ الأغلبية منها على الجلوس في فتحة الهواء استعداداً لشق طريق يؤدي إلى قصر غليمنغي خارج الجدران، حيث سقط كثير من أسلافها.

جلس الفأر الرمادي للحظة في الجحر، منتظراً هجوماً من الداخل. كان قادة المدافعين ما زالوا بعيدين إلى حد ما، ولكنهم اتخذوا فرصة أنّ الفئران السوداء التي ما زالت في القصر لا يمكن أنْ تطوق بدون صراع. وبقلوب خافقة، أصغوا بصمت مطبق. ولكن كل شيء بقي كما هو. ومن ثم فإنّ قائد الفئران الرمادية تجرأ بشجاعة وقفز نحو الأسفل إلى سرداب الفحم الأسود.

اتبعت الفئران الرمادية القائد واحداً بعد الآخر. وحافظت على الهدوء تماماً، وتوقّعت نصب الكمائن لهم من قبل الفئران السوداء. لم تنطلق حتى ازدحمت في السرداب إلى حد أنّ مساحته لم تسعها، وخاطرت كثيراً.

رغم أنّ الفئران لم تكن هناك في داخل البناية، فلم تجد أيّة صعوبة في إيجاد طريق لها. وفعلاً وجدت الممرات في الجدران التي كانت الفئران السوداء تستخدمها للصعود إلى الطابق الأعلى. وقبل أن تتهيأ لصعود تلك السلالم الضيقة والمنحدرات، أصغت بانتباه مرة ثانية، وبانتباه شديد، وشعرت بخوف أكثر أنْ تعزل الفئران السوداء نفسها بهذه الطريقة أكثر مما تفتح الباب للمعركة معها. ومن الصعوبة بمكان أنْ تصدق حظها حين تقترب من الطابق الأول من دون حوادث مؤسفة.

وحال دخولها شمّت الفئران الرمادية الحبوب، التي كانت مخزونة في صناديق على الأرضية. لكن لم يحن الوقت حتى الآن لتستمتع بغزوها. بحثت أولاً، بحذر شديد، من خلال غرفة شاغرة، داكنة اللون. وجرت نحو موقد النار، المنصوب على الأرضية في مطبخ القلعة القديم، ولكن، في الغالب تراجعت أيضاً، إلى الغرفة القديمة. إذ ليس هناك من زقزقة في الثقوب الضيقة التي قد غادرتها دون توقع، لكنها لم تجد فئراناً رمادية، حين كانت هذه الأرضية من ممتلكاتها. وقد بدأت بالحذر نفسه، لتنال المكسب القادم. وعليها أن تغامر في تسلّق جريء وخطير من خلال الجدران. وفي هذه الأثناء، وبرغبة تقطع الأنفاس، توقعت هجوماً من العدو. ورغم ذلك، فقد جذبتها رائحة من صناديق الحبوب، وأرغمتها في الغالب بطريقة منتظمة على فحص زمن المحاربين القدماء وأعمدة المطبخ الساندة وموقد النار والحفرة في

الأرضية التي كانت مفتوحة في الأزمنة القديمة، والزفت المغلي على العدو المتطفّل. وكانت الفئران السوداء مختفية دائماً طيلة هذا الزمن. أما الفئران الرمادية فكانت دائماً ما تتلمّس طريقها لتصل إلى الطابق الثالث ومنه إلى سيد القصر صاحب المأدبة الكبيرة، التي تقف هناك تحت شدة البرد، فارغة مثل بقية غرف القصر الأخرى في البيت القديم. وراحت أيضاً تتلمس طريقها إلى الطابق العلوي، الذي كان كبيراً ويحتوي على غرف مهجورة. والمكان الوحيد الذي لم تكتشفه هو عش اللقلق الكبير على السطح، في هذا الوقت، وقد أيقظت السيدة البوم أكّا، وأخبرتها أنّ فلاميا، بوم برج الكنيسة، وافقت على طلبها، وأرسلت إليها ما ترغب فيه.

منذ أنْ فحصت الفئران الرمادية بحذر القلعة بكاملها، شعرت بالارتياح. وتسلمت أمراً مفروغاً منه أنّ الفئران السوداء قد هربت، وبذلك لا تتعرض لأيّة مقاومة. وهكذا وبقلوب سعيدة، أسرعت إلى صناديق عنبر الحبوب.

لكن الفئران الرمادية كان من الصعوبة عليها هضم حبوب القمح، وحين سمعت صوت صخب الأنبوب، رفعت رؤوسها، وأصغت بتلهف، وجرت خطوات عديدة، كما لو أنّها تغادر صناديق الحبوب، ومن ثم، مرة أخرى، استدارت وبدأت تقرض الحبوب. ومرة أخرى بدأ صوت الأنبوب يصرخ ويخترق السمع، والآن قد حدث شيء مدهش. فأرة واحدة، فأرتان، وغادرت الفئران جميعها مخزن الحبوب، قافزة من أعلى صناديق الحبوب، ومسرعة ومتخذة في الوقت نفسه، أسرع الطرق باتجاه السرداب، للخروج من المنزل، ولكن بقيت بعض الفئران، وتبدو هذه الفكرة للجميع، جرس إنذار وقد كلفها هذا الإزعاج أن تربح قصر غليمنغي، وليس لديها أية نية في مغادرته. ولكنها التقطت مرة ثانية صوت نغمات من الأنبوب، وعليها أن تتابعها، واندفعت بإثارة كبيرة من صناديق القمح، وانزلقت نحو الأسفل من خلال حفر صغيرة في الجدران يتساقط أحدها فوق الآخر تسودها الرغبة في الخروج.

في وسط الفناء وقف مخلوق ضئيل، كان ينفخ في مزمار، وكان كلّ ما حوله دائرة تضم الفئران التي تصغي إليه بانتباه ودهشة ساحرة، وكلما ازداد تزميراً تضاعفت الدهشة. وذات مرة تناول قصبة المزمار من فمه – للحظات فقط –، ووضع إبهامه في أنفه وراح يؤشر بأصابعه إلى الفئران الرمادية. ومن ثم، بدا الأمر كما لو أنها كانت مستعدة أن ترمي نفسها إليه وكما لو أنها تريد أنْ تميته عضّاً، ولكن سرعان ما بدأ يزمر وشعرت بقوة سحره عليها.

حين راح المخلوق الصغير يلعب على الفئران الرمادية خارج قلعة غليمنغي، بدأ يتجول ببطء

من الساحة الكبيرة إلى الطريق العام، وقد تبعته الفئران الرمادية جميعاً، لأن النغمات الصادرة من ذلك المزمار تبدو فاتنة في تشنيف آذانها إلى حد أنّها لم تستطع مقاومتها.

مرّ المخلوق الصغير منْ أمامها قبل أنْ يسحرها طويلاً وهنّ في الطريق إلى قرية فالبي. وقادهم إلى جميع أنواع – المنعطفات والانحدارات والانحناءات من خلال الحافات نزولاً إلى الخنادق– أينما ذهب، فهن يتبعنه. وهو يزمّر بمزماره باستمرار، الذي يبدو أنه مصنوع من قرن حيوان، ورغم صغر القرن فليس هناك قرن حيوان في عصرنا مكسور من جبهته، ويمكن أنْ ينكسر. وليس هناك منْ يعرف من الذي صنعه. فقد وجدته بومة برج الكنيسة في فلاميا في محراب كاتدرائية مدينة لوند. وقد عرضته على باتاي، والغراب؛ وكلاهما اكتشف أن ذلك النوع من القرون الذي كان يستعمل في الزمن الماضي من قبل أولئك الذين يرغبون أن يسيطروا على الحكم على الفئران والجرذان. ولكن الغراب هو صديق أكّا ومنه قد تعلمت أنّ فلاميا قد امتلكت مثل هذا الكنز.

وكان حقيقة أنّ الفئران لم تستطع مقاومة المزمار. وقد مرّ الصبي من أمامها وراح يزمّر مثل نجمة الليل وهم في هذه الأثناء يتابعنه. كما أنه يعزف حتى مطلع الفجر؛ ويعزف مع شروق الشمس؛ وفي كل الوقت، وتابعه موكب الفئران الرمادية كله، وقد انجذبت إليه أكثر فأكثر بعيداً عن الدور العلوي للحبوب في قصر غليمنغي.

الفصل الخامس
طائر الكراكي العظيم يرقص في كولابيرغ

الثلاثاء، التاسع والعشرون، آذار/ مارس

رغم أنّ هناك عدة هياكل رائعة، في مقاطعة «سكونه»، فإنّ من المسلّم به أنْ ليس هناك أحد ممنْ لديه مثل هذه الجدران الجميلة كما هو في كولابيرغ القديمة.

تقع كولابيرغ على أرض منخفضة وطويلة إلى حدّ ما، وهي مدينة كبيرة وجبالها مهيبة جداً، وعلى قمتها العريضة ستجد الغابات وحقول المزارع، بطريقة أو بأخرى. وهنا وهنالك، وحول روابيها نبات الخلّنج، وترتفع حولها الكهوف القاحلة، لم تكن جذّابة بشكل خاص هنالك. لكنْ تبدو في الأغلب شبيهة بتلك المكانات المرتفعة في «سكونه».

إنّه هو الذي كان يسير عبر الطريق وسط الجبل لكنه شعر إلى حدّ ما بالإحباط. ثم ربما استدار من المنعطف، وتجوّل باتجاه سفوح الجبال ثم نظر نحو منطقة شديدة الانحدار، وبعد ذلك، وفجأة، اكتشف شيئاً يستحق النظر كثيراً، وكان من الصعوبة بمكان أنْ يعرف كيف يجد الوقت لكل ذلك. إذ صادف أنّ مدينة كولابيرغ لا تستند على أرض كباقي المدن، مع الحقول والوديان التي حولها، كما هو في الجبال الأخرى؛ لكنها تنحدر نحو البحر وتصل إلى مسافة لا يمكن الوصول إليها. ولا حتى إلى أصغر شريط من الأرض التي تقع تحت الجبال لحمايتها من التكّسر؛ كي تصل إلى جميع الطرق المؤدية إلى سفوح الجبال، التي بإمكانها صقلها وقولبتها كي تكون منسجمة مع بعضها البعض. وهذا هو السبب الذي يجعلها تقف هناك غنيّة بزخرفتها فضلاً عن البحر الذي يفعل فعله في صقل الأشياء في داخلها، لأنّ الريح قادرة على التأثير فيها.

إنك سترى انحدار وديان عميقة منقوشة على جوانب الجبل؛ وجرفاً أسود شديد الانحدار أيضاً الذي أمسى ناعماً ومشرقاً تحت جلْد مستمر للريح. وهناك أعمدة من صخور ثبّتتْ في أعلى المياه، كما توجد هناك كهوف مظلمة ومداخل ضيقة؛ وهناك أيضاً منحدرات عمودية فضلاً عن أوراق نباتية ناعمة منحنية ومغطاة، وهناك شارات، ومخارج صغيرة، وصخور متدحرجة صغيرة، ونقاط صغيرة، فضلاً عن صخور صغيرة متدحرجة بسرعة ومندفعة غاسلة معها للأعلى والأسفل وجارفة أنقاضها فوق الماء. وهناك حجر حاد ينشر بثبات رغوة بيضاء،

وأخرى، مرآة عاكسة، في حجر أخضر داكن لا يتغير في الماء، وهناك أيضاً، كهوف عملاقة خرافية تتشكل بين الصخور، وهناك صخور عظيمة تحاول أن تتجول لتخاطر في أعماق الجبل وعلى طول الطريق المؤدي إلى منطقة كولمان هولو. وفوق وحول كل هذه الأغصان المتشابكة والأعشاب الضارة تنحدر متدحرجة ومتشابكة ولولبية بين الأعشاب الضارة، كما تنمو الأشجار، ولكن قوة الريح عظيمة جداً بحيث إنّ على الأشجار أنْ تتحول ذاتيّاً إلى كروم متشبثة، ومن المحتمل أنْ تكون أكثر ثباتاً وتمسّكاً بالمنحدرات الحادة. ويزحف شجر البلوط على طول الأرض، بينما أوراق شجرها متعلقة فوقها مثل سقف واطئ؛ ونرى أطراف شجر الزان الطويلة تقف في الوديان مثل خيام ورقية عظيمة.

إنّ هذه الجدران الجبلية الرائعة، والهواء النقي الذي يخترقها من الأعلى، ومن تحتها البحر الأزرق، يجعل من هواء كولابيرغ نقيّاً للناس الذين يزدحمون في المكان في كل يوم طالما استمر فصل الصيف. لكن من الذي يجعل هذه الأمكنة جذابة للحيوانات التي تتجمع هنا في كل سنة لقاء المتعة. لقد تحوّلت إلى عرف بين الناس الذين نلاحظهم منذ زمن ممعن في القدم، والمرء يجب أنْ يكون هناك حينما تكون أول موجة بحر تنقذف أمام الشاطئ، لتتمكن من توضيح سبب أن كولاييبيرغ تنفرد كأرضية اجتماع لقاء بالمقارنة مع بقية الأمكنة.

وطالما يحدث لقاء الأيائل والظباء والثعالب والأرانب البرّية وجميع الحيوانات الماشية على الأربع؛ لتقوم بسفر إلى كولابيرغ قبل ليلة، كي لا يرصدها الإنسان. وتماماً قبل شروق الشمس يسير الجميع إلى ساحة الملعب، حيث يقع على الجانب الأيسر من الطريق، وليس بعيداً عن قمة الجبل الأبعد. وساحة الملعب هذه مغلقة من جميع الجهات بهضبات دائرية صغيرة، تخفيها عن أيّ شخص لم يسبق له أنْ جاء إليها. وفي شهر آذار/مارس ليس من المحتمل أبداً لأيّ من المشاة أنْ يضلوا طريقهم هناك. وإنّ جميع الغرباء الذين يتجولون في أوقات أخرى بين الصخور يتسلقون بجهد أعلى جانب الجبل. وتعصف رياح الخريف بتلك المناطق لعدة أشهر. ويتواجد حارس الفنار هناك، على القمة؛ وكذلك فلاح الجبل ومنزله الشعبي بطرقه المعتادة، ولا يجري حول المروج المقفرة.

حين تصل الماشية إلى الملعب، تتخذ مكاناً لها حول الروابي. وعلى كل عائلة حيوانية الحفاظ على نفسها، رغم أنه من المفهوم ذلك أنّ في يوم ما، وفي مثل هذا اليوم الذي يسود فيه السلام العالمي، فليس هناك خشية أو خوف من هجوم. في مثل هذا اليوم ربما هناك

أرنب بري صغير يتجول وهو في طريقه إلى تلّة الثعالب، من دون أنْ يفقد شيئاً من أذنيه الطويلتين. ومع ذلك فإنّ الحيوانات تنظم نفسها على شكل مجموعات منفصلة. وهذه عادة قديمة.

بعد أنْ تتخذ هذه الحيوانات أمكنة لها، تبدأ بالبحث عن الطيور منْ حولها. ودائماً ما يكون الجو لطيفاً مثل هذا اليوم. وغالباً ما تكون طيور الكراكي تتنبأ بحالات الجو، ولن تدعو الحيوانات معاً إنْ كانت تتوقع نزول الأمطار.

ورغم أنّ الهواء نقيّ، ولا شيء هناك يحول دون الرؤية، إلا أن الماشية على الأربع لا ترى الطيور. وهذا شيء غريب. خاصة وأنّ الشمس في كبد السماء، والطيور في طريقها الآن.

على كل حال، إنّ ما تلاحظه الحيوانات الآن، بطريقة أو أخرى، هي غيوم سوداء، تتقدّم ببطء فوق السهول. وتبدو إحدى تلك الغيوم جاءت فجأة عبر ساحل أورسوند، ومن أعلى إلى كولابيرغ. حين تتوصل الغيوم إلى ساحة الملعب تتوقف، وفجأة تبدأ سحابة محملة بالمطر ترنّ وتغرد، كما لو أنها لا تفعل أي شيء باستثناء نغمتها. تروح ترتفع وتغوص، ترتفع وتغوص، لكنها طيلة الوقت ترن وتغرد. وأخيراً تهبط الغيوم كلها. وبسرعة تغطي قبّرات رمادية اللون وعصافير بيضاء ورمادية وحمراء وزرازير مرقطة وقرقف أصفر يميل للخضرة الهضبة كلها.

وفوراً بعد ذلك، تأتي غيمة أخرى من الأرانب فوق السهول. وهنا تقف فوق كل قطعة من الأرض وفوق كوخ الفلاح، والقصر، وفوق البلدات والمدن، وفوق الحقول وسكك حديد محطات القطار، ونجوع صيد الأسماك، وأخيراً، معمل تكرير السكر. في كل وقت تقف، تسحب إليها دوّامة من غبار حبوب رمادية من الأرض. وهكذا تنمو، وتنمو. وأخيراً، حين يلتقي الكل يتجهون إلى كولابيرغ، فلم تعدْ هناك أي غيوم، ولكن بدلاً من ذلك يسود ضباب كثيف إلى حدّ يلقي بظلاله على الأرض كل الطريق ابتداء من مولي إلى هاغاناس، وحين يتوقف الضباب فوق ساحة الملعب، يخفي الشمس؛ ولفترة طويلة تمطر عصافير رمادية فوق انحدار الهضبات قبل أن تطير فوق القسم الغائر من الضباب الذي يستطيع مرة ثانية أنْ يمسك طلوع النهار.

لكن يبقى القسم الأكبر من تلك الغيوم ظاهراً. وهذا يشكّل سرباً من الطيور تسافر منْ كل اتجاه لتنضم إليه. إنه ظلام رمادي يميل إلى الاصفرار، وليس هناك أيّ ضوء شمس قد

يخترقها. وهي مليئة بصراخ رعب، وضحك مخنوق، وأنباء نعيب سوء حظ! وكل هذا فوق ساحة الملعب، يبعث على السرور حين تحوّل نفسها أخيراً إلى عاصفة تشاؤم ونعيق مثل: الغربان والغداف وطيور الرخ.

في هذا الشأن، ليست الغيوم وحدها يمكن رؤيتها في السماء، وإنما مختلف الأشكال والمشارب. ومن ثم باستقامة الخطوط في الشرق والشمال الغربي. هذه هي غابة الطيور اعتباراً من ضواحي غوينغي: التي تعد مملكة الدجاج البري الأسود، ونقّار الخشب. يأتون محلقين على شكل أسراب، ومجموعات يبلغ طولها أمتاراً متفرقة. كما تأتي الطيور المائية التي تعيش حول «موكلبن» تماماً من خارج «فالستربو»؛ تأتي عائمة عبر جهة على شكل مجاميع كثيرة متفرقة مشكلّة بذلك رسماً مثلثاً، ومنحنيات طويلة؛ وصنّارات وشبه دوائر.

وإشارة إلى إعادة الاتحاد العظيم الذي عقد في السنة التي سافر فيها نيلز هولغيرسون تقريباً مع الإوز البري، جاءت أكّا وسربها – في وقت لاحق قبل الآخرين – وهذا لا يثير الدهشة، ذلك لأنها دائماً ما تحلّق فوق سماء مدينة «سكونه» لتصل بعد ذلك إلى كولابيرغ. إلى جانب ذلك، وحالما تسير ماشية، تكون مضطرة للخروج بحثاً عن ثمبيتوت، الذي خرج قبل ساعات ليتسلى مع الفئران السوداء ليجذبها بعيداً عن قصر غليمنغي. وعاد السيد البوم حاملاً أخباراً أنّ الفئران السوداء ستكون في الوطن حالاً بعد شروق الشمس؛ وهي آمنة الآن تماماً لتجعل مزمار برج الكنيسة صامتاً؛ ولتمنح الفئران الرمادية حرية الذهاب كما يفضلون.

لم تكن أكّا هي التي اكتشفت الصبي، حيث كان يسير في مساره الطويل، إذ غاصت فجأة وبسرعة منخفضة فوقه وأمسكته بمنقارها، وراحت تتأرجح به في الهواء، ولكن السيد إيرمينرج، اللقلق! راح هو الآخر يبحث عنه. ولكن بعد أنْ نقله إلى عش اللقلق، طلب السماح منه أنْ يغفر له لأنه عامله بعدم احترام مساء الأمس.

بعث هذا التصرف الارتياح الشديد في داخل الصبي، وأصبح واللقلق صديقين حميمين. وأظهرت أكّا أيضاً، مشاعر العطف الرقيقة جدّاً إزاء الصبي؛ ومسّدت برأسها مرات عديدة ذراعيه. وأشادت به لأنه قد ساعد أولئك الذين كانوا يمرون بمشكلة.

لكن ينبغي أنْ يقال عن ائتمان هذا الصبي كثيراً: وهو لا يريد أنْ يقبل الإشادة التي لا يستحقها. «كلا، أيتها الأم أكّا، يجب ألا تفكري أنني قد جذبت الفئران الرمادية لمساعدة تلك الفئران السوداء. إنني أردت فقط أنْ أظهر للسيد إيرمينرج أنني كنت أريد منزلة

اجتماعية...».

لم يستعجل اللقلق في كلامه ذلك قبل أنْ تلتفت أكّا إلى اللقلق وتطلب منه إنْ كان يعتقد أنه من المستحسن أنْ يأخذ ثمبيتوت إلى كولابيرغ. وقالت: «أنا أعني، أنه بالإمكان الاعتماد على أنفسنا». لكن اللقلق قد أصر وبحماس شديد أنّ على ثمبيتوت أن يعود حالاً. قال اللقلق: «بالطبع، إنك ستأخذينه مباشرة إلى كولابيرغ، أيتها الأم أكّا، إنها فرصتنا الجيدة لنعيد إليه كل ما قد تحمّله من معاناة هذه الليلة من أجلنا. ولأنه أيضاً ما زال يحزنني ويدفعني للتفكير في أنني لا أتحمل ما في داخل نفسي وأنْ أعبّر عن سلوكي إزاءه في المساء الآخر. وإنني أنا الذي سأحمله على ظهري كل هذا الطريق وحتى مكان اللقاء».

ليس هناك أفضل من أن تتلقى مدحاً من أولئك الحكماء والمقتدرين؛ وأنّ ذلك الصبي لم يشعر بالتأكيد بسعادة كبيرة حين تحدث الإوز البري واللقلق عنه بمثل هذه الطريقة.

هكذا فإنّ الصبي قام برحلة إلى كولابيرغ، ممتطياً ظهر اللقلق. رغم ذلك فهو يعرف أن ذلك كان شرفاً كبيراً له، ويسبب له كثيراً من القلق، لأن السيد إيرمينرج هو سيد الطيران، وشرع بخطوات تختلف كثيراً عن طيران الإوز البري. وبينما كانت أكّا تتبع خطواتها المستقيمة حتى مع أجنحة اللقالق، وقد متّع اللقلق نفسه بأداء كثير من خدع الطيران. أولاً، بقي مستلقياً على ظهرها بارتفاع غير قياسي، وطاف في الهواء من دون أن يحرك جناحيه، ومن ثم قذف بنفسه نحو الأسفل بمثل هذه السرعة التي بدت كما لو أنه على وشك الوقوع نحو الأرض، مثل كومة من حجر متطايرة لا حول ولا قوة لها تثير الضحك بأكملها حول أكّا، على شكل دوائر صغيرة، مثل زوبعة. ولم يسبق للصبي أنْ مرّ بمثل هذا النوع من الطيران؛ ورغم ذلك جلس هناك كل هذه الفترة وهو يعاني من الرعب. وقد اعترف في نفسه أنه لم يعرف مسبقاً ماذا يعني الطيران الجيد. وهناك توقف لمرة واحدة طيلة هذه الرحلة، وبعدها واصل إلى بحيرة فومب، حين انضمت أكّا إلى رفاقها ونادتهم بأنّ الفئران السوداء قد اندحرت. ومنْ ثم طار المسافرون باستقامة باتجاه كولابيرغ.

بعد ذلك هبطوا على الهضبة المحجوزة للإوز البري، بينما كان الصبي يلقي نظرة متجوّلة من هضبة إلى هضبة، لحظ قرون أيائل كثيرة على إحداها، وفي هضبة أخرى، طير مالك الحزين رمادي اللون. كانت إحدى الهضاب مليئة بالذئاب الحمراء، وأخرى رمادية مليئة بالفئران؛ وأخرى أيضاً كانت تغطيها الغربان السوداء التي تصرخ بشكل متواصل؛ وهضبة أخرى مليئة بالقبّرات التي ببساطة لم تستطع الاستقرار. لكنها بقيت تحوم في الفضاء وتصفر بمتعة. كما

جرت العادة في كولابيرغ، فإنّ الغربان استهلّت ألعاب اليوم بحفلات سمر برقصات طيرانهم. قسّموا أنفسهم إلى سربين، كل سرب يطير باتجاه السرب الآخر، يلتقون، ويستديرون، وبعد ذلك يبدؤون الفعالية مرة أخرى. تتكرر هذه الرقصة مرات عدة، وتبدو في المشهد الذي لم يكن مألوفاً مع الرقص رتيباً جداً. كانت الغربان فخورة جداً برقصها. كما أنّهم كانوا سعداء جميعاً حين انتهى الحفل. ظهر على الحيوانات أنّها على وشك الاكتئاب واللاجدوى، مثل عواصف الشتاء، تلعب بكرات الثلج. وقد بعث في داخلها الحزن للاستمرار في مشاهدته. وانتظرت بلهفة شيئاً ما يمنحها قليلاً من السعادة. وبعد كل هذا تريد أنْ يضيع وقتها عبثاً. وحالما انتهت الغربان من فعاليتها جاءت الأرانب البرية مسرعة. واندفعت إلى الأمام بطابور طويل، من دون أن تنتظر إصدار الأوامر لها، من بين الأرانب جاء أحدها، أما الآخرون فجاؤوا جنباً إلى جنب، ثلاثاً ورباعاً. وكلهم يرفعون سيقانهم، مندفعون إلى الأمام بمثل هذه السرعة وآذانهم الطويلة تخفق في كل الاتجاهات. وبينما الأرانب تجري، وتدور، وتقفز قفزات عالية، وتضرب بمخالبها إلى حد فقدان أعصابها، بعضهم يحقق نجاحات كبيرة ومتوالية في الشقلبة، والبعض ينطوي على نفسه ويتدحرج فوق العجلات، والآخرون يقفون على ساق واحدة ويدورون حول أنفسهم؛ وآخرون يقفون على مقدّمة مخالبهم. وليس هناك أيّ نظام في ألعابهم. نعم، هناك الكثير من المهرجين في لعبة الأرانب البرية؛ وكثير من الحيوانات بدا عليها أنها تتنفس بسرعة. والآن كان الفصل ربيعاً؛ وتزداد فيه النشوة والفرح، وانتهى فصل الشتاء؛ وفصل الصيف قادم إلينا. وسيكون فيه اللعب الحي فقط.

حين صخبت الأرانب الذكور، راحت تلعب في الخارج، وطيور الغابة العظيمة تغرّد. وانطلقت مئات من طيور الدجاج البري في نسق واحد أسمر داكن يميل إلى اللمعان، لها حواجب حمراء لامعة، تتدفق بين شجر البلوط العظيم الذي ينتصب في مركز ساحة الألعاب. وقد جلس أحدها على أعلى غصن شجرة ونفخ ريشه، خافضاً جناحيه، ورافعاً ذيله، مما أظهر جليّاً ريشه الأبيض، بعد ذلك مدّ رقبته وأرسل إلى الأمام وأطلق نوتات تغريدية منطلقة من حنجرته الغليظة. «تشاك، تشاك، تشاك». وتبدو هذه الإيقاعات أكثر مما يستطيع أن يؤديها. وهناك قرقرات قليلة تهبط منْ حنجرته، ومنْ ثم أغلق عينيه وراح يهمس: «سيس، سيس، سيس». اسمع كم هو جميل هذا الترنيم: «سيس، سيس، سيس» وفي الوقت نفسه أخذته النشوة خلال تغريدها، ولم يعد يعرف ما الذي يجري حوله.

بينما كانت الدجاجة البرّية الأولى (تقوقئ)، فإنّ أسفل ثلاث قريبات منها – شرعن بالغناء؛ وقبل أن ينتهين من أغنيتهن، بدأت ثلاث أخريات منهن كنّ جالسات أسفلهن بالانضمام

إليهن؛ وهكذا استمر الغناء منْ غصن إلى غصن، بينما المئات من الدجاج البريّ راحت تغني وتقرقر وتقوقئ. وسقط الجميع في تلك النشوة خلال غنائهم هذا، ما أثر ذلك في بقية الحيوانات، كما تنتقل العدوى. وأخيراً مما جعل الدم يتدفق في عروقهم بحرارة وبالتناغم ذاته، وأخذ ينمو بكثافة تصحبها حرارة: «نعم، هذا هو بالتأكيد فصل الربيع». قالت الحيوانات جميعاً. وقد اختفى فصل البرد القارس، واشتعلت نيران فصل الربيع فوق الأرض.

حين رأى الدجاج البري الأسود قد حقق مثل هذا النجاح غير المسبوق لم يتمالكوا إلا الركون للهدوء. وليس ثمة شجرة يمكن أن يحطوا فوقها، كما نبات الخلنّج ينتصب عالياً، ولا يمكن رؤية استدارة ذيولهم الجميلة ومناقيرهم السميكة غير المرئية. وشرعوا بالغناء: «أورر، أورر».

حين شرع الدجاج البري الأسود يتنافس مع الدجاج البري الرمادي حدث شيء غير مسبوق. بينما كانت الحيوانات جميعاً لا تفكر إلا بفعاليات الدجاج البري. وبحذر شديد تسلل ثعلب باتجاه هضبة الإوز البري، واقترب من الهضبة قبل أنْ يراه أيّ أحد. وفجأة لمحته إوزة، وهي لا تصدق أنّ ذلك الثعلب قد تسلل بين تلك الإوزات لغرض شرير. وبدأت بالصراخ: «احذر أيها الإوز! احذر أيها الإوز!». وضربها الثعلب على جانب من حنجرتها في الأعم، ربما لأنه يريد أنْ يجعلها أكثر هدوءاً، ولكن الإوز سمع الآن صراخاً، لهذا ارتفعوا في الهواء جميعهم. وحين طار الإوز رأت الحيوانات الثعلب واقفاً على هضبة الإوز البري، وكانت الإوزة قد ماتت بين فكيه.

ولأنها كانت مكسورة في لعبة يوم السلام، فينبغي أن يتلقى الثعلب الماكر أشد العقوبات، وسيندم على أيامه الأخيرة وأنه لم يكن بمقدوره التغلّب على عطشه للانتقام، رغم أنه حاول أن يقترب من أكّا وسربها بهذا السلوك.

أحاطت به حالاً مجموعة من الثعالب وحكم عليه طبقاً للأعراف القانونية القديمة، التي تقرّ على كل منْ يخترق أعراف السلام في يوم الألعاب العظيم يجب أنْ يحْكم عليه بالنفي. ولا يخفف الحكم بناء على رغبة الثعلب، لأنهم جميعاً يعرفون أنّ عجالة ما يقومون به من محاولة أيّ شيء من هذا النوع، ينبغي أنْ يبْعدوا منْ ساحة الملعب، وقد حُكم على الثعلب الماكر من دون أيّ اعتراض منه. وتقرر منعه من البقاء في مقاطعة «سكونه». ويبْعد من زوجته وأقاربه؛ ومن الصيد البري، والوطني، والأمكنة المستقرة، وبقية الخلوات، التي يمتلكها حتى الآن؛ ويجب أنْ يتخلى عن الثروة في الأراضي الأجنبية. لذا فإنّ على جميع

الثعالب أنْ تعلم أنّ الثعلب الماكر قد خرج على القانون في الضاحية. ويجب على جميع الثعالب الأكبر عمراً أنْ تعضّه منْ شحمة أذنه اليمنى. وحالما أعلن تنفيذ هذا الحكم، عوت جميع الثعالب الشابة عطشاً لدمائه، ورمت بنفسها على الثعلب الماكر، وتعلّقت به، فليس هناك من وسيلة للخروج من هذه العقوبة، ولذلك فقد أطلق ساقيه للريح، وخلفه جميع الثعالب الشابة تطارده، واندفع هارباً إلى كولابيرغ.

حدث كلّ هذا بينما كان الدجاج البري الأسود والدجاج البري الرمادي مستمر في ألعابه. لكنّ هذه الطيور أضاعت نفسها بشكل كامل في غنائها ولم تسمعْ ولم ترَ كل ما حدث للثعلب الماكر. ولا تريد أنْ تزعج نفسها بذلك.

كانت مسابقة الطيور قد انتهت بالكاد، حين جاءت الأيائل منْ هاكيبيرغا لتعرض فعالية لعبة مصارعتهم. كانت هناك مجموعة من الأيائل تحارب في الوقت ذاته. اندفع أحدهم نحو الآخر بقوة هائلة، وباندفاع بعضهم البعض، فإنّ فعّالياتهم متشابكة، محاولين أنْ يرغم أحدهم الآخر ويدفعه إلى الخلف. كان نبات الخلنّج قد تمزق تحت حوافرها. وجاء بخار تنفسهم من مناخيرها مثل دخان قادم متصاعد من حناجرها ومن أسفل توتراتها البشعة وزبدها ينضح أسفل خواصرها.

على الهضاب قد تقطعت أنفاسهم بصمت، بينما حسمت قبضة الأيائل المتصارعة اللعبة. بينما وهنت مشاعر جميع الحيوانات الجديدة. وانتابت الجميع مشاعر الشجاعة والقوة؛ أنعشتها قوى العودة؛ وجرت مرة ثانية في فصل الربيع؛ بمرح، واستعدوا لمواجهة جميع أنواع المغامرات. ولم تنتبهم مشاعر عداوة أحدهم للآخر، رغم أنّ الأجنحة، كانت مرفوعة في كل مكان، وريش الرقبة مثار، والمخالب حادة. فإن استمرت الأيائل من هاكيبيرغا إلى مسافة أخرى، سيرتفع صراع عنيف في الهضبات، لأنّ الجميع يشعر برغبة حادة ليبرهنوا، أنهم مدفوعون برغبة الحياة خاصة وأن ضعف الشتاء قد انتهى وتدفقت القوة في ثنايا أجسادهم.

لكن حيوانات الأيائل أوقفت المصارعة تماماً في اللحظة المناسبة، وفجأة بدأ الهمس من هضبة إلى هضبة: «جاءت طيور الكراكي!».

ثم جاءت الطيور الرمادية تحت ظلام الغسق موشاة بريش أجنحتها، يطرّز رقابها ريش أحمر اللون، وأعقبتها طيور كبيرة الحجم ذوات سيقان طويلة، وحناجر نحيلة، رؤوسها صغيرة، منحدرة من أسفل الهضبة، متنازلة عن هجرتها وهي مفعمة بالغرابة. وهي تنزلق إلى الأمام

متأرجحة، بنصف طيرانها، ونصف راقصة، بأجنحتها، المرفوعة برشاقة، وبسرعة لا يمكن تخيّلها. وهناك شيء مدهش وغريب في رقصها. رغم إلقاء الظلال على لعبة من النادر جداً أنْ يتابعها النظر، يبدو كما لو أنهم تعلموه من الضباب الذي يحوم فوق مستنقعات مقفرة، فيها سحر. وتلك الأشياء كلها لم تكن موجودة ومفهومة الآن، وثمة سؤال يطرح نفسه لماذا اشتقت جميع اللقاءات اسمها من رقصات طائر الكراكي؟ وفيه سمات برية. لكن العاطفة التي أيقظتها فيها توق لذيذ. وليس هناك منْ يؤمن كثيراً بالصراع. وبدلاً من ذلك سواء تلك التي تملك أجنحة أم تلك التي لا تملكها، فجميعها ترغب الإشادة بأنفسها دائماً. فأرواحهم دائماً فوق الغيوم، باحثة عن ذلك الذي كان مخفيّاً فيها. تاركة الجسد الظالم الذي سحبها نحو الأرض وحلق بها بعيداً نحو اللانهاية.

هذا التوق باتجاه ما نعدّه صعب المنال، في خلفية غموض ما وراء هذه الحياة. شعرت به الحيوانات مرة واحدة فقط في السنة؛ وكان هذا في يوم ما بمناسبة يوم رقص طائر الكراكي.

الفصل السادس
في جو مطير

الأربعاء، الثلاثون من آذار/مارس.

كان أوّل يوم مطير للنزهة. كان يوماً طويلاً جدّاً لأنّ الإوز البرّي مكثوا فترة طويلة قرب بحيرة فومب وتمتعوا بجو جميل؛ ولكن في اليوم الذي سافروا فيه إلى الشمال البعيد، بدأ المطر يهطل، وبعد ساعات كان على الصبي أنْ يجلس على ظهر الإوزة، حتى ابتلّ عرقاً وراح يرتجف من البرد.

في الصباح، حين انطلقوا، كان الجو صافيّاً ومعتدلاً. حلّق الإوز عالياً في الجو، بتوازن، وبلا سرعة – مع الإوزة أكّا المحافظة على الانضباط الصارم، والتي كان يسير خلفها سربان منحرفان. لم يكنْ لديهم الوقت الكافي لينادوا على الحيوانات على الأرض؛ لكنْ، ببساطة من المستحيل بالنسبة إليهم أن يحافظوا على الصمت التام، وراح صوتهم يرتفع بالغناء باستمرار وعلى إيقاع ميْل أجنحتهم لمناداة مقنعة:

«أين أنت؟ أنا هنا! أين أنت؟ أنا هنا! أين أنت؟ أنا هنا؟».

ساهم الجميع بهذا النداء الملح، وراحوا يتوقفون هنا وهناك فقط، بين الحين والآخر، ومن السابق لأوانه أنْ يرى ذكر الإوز العلامات التي يمرون منْ فوقها.

كانت الرحلة رتيبة، وحين ظهرت الغيوم المحمّلة بالمطر اعتقد الصبي أنّ هذا تحول حقيقي. وفي الأيام القديمة، حين كان يرى الغيوم المطيرة من الأسفل فقط، ظنّ أنها رمادية اللون وغير مقبولة؛ لكنها مختلفة جدّاً كي تكون عالية بينهم. شاهد الآن بوضوح تام أن تلك الغيوم كما لو أنها عربات هائلة الحجم تسير خلال السماوات وبأحمال من الغيوم الثقيلة. بعضها مكدس في أكياس رمادية اللون، وبعضها ما يشبه البراميل؛ والأخرى ضخمة جدّاً بإمكانها أن تحمل بحيرة بكاملها، بعضها كانت قليلة مليئة بأوانٍ وقنانٍ كبيرة جدّاً مكدّسة على مرتفعات ضخمة. حين يكون الكثير منها قد انساق للأمام ملأت السماء كلّها. ظهرت كما لو أنّها شخص ما يعطي إشارات، للجميع فوراً. بدأت المياه تندلق نحو الأسفل على الأرض، أوانٍ، براميل، قنانٍ وأكياس.

وبينما انهمرت أمطار الربيع فوق الأرض ارتفعت ما يشبه أصوات البهجة من جميع الطيور الصغيرة في المراعي والبساتين، بحيث إنّ الهواء بأجمعه يرن معهم، وراح الصبي يقفز عالياً حيث كان يجلس. «والآن.. ستكون لدينا أمطار. المطر يمنحنا الربيع، يمنحنا الأزهار وأوراق الشجر الخضراء؛ والأوراق الخضراء والأزهار تمنحنا الديدان والحشرات؛ والديدان والحشرات تمنحنا الطعام، والكمية الكبيرة، والطعام الجيد، في أفضل الأشياء، وهناك تغرد الطيور».

كذلك الإوز البرّي، سيكون سعيداً بهطول الأمطار التي تأتي لتوقظ الأشياء النامية من سباتها الطويل وتدفع الحفر سقوف الجليد إلى البحيرات. لم تكنْ قادرة على المحافظة على تلك الجدّية مدة طويلة، لكنها بدأت تطلق نداءات مرحة عبر الجيران.

عندما ارتفعوا فوق مزارع البطاطا، التي تنمو بكثرة في البلد حول كريستنستاد والتي بقيت مطروحة بألوان سوداء جرداء وهم يصرخون: «استيقظوا وكونوا نافعين! وهنا جاء شيء يوقظكم. فقد بقيتم خاملين فترة طويلة حتى الآن».

حين رأوا الناس يركضون بعيداً عن المطر، راحوا يوبخونهم بقولهم: «لماذا أنتم في عجلة منْ أمركم؟ ألا تستطيعون أن تشاهدوا خبز الجاودار والبسكويت؟».

كان ضباب كثيف يتحرك في جهة الشرق يتبع بدقة الإوز، وبدا أنّهم يظنون أنّهم يسحبون الضباب معهم؛ وأنّهم، وبالضبط الآن، رأوا تحتهم بساتين كثيرة، ونادوهم بأعلى أصواتهم: «هنا نحن قادمون مع الزعفران؛ هنا نحن قادمون مع الزهور؛ هنا نحن قادمون مع قداح التفاح وبراعم الكرز، وها نحن قادمون مع البازلاء والفاصوليا ونبات اللفت وملفوف الكرنب. من الذي يستطيع أنْ يأخذها؟ من الذي يستطيع أنْ يأخذها».

هكذا، بدتْ أولى بوادر أمطار متفرقة، حينما كان ما يزال الجميع يشعر بغبطة تمتعه بسقوط المطر. لكنْ حين استمر المطر بالانهمار طيلة المساء، راح صبر الإوز البري ينفد، وأخذ يصرخ في الغابات العطشى حول بحيرة «أيفو»: «هلا أخذتم ما فيه الكفاية؟ هلا أخذتم ما فيه الكفاية؟».

وتحوّلت السماء إلى اللون الرمادي أكثر فأكثر، وأخفت السماء نفسها إلى حدّ لا يستطيع المرء أنْ يتخيل أين هي؟ وأخذ المطر ينهمر وينهمر، ويخفق أكثر فأكثر على الأجنحة، كما لو أنه يحاول أنْ يجد طريقه إلى الريش الخارجي الزيتوني، وداخل جلودها. أخفى الضباب

البحيرات، والجبال، والأرض. وفاضت الغابات كلّها، في متاهة غير واضحة المعالم، لا يمكن تمييز المعالم الأساسية لها. راح الطيران يتباطأ، وصرخات الفرح اختنقت، وشرع الصبي يشعر بالبرد أكثر فأكثر.

ورغم ذلك، حافظ على شجاعته وهو يمتطي الهواء. وعند حلول المساء حين نزلوا تحت صنوبرة صغيرة في وسط مستنقع واسع، كان كلّ شيء رطباً، وكلّ شيء بارداً؛ حيث كان الثلج يغطي بعض الهضبات، ووقفت الأشياء عارية تتخبط في ماء الثلج نصف الذائب، وحتى ذلك الحين، لم يشعر بالإحباط أبداً، لكنه راح يجري هنا وهناك بروح عالية وهو يلتقط الكرز وثمر التوت. لكنْ حلّ المساء، وغطاهم الظلام إلى حد أن لا أحد منهم يستطيع الرؤية باستثناء الصبي، وتحوّلت البريّة إلى شيء غريب ومروّع. لكنه لم يستطع أن يرى لأنه كان يشعر بالبرد والرطوبة واستلقى تحت جناح الإوزة. ولم يستطع النوم لأنه كان يشعر بالبرد والرطوبة وقد سمع حفيفاً وطقطقة وأقداماً عابرة وأصواتاً متوعدة، كان هذا لأنه في حالة مروعة ولا يعرف إلى أين سيذهب. وعليه أن يذهب إلى مكان حيث الضوء والحرارة، إذ لم يكن يريد أن يموت من الخوف.

فكر الصبي: «أفترض أنني سأغامر وأذهب إلى حيث يوجد كائن إنساني، فقط لهذه الليلة. فقط أن أجلس أمام النار لدقيقة واحدة، وأن أحصل على طعام قليل. كي أستطيع العودة إلى الإوز البري قبل شروق الشمس».

زحف من تحت الجناح وانزلق نحو الأسفل نحو الأرض. لم يوقظ ذكر الإوز أو أيّاً من الإوز الآخرين، ولكنه تسلل بصمت من دون أن يشعر به أحد من خلال المستنقع.

لم يعرف بالضبط أين هو الآن على الأرض، إن كان في «سكونه»، أو في «سمولاند»، أو في «بليكنغه»، وقبل وصوله إلى المستنقع لمح قرية كبيرة. ومنْ هناك، وجّه خطواته. ولم تكن المسافة طويلة قبل أنْ يكتشف طريقاً، ووجد نفسه في شارع القرية، الذي كان طويلاً، ومشجّراً في جانبيه، وكان محاطاً بحديقة بعد الأخرى.

جاء الصبي إلى إحدى أكبر الكاتدرائيات في المدن والتي غالباً ما تكون عامة على مكان مرتفع، ولكن من الصعوبة بمكان أن يجد مثلها في السهل.

كانت البيوت مبنية من خشب الغابات، وبناؤها جميل جداً. أغلبها لها جبهات وجملونات، وحافاتها منحوتة، وأبوابها زجاجية وهنا، وهناك، ألواح ملونة ومفتوحة على شرفات.

والأبواب مصبوغة بألوان فاتحة؛ وإطارات الشبابيك والأبواب بألوان زرقاء وخضراء مشرقة، وحتى بألوان حمراء. وبينما كان الصبي يمشي ويشاهد البيوت، عرف أنّ كل الأزقة تؤدي إلى الطريق العام، وسمع أيضاً دردشة وضحكات أناس يجلسون في أكواخ دافئة، لكنه لا يستطيع أنْ يميز بين أحاديثهم ولكن رغم ذلك، فمن الرائع جداً أنْ يسمع أصوات الناس: «إنني أتساءل ماذا سيقولون إنْ أنا طرقت الباب بهدف دخولي إلى بيوتهم».

وطريقته هذه ستكون هدفه دائماً. وفي هذه اللحظة رأى الشبابيك المضاءة مما أزال مخاوفه من الظلام. وبدلاً من ذلك، أحسّ مرة ثانية بالخجل، الذي دائماً ما يغالبه حين يكون قريباً من الناس: «سأحاول أنْ أرى الكثير من البلدات، قبل أنْ أطلب من أيّ شخص الدخول إلى منزله».

وصل الصبي إلى بيت ذي شرفة. وفي الوقت الذي كان يسير إلى جانبه، انفتح الباب فجأة، وشاهد حزمة من ضوء أصفر منْ خلال ستائر شفافة جميلة. ثم خرجت سيدة جميلة شابة وفتحت النافذة وانحنت فوق الدرابزين. ثم قالت: «إنها تمطر الآن، وهذه علامات قدوم فصل الربيع». وحين رآها الصبي شعر بلهفة غريبة، كما لو أنه يريد البكاء. خامره شعور بحزن خفيف لأول مرة، إنه خارج فصيلة النوع البشري.

وبعد فترة وجيزة، وصل إلى محل أمامه مشوى للذرة. توقف ونظر إليه ومنْ ثم تدحرج إلى أحد المقاعد وشعر أنه يسوق عربة. فكر أنه من الرائع أنْ يقود مثل هذه الآلة فوق حقل القمح في اللحظة التي قد نسي فيها أيّ مخلوق هو؛ ومنْ ثم تذكر، وبسرعة قفز نحو الأسفل من الماكينة. ثم حدث له اضطراب عظيم. وقد اندهش كل الناس لرؤيته!

بينما هو يمشي إلى جانب مكتب البريد، فكّر أنّ جميع وسائل الإعلام قد تأتي إليه في كل يوم منْ أربع زوايا الكرة الأرضية. شاهد صيدلية وعيادة طبيب، واندهش لطاقة القوى البشرية، التي تحارب ضد المرض والموت. ثم جاء إلى الكنيسة، ومنْ ثم فكر كيف أنّ البشرية بنت هذا الصرح. ربما سمعوا عن عالم آخر أكثر من العالم الذي يعيشون؛ الرب، ويوم القيامة والحياة الخالدة. وأنه كلما سار أكثر هنا، أحب البشرية أكثر.

وهكذا هم الأطفال، لا يفكرون كثيراً أبعد منْ أرنبة أنوفهم. ذلك الذي يجعلهم قريبين كثيراً. وليس لديهم أيّة فكرة ربما قد تكلفهم غالياً. ونيلز هولغيرسون لم يفهم ماذا قد أضاع حين اختار أن يبقى قزماً، ولكنه الآن بدأ يشعر بخوف مرعب، إنه ربما لنْ يعود إلى وضعه السابق.

كيف سيبذل كل جهده في العالم كي يعود إلى وضعه الإنساني.

زحف إلى عتبة باب، وجلس تحت انهمار المطر وراح يتأمل. استمر في جلوسه لمدة ساعة، ساعتين. وراح يفكر. ويفكر بعمق إلى حد أنّ جبهته الأمامية راحت تتجعّد؛ لكنه لم يتوصل إلى نتيجة، ويبدو كما لو أنّ الأفكار تتدحرج وتتدحرج في رأسه فقط. وكلما بقي جالساً هناك، كان من المستحيل عليه الوصول إلى أيّ حل.

فكّر: «إنه من المؤكد، أنه من الصعوبة بمكان على المرء أنْ يتعلّم الشيء القليل مما لديّ أنا». ثم أضاف: «سيكون من المحتمل العودة إلى كل وضعي هذا بين الإنسانية بعد كل هذا».

«ينبغي عليّ أنْ أسأل القس أو الطبيب وناظر المدرسة وآخرين قد تعلموا أو العالمين بعلاج كل شيء».

قرر القيام بشيء ما حالاً، ثم نفض نفسه لأنه كان مبللاً مثل كلب قد خرج الآن من بركة ماء.

في هذه اللحظة بالذات رأى بومة قادمة! كانت تضيء في إحدى الأشجار التي تحاذي شارع المدينة. في اللحظة القادمة جاءت السيدة بوم، التي جلست تحت إفريز البيت، وبدأت تنعب: «كيفيت! كيفيت! هل أنت في البيت مرة ثانية، السيد. غري أول؟ كم من الوقت بقيت في الخارج؟». أجاب: «شكراً يا سيدة براون أول، كنت أستمتع بوقتي».

قالت البوم الرمادية: «هل هناك شيء غير اعتيادي قد حدث هنا في البيت خلال غيابي؟».

«ليس هنا، في «بليكنغه»، يا سيد بوم الرمادي؛ ولكن في «سكونه» حدث شيء مدهش! فهناك صبي قد حوّله قزم إلى عفريت ليس أكبر من سنجاب؛ ومنذ ذلك الحين كان قد ذهب إلى مدينة لابلاند مع الإوز الأليف.

«هذا خبر استثنائي تناقلته الأخبار، هذا خبر استثنائي تناقلته الأخبار. وهل سيتحوّل مرة ثانية إلى إنسان؟»، قالت السيدة براون: «هل يمكن أنْ يكون إنساناً مرة أخرى؟».

قال السيد براون البوم: «هذا سرّ. ولكن ربما ستسمع الشيء ذاته». قال القزم: «إذا كان الصبي يراقب وهو راكب فوق ذكر الإوز، فإنه سيعود آمناً إلى بيته، وسنسمع، ونسمع».

«ما هو المزيد، يا سيدة البوم براون؟ ما هو المزيد؟ ما هو المزيد؟».

«حلّق معي إلى برج الكنيسة، يا سيد بوم الرمادي، وستسمع القصة كاملة. إنني أخشى أنّ هناك منْ يصغي إلينا في الشارع». وبذلك، شقت البومتان طريقهما، لكن الصبي قذف قلنسوته في الهواء، وصرخ: «إني كنت أراقب ذكر الإوز، لذا فإني سأعود آمناً، وسأعود إلى حالتي الإنسانية مرة ثانية. هورا! هورا!».

وصرخ: «هورا» حتى كان من الغريب أنهما لم يسمعا عنه في البيوت، لكنه عاد إلى الإوز البري. إلى المستنقع الرطب، بأسرع ما يمكن أنْ تعينه ساقاه.

الفصل السابع
السلّم ذو الدرجات الثلاث

الثلاثاء، الحادي والثلاثون منْ آذار/مارس.

في اليوم التالي كان على الإوز البرّي أنْ يسافرنحو الشمال عبر ضاحية البوو، في سمولاند. وقد بعثوا الإوز إكسي والإوز كاكسي للتسلّل إليها. ولكنهما حين عادا، قالا إنّ الماء قد تجمّد والثلج يغطي الأرض كلها. وقال الإوز البرّي: «من الممكن البقاء حيث كنّا، ولا نستطيع السفر فوق البلد حيث لا ماء ولا طعام».

قالت الإوزة أكّا: «إنْ بقينا حيث نحن، ينبغي علينا أنْ ننتظر هنا حتى الشهر القادم، فمن الأفضل أنْ نسافر إلى جهة الشرق، عبر بليكنغه، ونرى إنْ كنا لا نستطيع الوصول إلى سمولاند عن طريق ميري، الذي هو أقرب إلى الساحل، ويتمتع بربيع مبكّر».

وهكذا جاء الصبي ليركب عبر بليكنغه في ذلك اليوم. والآن، الوقت نهاراً مرة أخرى، وكان في مزاج بهيج أكثر من اللازم، ولم يستطع تخيّل ما الذي تغلّب عليه قبل تلك الليلة. وبالتأكيد إنه لم يُرِد التخلي عن الرحلة والحياة الخارجية الآن.

كان الضباب كثيفاً فوق سماء بليكنغه، لذا فإنّ الصبي لم يعد بإمكانه أنْ يرى كيف يبدو له الجو: «إنني أتساءل إنْ كانت البلدة فقيرة أم غنية تلك التي أنا فوقها الآن». وفكر، ثم حاول أنْ يشحذ ذاكرته عن أشياء كان قد سمع بها عن البلد حين كان في المدرسة. لكن في الوقت ذاته عرف جيداً بما فيه الكفاية أنّ ذلك شيء عبثي، لأنه لم يكن معتاداً أنْ يراجع دروسه.

وفجأة بدت المدرسة أمام الصبي، الأطفال جالسون على مقاعدهم وهم رافعون أياديهم؛ والمعلم أمام منصة المحاضرة يبدو مستاءً، وهو واقف أمام خارطة ليجيب عن بعض الأسئلة حول بليكنغه؛ ولكن ليس هناك منْ يجيب عن أسئلته. وتحوّل وجه المعلم أكثر عتمة في كل لحظة تمر. وراح الصبي يعتقد أن المعلّم كان أكثر تخصصاً فيما ينبغي أنْ يتعلموه من جغرافية بلدهم أكثر منْ أيّ شيء آخر. ونزل الآن منْ منصّة المحاضرة، وأخذ الطباشير من الصبي وأعاده إلى مقعده. وفكر الصبي: «هذه نهاية غير موفقة».

لكن المعلم خطا نحو النافذة، ووقف هناك للحظة يتطلع نحو الخارج، ثم أطلق صفيراً. عاد

إلى المنصة قائلاً إنه سيخبرهم شيئاً عن بليكنغه. وما قاله المعلم كان ممتعاً جداً إلى حد أنّ الصبي راح يصغي إلى كلامه. والآن وبينما هو واقف يفكر للحظة، تذكر كل كلمة قالها المعلم.

قال المعلم: «إنّ سمولاند هي بيت طويل يجمل سقفها شجر الصفصاف، ويؤدي إليها سلّم عريض ذو ثلاث درجات كبيرة؛ ويطلق على هذا السلّم بليكنغه. والسلّم مبني بإحكام، ويمتد إلى مسافة اثنين وأربعين ميلاً عبر واجهة بيت سمولاند، وأيّ إنسان يرغب بالذهاب إلى الطريق المؤدي إلى بحر البلطيق عن طريق السلالم، عليه أنْ يتسلق مسافة أربعة وعشرين ميلاً.

لا بد أنه انقضى زمن طويل منذ أن بني ذلك السلّم. وقد مضت أيام وسنون منذ أن نحتت حجارة الدرجات من الحجر الرمادي ووضع بالتساوي وبسلاسة، لتكون طريقاً مريحاً بين سمولاند وبحر البلطيق.

ولأنّ السلّم قديم جداً، فإنّ المرء يستطيع أنْ يفهم أنه لا يبدو تماماً هو السلّم الآن كما كان جديداً في الماضي. ولا أدري لماذا أزعجوا أنفسهم بمثل هذه المسائل في ذلك الزمن؛ ولكنه كبير كما كان، وليس ثمة مكنسة بإمكانها أنْ تنظفه. وبعد العديد من السنين، بدأت الطحالب والأشنيات تنمو عليه وفي فصل الخريف تتساقط الأوراق والأعشاب الجافة فوقه؛ وفي فصل الربيع يتناثر فوقه الحجر والحصى. ومنذ أنْ تركت تلك الأشياء تتعفّن، وأخيراً تتجمع تربة كثيرة على الدرجات وليس العشب والحشيش، ولكنْ حتى الأدغال والأشجار تتجذر فيه».

ولكن، في هذه الأثناء، قد حدث تباين كبير بين الدرجات الثلاث. فالدرجة العلوية، التي تقع أقرب إلى سمولاند، فهي مغطاة في الأغلب بالتربة الفقيرة، والأحجار الصغيرة، ولا تنمو هناك أشجار باستثناء شجرة البتولا وطائر الكرز وشجر الصفصاف الذي يمكن أنْ يوقف البرد في المرتفعات، والذي يقتنع بالقليل، ومن المحتمل أنْ يزدهر. ومن الأفضل أنْ يفهم الإنسان مدى الفقر والجفاف هناك، حين يرى المرء مساحة الحقول الصغيرة تلك، وكم هي صغيرة تلك الكابينات أيضاً. ولكن في وسط الدرجة فإنّ التربة هي أفضل ولا تمنع من البرد القارس. وبإمكان الإنسان أنْ يراها بلمحة، لأنّ الأشجار هنا عالية وهي الأجمل نوعاً. وهنا تستطيع أنْ تشاهد القيقب وشجر البلوط وشجر الزيزفون وشجر دموع البتولا وأشجار البندق، ولكن نرى غياب أشجار الكرز هنا. ومن الملاحظ كثيراً أنّ جبال الأرض المنحوتة يمكن أنْ

تكون جميلة هنا؛ لأنّ الناس يملكون بيوتاً عظيمة وجميلة. وهناك على الدرجة الوسطى كنائس كثيرة، وحولها مدن كبيرة؛ وفي كل الأحوال هي أجمل مشهد من الدرجة العليا.

ولكن الدرجة السفلى هي أفضل الدرجتين على الإطلاق. إنّها تغطى بتربة غنية؛ حيث تقع وتسبح في البحر، ولا يشعر المرء بالبرد القارس هنا كما هو في سمولاند.

ينتشر هنا شجر الزان والجوز والكستناء، وتنبت هذه الأثمار عميقاً إلى حد أنها تصنع تاجاً فوق سطح الكنيسة. وهنا تنبت أيضاً أكبر الحبوب الخضراء؛ والناس هنا لا يملكون عوارض الخشب فحسب، والمزارع في مناطقهم، ولكنهم أيضاً يعيشون على صيد الأسماك والتجارة والحيوانات البحرية. لهذا السبب إنك ستجد أنّ أكثر القاطنين يسراً وأجمل الكنائس هي هنا؛ وسترى تطور الأبرشيات في القرى والمدن.

لكن، ليس هذا كل ما يقال عن الدرجات الثلاث. وعلى المرء أنْ يدرك حين ينزل المطر على سطح بيت سمولاند الكبير، أو حين ينزل الثلج فإنه يذوب هناك. ولا بد من أنْ ينصرف الماء إلى مكان ما؛ وبعد ذلك، من الطبيعي أنْ ينسكب فوق السلّم الكبير. ففي البداية من المحتمل أنْ ينزّ فوق كل المدرج، هائلاً كما كان؛ ثم تظهر فيه التصدعات، وتدريجياً، يتعايش الماء مع نفسه ليفيض فوق جوانبه، ويحفر له أخاديد جيدة. والماء هو الماء، مهما تعامل معه الإنسان. إنه لا يستقر أبداً. فهو ينقطع في مكان ما ثم ينساب بعيداً، وفي مكان آخر يزداد انسياباً. وقد حفرت هذه الأخاديد وديااناً، أما جدران هذه الوديان فقد زينت التربة؛ أما الأعشاب، والأشجار، والكروم فقد راحت تتعلق على تلك الجدران منذ نشوئها – سميكة جداً، وبكثافتها هذه كانت في الغالب تخفي حافات المجاري. ولكن حين تنحدر هذه المجاري بين الدرجات تتسارع وتندفع فوقها؛ وهذا هو السبب لمجيء الماء بهذا الاندفاع العارم ويتجمع بقوة، إلى حد يحرك عجلات المطحنة والآلة، وهذا أيضاً، ينتشر عن طريق كل شلال مياه.

هذا ليس كل ما يقال عن الدرجات الثلاث. وكان في زمان ما، يعيش جنيّ في البيت الكبير في سمولاند، حتى أمسى عجوزاً. وأرهقته السنون، في أواخر عمره، وأجبرته على النزول إلى تلك الدرجات الطويلة كي يصطاد سمك السلمون في البحر. ويبدو له هذا العمل مناسباً جداً إلى حد أنّ السلمون أخذ يأتي إليه طواعية إلى حيث يعيش ذلك الرجل العجوز.

ومن ثم، وقف وراح يرمى أحجاراً منْ بحر البلطيق. رماها بقوة بحيث طارت فوق بليكنغه

كلّها وبعد ذلك سقطت في البحر. وحين هبطت الصخور في البحر، راح سمك السلمون يشعر بالخوف بحيث دفعهم أنْ يأتوا من بحر البلطيق إلى جداول بليكنغه؛ متدفقين بسرعة، وبقفزات عالية لتتوقف فوق الشلالات.

هل هذا صحيح حقّاً، ويستطيع المرء أنْ يرى كثيراً من الجزر وما شابهها، تستلقي على شاطئ بليكنغه، ولا يوجد في العالم مثيل لهذه الحجرات التي يرميها العفريت.

ويستطيع المرء أيضاً أنْ يقول إنّ سمك السلمون هو دائماً ما يذهب إلى جداول بليكنغه ويشق طريقه من خلال الماء الراكد أو السريع في الطريق المؤدي إلى سمولاند.

يستحق هذا العفريت الشكر الجزيل وكثيراً من التقدير من شعب بليكنغه؛ لأنه جلب لهم سمك السلمون إلى الجداول، وقطع الصخور في الجزر، وهذا العمل يعطينا الغذاء وغير ذلك الكثير حتى يومنا هذا.

الفصل الثامن
على نهر رونابي

الجمعة، الأول منْ نيسان/أبريل.

لمْ يفكّر الإوز البرّي ولا الثعلب الماكر، أنّ أحدهما يجري نحو الآخر بعد مغادرة «سكونه». لكن كما اتضح أنّ الإوز البرّي اتّخذ مساراً عبْر بليكنغه، ومنْ هناك أيضاً ذهب الثعلب الماكر.

وقد فضّل الذئب حتى الآن البقاء في الأقسام الشمالية من المحافظة؛ ومنذ الآن أيضاً فإنّه لم يكن بمقدوره أنْ يرى متنزهات القلعة، أو أراضي صيد مليئة بالألعاب، أو غزالاً صغيراً لذيذاً، وكان أكثر نقمة مما كان يقوله.

في أحد المساءات، وبينما الثعلب الماكر يراوغ في غابة ضاحية مهجورة لمدينة ميلانبيغدين، ليست بعيدة عن نهر رونابي، فقد شاهد سرباً من طيور الإوز محلّقاً في الهواء. وعلى الفور، راقب إحدى الإوزات البيضاء ومنْ ثم علم، بالطبع، مع منْ يجب أنْ يتعامل.

بدأ الثعلب الماكر فوراً باصطياد الإوز، وشعر بسعادة غامرة في الحصول على وجبة طعام شهية، وراح يفكر بتحويل رغبته إلى انتقام ضد كل الإذلال المكبوت الذي قام به الآخرون ضده. وقد شاهد أنّ الإوز قد حلّق نحو الشرق حتى وصلوا إلى نهر رونابي. ومنْ ثم غيّروا اتجاههم، واتبعوا مسار النهر منْ ناحية الجنوب. وقد فهم أنّهم ينوون البحث عن مكان عبْر ضفة النهر، وقد اعتقد أنه سيكون قادراً على الحصول على زوج منهم من دون عناء. لكن حين اكتشف الثعلب الماكر أخيراً المكان الذي يلتجئ إليه الإوز البرّي، لاحظ أنّهم يختارون مثل هذا المكان الآمن الذي لا يمكنه الوصول إليه.

لمْ يكنْ حوض رونابي نهراً كبيراً أو مهمّاً؛ ورغم ذلك، جرى الحديث عنه كثيراً، بسبب ضفافه الجميلة. في جملة مآخذ أرغمت مجراه للأمام بين سفوح انحدار الجبل التي تقف مستقيمة خارج الماء، والتي قد نمت كليّاً على ضفافه وبإفراط شجيرة الجدي وشجرة طائر الكرز، ومخلّفات الجبل، وصفصاف السلال، وليس هناك الكثير يمكن أنْ يكون ممتعاً أكثر منْ مجرى صغير داكن في يوم صيف ممتع، والتطلّع نحو الأعلى إلى كل الخضرة الناعمة التي تربط نفسها بسفوح الجبل الوعرة.

لكنّ الآن، حين جاء الإوز البرّي والذئب إلى النهر، كان الجو بارداً، في فصل الشتاء – كان الربيع قارساً؛ فضلاً عن ذلك كانت جميع الأشجار جرداء، وكان من المحتمل أن لا أحد يفكر على الأقل فيما إذا كان الساحل قبيحاً أو جميلاً. واغتنم الإوز فرصتهم المناسبة تلك التي وجدوها رحلة رمال واسعة لهم إلى حدّ جعلهم يقفون فوقها، وعلى منحدر سفح الجبل. قبل أنْ ينطلقوا باتجاه النهر، الذي كان قويّاً وعنيفاً في موسم ذوبان الجليد؛ وكان من المستحيل عليهم صعود صخور سفح الجبل، كما تحيطهم فروع أشجار متدلية. لمْ يكنْ في اليد حيلة مما همْ فيه.

فجأة رقد الإوز؛ لكنّ الصبي لمْ يغمض عينيه. حالما اختفت الشمس، استحوذ عليه الخوف من الظلام، وإرهاب البرّية، وشرع يتوق للعودة إلى حالته الإنسانية الطبيعية. لكن، أين يضْطجع؟! طوى نفسه تحت جناح الإوز، ولم يعدْ بإمكانه رؤية أيّ شيء، وسمع فقط قليلاً؛ وقد فكر إنْ كان هناك أيّ أذى قد يصيب ذكر الإوز، الذي ربما لا يتمكّن منْ إنقاذهم.

سمع ضوضاء وحفيفاً منْ جميع الاتجاهات، وراح يشعر بقلق متزايد وعليه أنْ يزْحف منْ تحت جناح الإوزة ويضطجع على الأرض، إلى جانب الإوز الأخر.

وقف الثعلب الماكر يتطلع طويلاً إلى قمة الجبل وراح ينظر نحو الأسفل حيث الإوز البرّي. قال: «يجب أنْ تقوم بهذه المطاردة إلى نهايتها، ولكنك لنْ تستطيع تسلّق مثل انحدار الجبل هذا، ولا تستطيع العوم في مثل هذا السيل العارم؛ ولا يوجد أيّ منفذ صغير نحو منحدر الجبل الذي يؤدي إلى مكان للنوم. وذلك الإوز هو إوز حكيم بالنسبة إليك. ولا تزعج نفسك في اصطياد أيّ منهم!».

لكن الثعلب الماكر هذا، مثل جميع الذئاب، يجد من الصعوبة بمكان التخلي والتعهّد بعدم تكرار ما قد حدث حالياً، وهكذا اضطجع على بقعة متطرّفة منْ على حافة الجبل. ولْم يغْمضْ عينيه عن الإوز البرّي أبداً. وبينما هو مضطجع ويراقب الإوز، فكر بجميع الأذى الذي سببوه له. نعم، إنّها غلطتهم التي نفي بسببها من «سكونه»، وإنه كان مضطراً للانتقال إلى بليكنغه الفقيرة الخربة. وفكر بلعبة، وبينما هو مستلق هناك، تمنى لو أنّ الإوز قد مات. أو حتى تمنى على نفسه ألا يكون مقتنعاً في أكل الإوز البرّي.

حين وصل سأم الثعلب الماكر إلى ذروته، سمع صريراً على شجرة صنوبر كبيرة قريبة منه، وشاهد سنجاباً يهبط منْ أعلى شجرة ويصْدر صرير حادّ منْ حيوان الدلق. وكلاهما لمْ ينتبها

للثعلب الماكر؛ وقد جلس بهدوء وراح يراقب الطريدة، التي تنتقل منْ شجرة إلى شجرة. نظر إلى السنجاب الذي يتنقل بين الأغصان بخفة كما لو أنه يريد أن يطير. ونظر إلى حيوان الدلق[1]، الذي لم يكنْ ماهراً في التسلّق كما هو الحال لدى السنجاب، ولكنه بقي يجري إلى الأعلى منْ خلال الأغصان بأمان كما لو أنه يعوم في الغابة. وفكر الثعلب الماكر: «لو كنت أستطيع التسلّق فقط نصف ما يتسلق!».

وأضاف: «إنّ تلك المخلوقات لنْ تنام بسلام طويلاً!».

حالما أمسك الثعلب الماكر بالسنجاب، ووصلت المطاردة إلى نهايتها، مشى الثعلب باتجاهه، لكنه توقف على مسافة خطوتين عن الإمساك به، ويبدو أنه لا يرغب بخداع ضحيته. لذا، حيّا حيوان الدلق بطريقة ودودة جداً، وتمنى له حظّاً سعيداً بمناسبة الإمساك به. واختار الثعلب الماكر كلماته جيداً – كما تفعل الذئاب دائماً. وكان حيوان الدلّق على العكس من ذلك، يمتاز بطوله ورشاقته ورأسه الجميل، وجلده الناعم، ورقبته الرمادية اللمّاعة، ويبدو كما لو أنه أعجوبة الجمال، ولكنْ في الواقع إنّ هذا لا شيء أمام ساكن الغابة الخام.

قال الذئب: «إنك تدهشني مثل ذلك الصياد الرائع، كما ينبغي أنْ تقتنع بمطاردتي للسناجب حيث هي أفضل لعبة في متناول اليد». هنا توقف الذئب؛ حين ابتسم حيوان الدلق ابتسامة عريضة وقحة بوجهه. قائلاً: «كان من المستحيل عليك ألا ترى الإوز البري الذي يقف تحت سفح الجبل أو إنك لست متسلّقاً جيداً بما فيه الكفاية كي تهبط إليهم».

في هذه المرة ليس لديه الوقت الكافي للانتظار كي يجيب. واندفع حيوان الدلق إليه بظهره المنحني، وكل شعرة منْ شعر رأسه مفترقة عن بقيته. وراح يهس ورد عليه: «هل رأيت الإوز البري؟ أين هم؟ أخبرني بسرعة، أو إنني سأعض رقبتك، وينبغي عليك أن تتذكر أنني ضعف جسمك، لذا عليك أن تكون مهذباً بعض الشيء. أنا لمْ أسألْ وأفضل منْ أنْ أريك الإوز البريّ».

في اللحظة القادمة كان حيوان الدلّق في طريقه إلى المنحدر الجبلي؛ بينما الثعلب الماكر كان جالساً وهو يراقب، ويفكر، كيف يستطيع أنْ يؤرجح جسم الدلق الذي يشبه جسد الأفعى ويرميه منْ غصن إلى غصن: «إنّ صياد الشجر الجميل يملك قلباً قاسياً قلّ مثيله في الغابة أجمع. وأنا أعتقد أنّ الإوز البري عليهم أنْ يشكروني ليقظتي الدموية».

لكن بينما كان الثعلب الماكر ينتظر أنْ يسمع سكرات الموت، رأى حيوان الدلق يترنّح من

غصن إلى غصن، وسقط في النهر وراح الماء ينتثر عالياً. وبعد ذلك سقط حالاً في النهر. راحت يداه الأمامية تضربان عالياً وبقوة، ما جعل جميع الإوز ينهض ويطير بسرعة.

ينوي الثعلب الماكر أنْ يسرع خلف الإوز، لكنه كان فضولياً جداً لمعرفة كيف تخلص الإوز مما جعله يجلس هناك منتظراً حيوان الدلق متسلقاً. كان الوحش المسكين منقّعاً في الطين، ويتوقف بين الحين والآخر ليمسح رأسه بمخالبه الأربعة. ثم قال الثعلب الماكر باحتقار: «والآن لم يكن ذلك فقط ما قد خطط له – ذلك لأنك أبله، وينبغي أنْ تذهب مترنّحاً في النهر؟».

قال حيوان الدلق: «أنا فعلاً لست أبلهَ، وينبغي ألا تحتقرني. فقد جلست – حالياً – على أحد أوطأ الأغصان مفكراً كيف يجب أنْ أتدبر تمزيق الكثير من الإوز قطعاً قطعاً، حين يقفز مخلوق صغير، ليس أكبر منْ سنجاب، ويرميني بحجر على رأسي بهذه القوة التي أسقطتني في الماء؛ قبل أنْ يكون لدي وقت أن أرفع نفسي».

لا يريد حيوان الدلق أنْ يقول شيئاً أكثر. فليس هناك منْ يصغي إليه. ولدى الثعلب الماكر طريق طويل ليتعقّب الإوز البرّي.

في هذا الوقت طارت أكّا إلى جهة الجنوب بحثاً عنْ مكان جديد للنوم. فما زال هناك قليل من ضوء النهار؛ إلى جانب ذلك إنّ نصف القمر ما زال معلّقاً في السماء، لذا فبإمكانها أنْ ترى بعض الأشياء. ومنْ حسن الحظ أنّها مطّلعة على هذه الأقسام، لأنه حدث أكثر منْ مرة أن عاصفة قد هبت على بليكنغه حين سافروا عبْر نهر البلطيق في موسم الربيع.

تابعت النهر طالما أنّها تستطيع رؤية التواء مشهد ضوء القمر، مثل أفعى سوداء مضيئة. بهذه الطريقة هبطت إلى يوبافورس، حين يكون النهر في أولى احتجاباته في قناة تحت الأرض وبعد ذلك يكون واضحاً وشفافاً، كما لو أنه مصنوع منْ زجاج، يندفع نحو الأسفل في شقّ ضيق، ويتكسّر إلى كسرات صغيرة نحو القاع على شكل قطرات متلألئة ورغوة متطايرة. وأسفل الشلالات البيضاء تستلقي حجيرات صغيرة، بينما المياه تندفع بطريقها إلى سيل شلال عاصف. وهنا هبطت الأم أكّا. «هذا مكان آخر جيد للنوم وخاصة نحن في آخر المساء، وليس هناك إنسان يتجول فيه». ومع غروب الشمس فإنّ من النادر أنْ يكون الإوز قادراً على النزول إلى هناك، قرب يوبادال فإنّه لا يستلقي على أيّة أرض برّية. وعلى أحد جوانب الشلال يقع معمل للورق؛ ومن الجانب الآخر، يكون ذا انحدار وتنمو عليه الأشجار،

متنزه يوبادال، حيث يتنزه الناس دائماً حول منحدره وحمامات تزحلق للتمتع في حركة اندفاع الجدول نزولاً إلى الوادي.

كان هذا المكان شبيهاً بالمكان السابق، وليس هناك من المسافرين منْ يدرك على الأقل أنهم قد جاؤوا إلى مكان جميل ومعروف جيداً. وقد اعتقدوا إلى حدّ ما أنه مروع وخطير في النوم والوقوف في مكان منزلق. فضلاً عن صخور رطبة، في وسط مسْقط شلال من الماء، لكنْ يجب عليهم أن يقتنعوا، إنْ كانوا في حماية منْ حيوانات آكلة اللحوم.

غط الإوز في نومه حالاً، بينما الصبي لم يجد له مكاناً مريحاً للنوم، لكنه جلس إلى جانبهم، فربما هو يراقب ذكر الإوز.

بعد فترة، جاء راكضاً عبْر ساحل النهر. وتلصص على الإوز حالاً حيث وقف خارج رغوة ماء، وأدرك أنه لم يستطع الوصول إليهم أيضاً. وما زال يشحذ تفكيره في التخلي عنهم، لكنه جلس على الشاطئ وراح يحدّق بهم. وشعر بتواضع شديد، وفكر أنّ كل سمعته كصياد رهن الخطر.

وفجأة، رأى كلب الماء قادماً يزحف من الشلالات حاملاً بين فكّيه سمكة. اقترب منه الثعلب الماكر، لكنه توقف بعد خطوتين، ليظهر أنه غير راغب في أخذ لعبته منه.

قال الثعلب الماكر: «إنك حيوان رائع. منْ يستطع احتواءك وبين فكيك سمكة، وفي الوقت ذاته تغطي الإوز الصخور!». وكان متلهفاً جداً، بحيث لم يستطع أنْ يأخذ وقتاً ليختار كلماته بعنايته العادية. لم يلتفت كلب الماء حالاً باتجاه النهر. كان متشرداً – مثل جميع كلاب الماء – وقد اصطاد السمك مرات عديدة في بحيرة فومب وربما تعرّف على الثعلب: «أنا أعرف جيداً كيف تتصرف حين تجد وسيلة إقناع سمك السلمون». قال هو: «أوه! هذا أنت، يا غرايب؟» قال الثعلب وكان في منتهى السعادة؛ ولأنه قد عرف بشكل خاص أنّ هذا الكلب كان سباحاً ماهراً وسريعاً. «إنني لا أندهش أنك لا تعير أهمية للنظر إلى الإوز البري، لأنك لم تستطع أنْ تتدبر الوصول إليهم». ولكن الكلب، كان يملك شبكات سباحة وأصابع قدمين وذيلاً صلباً يعد بمثابة مجذاف، فضلاً عن جلد مقاوم للماء. ولا يرغب أن يقال عنه إنه شلال ماء، ولا يستطيع إتقانه. استدار نحو الجدول؛ حالما لمح الإوز البرّي، ورمى السمكة جانباً، واندفع نحو منحدر الشاطئ ودخل أعماق النهر.

إذا كان فصل الربيع قد تأخر، فإنّ طيور العنادل في يوبافورس راحت تغرّد في أعشاشها،

وستبقى تغرّد عدة مرات في اليوم في صراع سريع مع المعاناة. أما كلب الماء فقد عاد تدفعه الأمواج عدة مرات، محمولاً عليها؛ لكنه فكر بطريقته بتوازن مرة ثانية. وعام نحو الأمام على الماء الساكن؛ وتدحرج على الحجر، واقترب تدريجيّاً من الإوز البرّي. كانت رحلة محفوفة بالمخاطر؛ وربما له الحق في الغناء إلى جانب العنادل.

واتبع الثعلب كلب الماء بعينين مفتوحتين قدر ما يستطيع. وشاهد أنّ كلب الماء هذا قد أخذ بالتسلق باتجاه الإوز البرّي. وصرخ بعد ذلك صرخة حادة ومسعورة. لكنه تراجع نحو الخلف إلى الماء، واندفع كما لو أنه فرخ دجاج، وبعد لحظة، سمع طقطقة عظيمة لأجنحة الإوز. وارتفع ثم طار عالياً ليجد مكاناً آخر للنوم.

عاد كلب الماء حالاً إلى شاطئ النهر. لكنه شرع يلعق أحد مخالبه الأربعة. وحين راح الثعلب ينْخر بوجهه لأنه لم ينجح، انفجر قائلاً: «إنها لم تكن غلطتي في السباحة، أيها الذئب. إنني تسابقت في كل الطريق مع الإوز وكنت على وشك أنْ أتسلق حين جاء مخلوق صغير يجري، ووخزني في قدمي بشيء حاد. كان الألم شديداً، إلى حد أنني فقدت توازني، وبعد ذلك حملني تيار الماء».

لا يريد أنْ يقول أكثر. وكان الثعلب بعيداً في طريقه إلى الإوز البرّي.

ومرة أخرى كان على أكّا وسربها أن يقوموا بطيران ليلي. لكنْ منْ سوء الحظ، أن القمر كان قد توارى نحو مغيبه؛ ومن خلال ضوئه، نجحت في إيجاد مكان آخر للنوم منْ تلك الأمكنة التي تعرفها لدى أولئك الجيران. ومرة أخرى تابعت لمعان النهر باتجاه الجنوب. وعبر مالك القصر فوق سطوح رونابي المظلمة والشلالات البيض فقد استمرت إلى الأمام من دون نزول. ولكن قريباً منْ جنوب المدينة وليس بعيداً عن البحر، يقع مصح الربيع الصغير لمدينة رونابي، ومسبح قصر الربيع، وفندقه الكبير وأكواخه الصيفية لضيوف الربيع. تقف كل هذه الأشياء شاغرة ومقْفرة في فصل الشتاء – وتعرفها الطيور تماماً، وكثير من مجموعاتها التي تبحث عن مأوى في البنايات المهجورة، مثل الدرابزينات والبالكونات خلال وقت العواصف الحادة.

وهنا حطت الإوزات البيضاء على الشرفة، كما هو معتاد، فإنّها سرعان ما تنام. أمّا الصبي فعلى العكس منْ ذلك، لا يستطيع النوم لأنه لا يهتم أنْ يزحف تحت جناح ذكر الإوز.

وبمواجهة الشرفة جهة الجنوب، فإنّ الصبي يستطيع أنْ يتطلع عبْر البحر. ولأنه لم يستطع

النوم، راح يشاهد المشهد الجميل لالتقاء البحر بالأرض، هنا في بليكنغه.

وهكذا، يلتقي البحر والأرض بطرق كثيرة ومختلفة. وفي بعض الأماكن تهبط الأرض باتجاه البحر منبسطة، والمروج معنْقدة، وبالتقاء مع اليابسة يصاحبهما طيران الرمال، التي تتراكم على شكل أكوام وانجرافات. وتبدو كما لو أنّ كليهما لا يحب الآخر كثيراً إلى حد أنهما يرغبان في عرض أفقر الأشياء التي في حوزتهما. لكن من الممكن أن يحدث أيضاً حين تتقدم اليابسة باتجاه البحر أنْ تبني تلالاً من الرمال أمامها. كما لو أنّ البحر هو شيء خطير. حين تفعل الأرض ذلك، يأتي البحر إليها بغضب ناري، ويدق ثم يزأر ويجلد مرة أخرى الصخور، ويبدو كما لو أنه يريد تمزيق تلال الأرض قطعاً.

لكن في بليكنغه فإنّ الأمر يختلف حين يلتقي البحر واليابسة معاً. فإنّ الأرض تكسّر نفسها إلى نقاط وجزر وواحات؛ ويقسم البحر نفسه إلى مضيقات وخلجان وأصوات؛ وربما يعمل هذا كي يظهر كما لو أنهما يجب أن يلتقيا بسعادة وانسجام.

فكر الآن وفي المقام الأول في البحر! بعيداً عن وقوع خراب وفراغ كبير، ولا شيء يمكنه القيام به، ولكن فقط يدحرج عبابه الرمادية. ويمزّق كل شيء أخضر، ويجعله رماديّاً كما هو. ومنْ ثم لا يزال يلتقي مع واحات أخرى؛ وهكذا يتعامل بالطريقة ذاتها. ولكن لا يزال شيئاً آخر، نعم، الشيء ذاته يحدث لهذا أيضاً.

ومنْ ثم التفكير في منحدرات التلال! التي تبدو موحّدة ومتشابهة تماماً في كل مكان في الغالب. وتتألف من حقول خضراء منبسطة، وبين حقل وآخر هناك بستان البتولا، أو امتداد طويل لمجموعة غابات. وتبدو كما لو أنها قد فكرت بلا شيء باستثناء الحبوب ونبات اللفت والبطاطا وأشجار الصنوبر والتنّوب. ثم يأتي على طول مضيق بحري كي يقطّعها بعيداً عنها. وهذا لا يهم، لكنْ يحاذيها شجر الماء والبتولا، تماماً كما لو أنها بحيرة ماء عذب عادية. ومنْ ثم ما زالت تأتي موجة أخرى مندفعة، ولا يزعج منحدر التل أنْ يرتد إلى هذا، ولكنه أيضاً يحصل الغطس نفسه كما هو في أول مرة. ومن ثم يبدأ الممر البحري بالتوسع والانفصال؛ وتنفصل الحقول والغابات، ومن ثم فإن منحدر التل لا يستطيع القيام بالمساعدة ما عدا مراقبتهم. ويقول هيلسيد: «أنا أعتقد أنّ البحر نفسه هو الذي سيأتي. ومنْ ثم شرع بتقديس نفسه. ومن ثم يسافر الإكليل والأزهار إلى أعلى منحدر التل ثم إلى أسفله. ومن ثم يرمون الجزر بالبحر. وليس هناك عناية أكثر للصنوبر وشجر اللفت، ثم يرمونهم مثل ملابس عتيقة، وأخيراً تستعرض مع أشجار البلوط والكستناء وأشجار الزيزفون، ومع قوى ازدهار

الأزهار، ويتحول إلى شيء رائع الجمال كما هو قصر مالك الحقل. وحين تلتقي مع البحر تتغير كثيراً حتى لا تعرف نفسها.

كل هذا لا يمكن رؤيته جيداً إلى أنْ يأتي موسم الصيف؛ ولكن، على أي حال، لاحظ الصبي كم هي معتدلة ولطيفة كانت الطبيعة، وأخذ يشعر بهدوء أكثر مما قد تركها الليلة السابقة. ومن ثم، فجأة سمع عواء حادّاً وقبيحاً من حديقة مسبح القصر؛ وحين نهض شاهد، من خلال ضوء القمر، الثعلب واقفاً على الرصيف تحت الشرفة. لأنه كان يتابع الإوز البري مرة أخرى. لكنه حين وجد المكان حيث كانوا يأوون، وقد فهم أنه من المستحيل أن ينال منهم بأية طريقة؛ لهذا فإنه سيبقى يحافظ على العواء بغم.

حين عوى الثعلب بتلك الطريقة، كانت قائدة الإوز الكبيرة أكّا قد استيقظت منْ نومها. ورغم أنها لن ترى شيئاً، اعتقدت أنها قد شخّصت الصوت. فقالت: «إنك أنت الذي قد خرجت هذه الليلة، أيها الثعلب الماكر؟». قال: «إنني أنا، وأريد أنْ أسأل ماذا تفكرون أنتم معاشر الإوز في الليل الذي جلبته لكم؟».

قالت أكّا: «هل تعني أنك تريد أنْ تقول إنك أنت الذي أرسلت حيوان الدلق وكلب الماء ضدنا؟». ورد عليها الثعلب: «ذات مرة لعبت معي لعبة الإوز، والآن جاء دوري لألعب معك لعبة الثعلب، فأنا لا أميل أن أتوقف عنها طويلاً كلعبة منفردة معك لأتركك حية ترزقين، حتى لو لحقت بك إلى آخر العالم!».

قالت أكّا: «أنت أيها الثعلب، ينبغي على الأقل أنْ تفكر إنْ كنت مصيباً في تصرفك هذا، لسبب واحد أنك تملك سلاح الأسنان والمخالب التي تطاردنا بها؛ لأننا لا نملك السلاح للدفاع عن أنفسنا».

فكر الثعلب أنّ أكّا تبدو خائفة، ما جعله يقول فوراً: «أنت، يا أكّا، إذا كنت تحمين ثمبيتوت الذي كان يعارضني دائماً، ارمه لي، وأنا أقسم أنني سأعقد علاقة صداقة معك. ولن أتعقبك أبداً أو أي من إوزك». قالت أكّا: «إنني لنْ أسلمك ثمبيتوت، ومن أصغرنا إلى أكبرنا سنقدم من أعماقنا حياتنا من أجله». قال الثعلب: «منذ أنْ كنت مغرمة به، إنني أقسمت لك إنه سيكون الأول من بينكم الذي سأنتقم منه».

لم تعلّق أكّا على كلامه هذا، وبعد أن أطلق الثعلب الماكر عواء أكثر، صمت كل شيء. وبقي الصبي مستيقظاً جزءاً من الليل، والآن جاءت كلمات أكّا الموجهة إلى الثعلب التي منعته من

النوم. ولم يحلم أنه سيسمع أيّ شيء ذات شأن، كما كان المرء يرغب أن يخاطر في حياته من أجله. ومن تلك اللحظة، لم يعد هناك ما يقال على نيلز هالغيرسون ولم يعد أيضاً يعير اهتماماً لأيّ شخص مهما كان.

- حيوان الدلق: حيوان من فصيلة السراعيب أكبر من ابن عرس، يقرب من السنور الأهلي في الحجم وهو قريب جداً من السمور لكن السمور أشد كتمة منه. موطنه أوروبا والأناضول والشام والعراق وهو أحمر اللون أبيض الحلق والزور والصدر واسمه الشائع في العراق والأناضول سنسار. المترجم

الفصل التاسع
كارلسكرونا

السبت، الثالث منْ نيسان/أبريل.

كان ضوء القمر يلْقي بظلاله مساء في كارلسكرونا – هادئاً وجميلاً. لكنْ كان ثمة مطر ورياح مبكرين في بداية النهار؛ ولا بد أنْ يفكر الناس أنّ الجو الرديء ما زال مستمرّاً، ومن الصعوبة بمكان أنْ يغامر أحدهم في الخروج إلى الشوارع.

بينما المدينة ترقد هناك مهجورة، جاءت أكّا قائد الإوز البرّي وسربها، محلّقين باتجاهها عبر مدينة فيمون وبانتاهولمين وليس بوسعهم البقاء داخل المدينة. كانوا في الخارج في آخر المساء بحثاً عن مكان لهم للنوم في الجزر. لم يكن بإمكانهم البقاء في داخل المدينة لأنهم كانوا منزعجين من الثعلب الماكر مهما كانت الإنارة فيها.

بينما كان الصبي راكباً جنْح الإوزة عالياً في السماء، وينظر إلى البحر والجزر التي تمتد أمامه، فكر أنّ كل شيء يظهر غريباً جدّاً ومرعباً. لم تعد السماء زرقاء، لكن غلّفته مثل مصباح داخل زجاج أخضر. كان البحر هو الآخر أبيض حليبيّاً، وبقدر ما يستطيع أنْ يرى موجات بيض صغيرة تتدحرج وتميل بتموجاتها، وبين كلّ هذا البياض كان يقع عدد قليل من الجزر الصغيرة هناك، مثل فحم أسود. ومهما كانت كبيرة أو صغيرة، ومهما كانت حتى مثل المروج، أو مليئة بالكهوف، فإنّها تبدو تماماً مثل السواد. حتى البيوت التي يسكنها الناس والكنائس وطواحين الهواء، كانت في زمن آخر بيضاء أو حمراء، كانت الآن محمّلة بالسواد تحت سماء خضراء. اعتقد الصبي كما لو أنّ الأرض هي التي قد تحوّلت، وقد جاء إلى عالم آخر.

وتمنّى أنْ يكون شجاعاً لليلة واحدة فحسب، وأنْ يبعد الخوف عنه، حين رأى في هذه اللحظة شيئاً كان قد أخافه حقّاً. كان جرف جزيرة عال، مغطّى بكتل كونكريتية ذات زوايا؛ وبين هذه الكتل ثمة بقع لامعة ومشرقة، وذهب مضيء، ولا يمكنه الابتعاد عن التفكير بماغلستون، المجاورة ل «ترول يونغبي»، التي تظهر فيها بعض الأحيان أقزام خرافية فوق سبائك عالية من الذهب؛ واندهش فيما إذا كان شيئاً ما لم يكنْ من الصنف نفسه.

كان يمكن أنْ يكون شيئاً نافعاً تماماً أو نوعاً منْ أنواع الصخور والذهب إذا لم يكن هناك

الكثير من المخلوقات الشيطانية حول الجزيرة كلّها. إنهم يشبهون الحيتان وأسماك القرش ووحوش البحر الكبيرة الأخرى. لكن الصبي عرف أنهم كانوا صيادي – بحر، قد اجتمعوا حول الجزيرة وينوون الزحف إليها كي يحاربوا مع صيادي البحر الذين يعيشون هناك. كان من المحتمل أن يشعر أولئك الذين على اليابسة بالخوف، لأنه رأى عملاقاً كبيراً جداً واقفاً على أعلى قمة للجزيرة ورافعاً يديه كما لو أنه في حالة من سوء حظ تواجهه أو تواجه جزيرته.

لم يكن خوف الصبي قليلاً حين لاحظ أنّ أكّا شرعت بالهبوط إلى تلك المدينة مباشرة! ولهث «لا، يا للشفقة! يجب علينا ألا نحطّ هنا في هذا المكان».

لكن الإوز استمر بالهبوط ما أثار دهشة الصبي أنه ربما قد رأى أشياء منحرفة ثم راح يحلل. في المقام الأول، إنّ كتل الصخور الكبيرة هي لا شيء، لكنها بيوت. فالمدينة كلّها هي عبارة عن جزيرة؛ أما بقع الذهب اللماع فهو مصابيح الشارع وألواح الشبابيك المضيئة. أما العملاق الذي يبدو واقفاً أعلى نقطة من الجزيرة وذراعاه مرفوعتان فهي الكنيسة ببرجيها الاثنين المتقاطعين؛ إلى جانب ذلك هنا صيادو البحر والوحوش، التي ربما قد شاهدها. وكانت هنا أيضاً زوارق وسفن ومواصفات أخرى كانت ترقد على المرساة حول كل الجزيرة. وعلى الجانب البري كان هناك جذّافو زوارق، وزوارق بحرية، وبواخر ساحلية صغيرة. لكن على الجانب الذي يواجه البحر ترسو سفن حربية مدرعة؛ بعضها عريض، وسميك، وأعمدة دخان مائلة؛ وأخرى كانت طويلة وضيقة، وهكذا بنيتْ بحيث تستطيع الانزلاق في الماء مثل الأسماك.

والآن، ماذا يمكن أنْ تكون هذه المدينة؟ تلك، التي استطاع الصبي أنْ يخمّنها لأنه رأى السفن البحرية كلّها. خاصة وأنه أحبّ السفن في كل حياته، رغم أنّه ليس له علاقة أو عمل باستثناء القوارب التي أبحر فيها في خنادق الطريق. ويعرف جيداً هذه المدينة، حيث يرسو على مينائها كثير من السفن البحرية، وهي هنا في مدينة كارلسكونا.

كان جدّ الصبي أحد بحارة المارين القدماء؛ وكان يتحدث إليه طيلة حياته، عن كارلسكونا تلك، وعن الحروب العظمى، وأشياء أخرى قد شاهدها في المدينة. شعر الصبي أنه في وطنه، وأنه مسرور جداً أنه يرى كل ما سمعه بالتفاصيل.

لكن عليه أنْ يلقي نظرة أولاً على الأبراج والحصون التي تحجز الميناء، وبنايات أخرى كثيرة، وساحة السفن حين حطّت أكّا على أحد أبراج كنيستها.

كان هذا مكاناً آمناً لأولئك الذي يريدون الهروب من الثعلب، وأخذت الصبي الدهشة إن كان لا يستطيع المغامرة ليتدحرج منْ تحت جنح ذكر الإوز لهذه الليلة فقط. نعم، ربما شعر بالأمان، وهذا يوفر له جوّاً لينام قليلاً. وسيحاول أنْ يرى الكثير من الأحواض والسفن في مطلع الفجر.

ويبدو من الغريب أنّ بإمكان الصبي البقاء والانتظار حتى الصباح ليرى السفن. وإنه بالتأكيد لم يستطع النوم لخمس دقائق لينزلق من تحت جنح ذكر الإوز ويتسلل إلى عمود الضوء ونافورة الماء على كل الطريق المؤدي إلى اليابسة.

وقف حالياً في ساحة كبيرة أمام الكنيسة. كانت تلك الساحة معبّدة بأحجار مستديرة، وكان من الصعوبة بمكان السير هناك، حيث يزدحم الناس للتنزه قرب أزهار المروج. وأولئك الذين اعتادوا العيش في الهواء الطلق بعيداً عن البلد الذي دائماً ما يبعث على عدم الشعور بالراحة حين يأتون إلى المدينة، حيث تنتصب البيوت مستقيمة وكالحة كما الشوارع مفتوحة، بحيث يستطيع المرء أن يرى من الذي يسير هناك. وقد حدث في الطريق ذاته مع الصبي. وقف وسط ساحة كارلسكونا وراح يتطلع إلى الكنيسة الألمانية، وبهو المدينة، والكاتدرائية، ومنها هبط، لأنه رغب في العودة إلى البرج مع الإوز.

إنّه لمنْ حسن الحظ أنْ تكون تلك الساحة مهجورة تماماً. وليس هناك أيّ مخلوق فيها – ما عدا تمثال لإنسان يمكن مشاهدته. حدّق الصبي طويلاً بالتمثال، الذي هو عبارة عن رجل ضخم رمادي اللون يرتدي قبعة ذات ثلاث زوايا، وصديرية طويلة نوعاً ما، وبنطالاً قصيراً، ويرتدي حذاء خشناً وبيده عصاً – وهو يحدّق بها كما لو أنه يعرف كيف يستخدمها، أيضاً، وتبدو ملامحه قاسية، وأنفه كبير معقوف وفمه قبيح ومرعب.

وأخيراً، صرخ الصبي: «ماذا تفعل هاتان الشفتان الطويلتان هنا؟». لم يشعر الصبي أنه ضئيل ومهم كما فعل الليلة الماضية. حاول أنْ يبعث في داخله قليلاً من الفرح كما يبعث في داخله الجرأة. ومنْ ثم لم يقل شيئاً عن التمثال، لكن أرغم نفسه على العودة إلى شارع عريض يؤدي إلى البحر.

لمْ يبتعد الصبي كثيراً حين سمع أحدهم يتْبعه. كان هناك من يسير خلفه، أقدامه الثقيلة تطْبع على رصيف منْ حجر، بيده عصا صلْبة تدق على الأرض. وبدا له كما لو أنّ قدميّ الرجل البرونزي المنتصب في الساحة قد شرعتا تدوسان على الأرض.

وأصغى الصبي إلى الخطوات بينما هو يجري في الشارع، وراح يقتنع أكثر فأكثر أنّ ذلك كان رجل البرونز، إذ راحت الأرض ترْتعد والبيت يخْتض بقوة قدميه. لم يكنْ هناك إنسان، ولكنه هو الذي كان يمشي بتثاقل. وراح الصبي يشعر بضربات مسعورة بينما هو يفكر ماذا قال له تماماً. ولم يتجرّأ على أنْ يدير رأسه ليكتشف أنّ ذلك كان هو حقّاً؟

فكر الصبي: «ربما أنا تعبْت من الركض. وبالتأكيد أنه لا يمكن أنْ يكون غاضباً من الكلمات التي نطقْت بها. ولم تكن أبداً تعني الإساءة».

وبدلاً منْ أنْ يذهب باستقامة، ويحاول الهبوط إلى حوض السفن، استدار الصبي إلى جانب الشارع الذي يؤدي إلى جهة الشرق. أراد أوّلاً وأخيراً الهروب من الرجل الذي يمشي خلفه.

لكنْ في اللحظة التالية، استدار الرجل البرونزي باتجاه الشارع نفسه؛ وهذا ما بعث الخوف داخل الصبي، لأنه لا يعرف بالضبط ما الذي يريد أنْ يفعله ذلك الرجل. وكان من الصعوبة بمكان أنْ يجد مكاناً خفيّاً في المدينة لأنّ كلّ البوابات مغلقة! لكنه استدار نحو جهة اليمين لمسافة قصيرة من الشارع. رأى كنيسة ذات أطر قديمة في وسط بستان واسع جدّاً. لم يتوانّ لحظة واحدة كي يعيد التفكير، حتى أسرع باتجاه الكنيسة. فكر الصبي: «إن استطعت الذهاب إلى هناك، فإني بالتأكيد سأجد الحماية وأنجو منْ كلّ أذى».

بينما هو يجري لمح رجلاً واقفاً على رصيف يؤشر إليه. فكر الصبي: «من المؤكد أنه يريد أنْ يمدّ يد العون لي!». أوه، كم شعر بالارتياح! ومن ثم راح يركض باتجاهه. كان في الواقع خائفاً جدّاً وقلبه يدق في ثنايا صدره.

لكن حين مشى نحو الرجل، الذي كان يقف على منعطف صخري على مستوى منخفض من قاعدة تمثال، كان مصدوماً: «بالتأكيد لا يمْكن أنْ يكون ذلك الرجل هو الذي أومأ إلي!». فكر، رأى أنه كان رجلاً مصنوعاً من خشب.

وقف الصبي هناك يحدّق فيه. كان رجلاً آليّاً وذا ساقين قصيرتين. وله ملامح بارزة تميل للحمرة، ولحية عريضة سوداء اللون متكاملة. يضع على رأسه قبعة قش؛ ويرتدي بنطالاً قصيراً يصل إلى ركبتيه وأسفلهما جوارب خشبية وفي قدميه فردتا حذاء خشبيتين؛ كما يرتدي معطفاً أسمر؛ ويتمنطق بحزام أسود حول خصره؛ ويبدو وسيم الملامح، وصُبغ حديثاً وبدا متلألئاً ولامعاً تحت أشعة ضوء القمر. ويبدو طيباً جدّاً إلى حدّ أن وضع الصبي ثقته العالية فيه.

يحمل في يده اليسرى لوحة، أخذ الصبي يقرأ:

بتواضع شديد ألتمسك،

رغم أنني أحتاج إلى توصيل صوت،

تعالَ وامنحني قطعة نقود صغيرة:

وسأرفع قبعتي احتراماً لك!

أوه! لكنّ ذلك الرجل كان عبارة عن صندوق صدقات فحسب، من ذلك النوع الذي يوضع قرب باب الكنيسة. شعر الصبي أنّه أصيب بالجنون. توقّع أن هذا كان شيئاً لافتاً للنظر. تذكر الآن أنّ جدّه لأبيه كان قد تكلم أيضاً عن الرجل الخشبي، وقال إنّ جميع الأطفال في مدينة كارلسكرونا مولعون به جداً. وذلك لا بدّ أنْ يكون حقيقة، لأنّه وجد أيضاً، أنّ من الصعوبة بمكان أنْ نفصل بين الحاضر والماضي عن الرجل الخشبي. لأنّه شيء مرتبط أصلاً بالزمن القديم، ويستطيع المرء أنْ يعيد تاريخ عمره إلى مئات السنين، وفي الوقت ذاته، يبدو قويّاً وجريئاً ومفعماً جداً – تماماً كما يتخيّل المرء أولئك الأقوام في الأزمنة الغابرة.

حدّق الصبي بمتعة في الرجل الخشبي، وقد نسي تماماً ذلك الشخص الذي استطاع الهرب منه. لكنه الآن قد سمعه وهو يستدير من الشارع إلى ساحة الكنيسة. وهكذا تبعه هنا أيضاً! إلى أين يمكن أنْ يذهب الصبي؟

تماماً بعد ذلك، شاهد الرجل الخشبي ينحني له ويمدّ له يده السمراء الكبيرة؛ كان من المستحيل التفكير بأيّ شيء باستثناء العمل الطيب له؛ وبقفزة واحدة، وقف الصبي في يده. ورفعه الرجل الخشبي إلى قبعته، وثبّته تحتها.

اختفى الصبي تماماً، ووضع الرجل الخشبي ذراعه للخلف في مكانها المناسب تماماً مرة ثانية، وحين وقف الرجل البرونزي أمامه راح يحرّك العصا على الأرض، وبهذا أخذ الرجل الخشبي يهتز منْ قاعدة تمثاله. قال الرجل البرونزي بصوت قوي رنّان: «منْ تكون أنت؟».

ارْتفعت ذراع الرجل الخشبي إلى الأعلى، وراحت تطقْطق في العمل الخشبي القديم، ولمس حافّة قبعته وهو يجيب: «أنا روزْندوم، يا صاحب الجلالة. كنت في قديم الزمان رئيس ملاحين ومحارباً شجاعاً؛ وبعد إكمال خدمتي تحوّلت إلى خادم في كنيسة الأدميرال – وأخيراً، نحتّ إلى تمثال خشبي وتم عرضه في ساحة الكنيسة كصندوق للفقراء قرب باب

الكنيسة».

أعطى الصبي نقطة انطلاق حين سمع أنّ الرجل الخشبي يقول: «جلالتكم». ومن الآن، وكما فكر فيه، قد عرف أنّ التمثال في الساحة يمثّل الشخص الذي اكتشف المدينة. ومن المحتمل أنه ليس هناك أقلّ شأناً منْ جارلس الحادي عشر نفسه الذي قد واجهه.

قال الرجل البرونزي: «إنك قدّمت مواصفات جيدة عنْ نفسك، هل يمكنك أنْ تخبرني أيضاً إنْ كنت قد شاهدت طفلاً صغيراً كان يجري حول المدينة هذه الليلة؟ إنّه وغد وقح وإن استطعت الإمساك به سأعلّمه الأخلاق!» وبهذا انحنى نحو الأرض مرة ثانية وهو يمسك بعصاه، وبدا مخيفاً وغاضباً.

قال الرجل الخشبي: «يا صاحب الجلالة، لقد رأيته». وكان الصبي خائفاً جداً إلى حد أنه شرع يرتجف وهو يجلس تحت القبعة وينظر إلى الرجل البرونزي الذي راح يطقطق خشبه الآن. لكنه هدأ حين استمر الرجل الخشبي يقول: «جلالتكم إنكم في الطريق الخطأ. إذ إنّه أصغر شاب ينوي بالتأكيد أنْ يجري إلى مرسى السفن ليخفي نفسه هنالك».

«ولكنك لمْ تخبرني يا روزنبوم؟ هذا حسن، لا تقف على قاعدة التمثال أكثر من هذا، تعال معي وساعدني في البحث عنه، إذ إنّ أربع عيون أفضل منْ عينين اثنتين، يا روزنبوم».

لكنّ الرجل الخشبي أجاب بصوت حزين: «إنني ألتمس منك بكل تواضع أن تسمح لي بالبقاء في المكان الذي أنا فيه. فأنا أنظر جيداً من هنا ولديّ حساسية من رؤية الدهان، فضلاً عن ذلك فأنا شيخ كبير ولا أستطيع التنّقل كثيراً».

لكنّ الرجل البرونزي ليس منْ أولئك الذين يميلون للنكران. قال روزنبوم، وهو يتقدم إلى الأمام كثيراً: «أيّ نوع من الحركات تلك التي أراها؟» ومنْ ثم رفع عصاه ووجّه ضربة مدويّة على كتفه الخشبي. «هل تعتقد أنّ روزنبوم لا يرى ذلك الشخص الذي يحمله».

وبذلك انطلق الرجلان معاً كبيران وعظيمان – في شوارع كارلسكرونا – حتى وصلا البوابة العليا التي تؤدي إلى مرسى السفن في الخارج وإلى حيث يمشي أحد حراس البحرية، لكن الرجل البرونزي مشى مختالاً في مشيته متجاوزاً إيّاه، ثم فتح البوابة بركلة من دون أن يتظاهر أحد البحارة أنه قد لاحظه.

حالما دخلا ساحة السفن، شاهدا أمامهما ميناء عريضاً ومهّماً، تفصله مجموعة جسور. كما

توجد هناك أنواع السفن الحربية مستلقية في أحواض الميناء، والتي تبدو كبيرة، وتوحي بالرعب خاصة للصبي الذي يراها من الأعلى. قال الرجل الخشبي: «ليس من الغباء بعد كل ما تخيله الصبي أنهم ما يطلق عليهم أقزام البحر».

أجاب الرجل البرونزي: «ما يعتقده روزونبوم هو أكثر حكمة لنا كي نبدأ في البحث».

أجاب الرجل الخشبي: «إنّ رجلاً مثله بإمكانه أنْ يخفي نفسه بسهولة في قاعة الموديلات».

وهناك تقع بنايات قديمة على امتداد الميناء وعلى مساحة ضيقة من الأرض تمتد إلى الجهة اليمنى من البوابة.

خطا الرجل البرونزي إلى بناية ذات جدران واطئة، ونوافذ صغيرة، وسطح بارز. دقّ على الباب بعصاه حتى انفتح الباب منفجراً؛ ومنْ ثم ساروا بخطى متعبة إلى قاعة. دخلوا حالاً قاعة كبيرة كانت مليئة بحبال أشرعة وصوار لسفن صغيرة. وقد فهم الصبي من دون أنْ يخبره أحد أنّ تلك هي نماذج للسفن التي بنيت للبحرية السويدية. وهناك أنواع مختلفة، بعضها لرجال محاربين قدماء، إلى جانبها مدفع، وهياكل عالية من الأمام والخلف صواريها تهبط نحو الأسفل مع شبكة من الأشرعة والحبال، فضلاً عن زوارق صغيرة، ومقاعد للمجاذيف على مدى جوانب السفينة، كما توجد مدافع منصوبة على زوارق، وفرقاطات مذهّبة ثمينة جدّاً تعد نماذج لأولئك الملوك في ذلك الزمن تستعمل في سفرهم. وأخيراً، هناك سفن مصفحة بدروع ثقيلة وعريضة وأبراج ومدافع منصوبة على دكّة – تشبه ما نستخدمه اليوم من مدافع، وزوارق طوربيدية مشعّة تشبه أسماكاً نحيفة وطويلة.

بينما كان الصبي محمولاً أثناء التنقل حول كل ما ذكرناه أعلاه، ارتعد. وفكر وتخيل نفسه: «إنّ مثل هذه السفن الكبيرة المدهشة قد صنعت هنا في السويد!».

ولديه من الوقت الكثير ليرى المزيد من هذا المشهد. حين شاهد الرجل البرونزي النماذج، نسي كل شيء آخر، فقد فحصها أولها إلى آخرها. وسأل عنها. أخبره روزنبوم، رئيس الملاحين في سفينة Audacity بكل ما كان يعلمه من جديد عن بناء السفن وأولئك الذين صنعوها؛ وكذلك الأقدار التي واجهوها. أخبروه عن شابمان وبيوك وترول؛ لمدينتي هوغلاند وسفينسكوند – وكل الوسائل حتى العام 1809 – ومن ثم لم يكن هنالك بعد هذا التاريخ.

وأراد روزنبوم والرجل البرونزي أن يقول كلاهما ما لديهما عن جمال السفن الخشبية القديمة. ويبدو أيضاً أنّ كليهما لمْ يفهما تماماً عن السفن الحربية الجديدة.

قال الرجل البرونزي: «أنا أستطيع أنْ أقول إنّ روزنبوم لا يعرف قلامة ظفر عنْ هذه الأشياء الجديدة. لذلك، دعنا نذهب ونرَ شيئاً آخر، لأن ذلك يمتعني كثيراً، روزنبوم».

في هذا الوقت تخلّى الرجل الخشبي تماماً عن بحثه عن الصبي، الذي شعر بالهدوء والأمان حيث يجلس في كوخ خشبي.

عند ذلك تجوّل كلا الرجلين في مرافق المؤسسة الكبيرة مثل: محلات صناعة الأشرعة، وحدادة المراسي، ومحلات المكائن والنجارة، وكلاهما شاهد انحراف الصواري، وأحواض السفن؛ والمخازن الكبيرة، ومستودعات الأسلحة، وجسور الحبال، والتخلص من الأحواض، وخرجا بعد ذلك إلى مشاهدة، أوعية السفن الحربية الراسية، ثم صعدا إلى ظهر السفينة وفحصاها مثل كلبيْ بحر قديمين؛ اندهشا، لم يستحسنا، واستحسنا، ثم شعرا بالسخط.

جلس الصبي بأمان تحت قبعة القش، ثم سمع كل شيء عن ذلك، كيف يعملون بإجهاد ويكافحون في هذا المكان لتجهيز السفن البحرية التي قد تلاشت منْ هنا. وشعر كيف أنّ الحياة والدماء بقيت تخاطر بكل ذلك؛ وكيف أنفقتْ كل الأموال في المخاطرة في بناء تلك السفن الحربية؛ وكيف أن الرجال العباقرة قد جاهدوا بكل طاقاتهم كي يكملوا صناعة تلك السفن التي كانت تحت حماية أرض أجدادهم. ونزلت قطرتا دمع من عيني الصبي، حين شاهد كل ذلك.

وأخيراً، دخلا قاعة مفتوحة حيث يوجد بلاط؛ ومجموعة نماذج المحاربين القدماء، وثمة مشهد غريب لم يلمحه الصبي أبداً؛ ذلك أن هذه النماذج لها جوانب مزعجة بقوة، وكانت كبيرة، ولا تخاف، ومتوحشة، ومليئة بالروح المتكبرة ذاتها وتعمل على تجهيز السفن العظيمة. وكانت في زمن آخر أقدم من زمنه. وقد تخيل أنه واهن أمامها.

لكن حين جاءا إلى هنا، قال الرجل البرونزي للرجل الخشبي: «اخلع قبعتك، يا روزنبوم، إنّ أولئك الواقفين هنا! هم جميعاً حاربوا من أجل أرض أجدادهم».

لكن روزنبوم، كما هو الرجل البرونزي كانا قد نسيا لماذا بدآ ما هما فيه. ومن دون أن يفكر برفع القبعة الخشبية من أعلى رأسه صاح:

«إنني رفعت قبعتي للرجل الذي اختار الميناء ووجد حوض السفن واكتشف البحرية؛ رفعتها لوليّ العهد الذي قد أيقظ كل هذا في الحياة».

«جزيل شكري، يا روزنبوم! كان هذا كلاماً جميلاً. لأنّ روزنبوم رجل جميل. ولكن ما هذا، يا روزنبوم؟».

كان نيلز هيلغرسون هناك ينتظر، تماماً على قمة صلعة روزنبوم. ولم يعد يخاف أبداً ولكن رفع قبعته وتزحلق، ثم هتف، هورا لك!؟؟

وضرب الرجل البرونزي الأرض بقسوة بعصاه؛ لكن الصبي لم يدرك ما الذي ينوي فعله، في هذه اللحظة، بدأت الشمس تهبط راكضة الآن، اختفى الرجل البرونزي والرجل الخشبي مباشرة – كما لو أنهما صنعا ضباباً حولهما. وبينما هو واقف يحدق خلفهما، طار الإوز البري في أعلى برج الكنيسة، واستداروا مشكلين دائرة خلف المدينة وفوقها. وبلمح البصر لمحوا نيلز؛ فاندفع الإوز الأبيض نحو الأسفل منحدراً من السماء جالباً إيّاه.

الفصل العاشر
رحْلة إلى موقع أولاند

الأحد، الثالث منْ نيسان/ أبريل.

خرج الإوز البرّي إلى الجزيرة المشجّرة بحثاً عن الطعام. وهناك حدث لهم أن التقوا بعدد من الإوز الرمادي الذين اندهشوا لرؤيتهم، لأنّهم عرفوا جيداً أنّ أقاربهم، الإوز البري، عادة ما يسافرون إلى داخل البلد.

كانوا فضوليين ومتطفلين، ولنْ يقتنعوا بأقلّ منْ أنْ يخبرهم الإوز البري كل شيء عن المطاردة التي يجب أنْ يكتسبوها عن الثعلب الماكر. وحينما انتهوا، وظهرت الإوزة الرمادية، التي بدت كبيرة في العمر وحكيمة كما هي الإوزة أكّا نفسها، قالت: «كان من سوء حظكم العظيم أنّ الثعلب الماكر قد صرح أنه خارج القانون في أرضه. وإنه متأكد أنه سيحافظ على كلمته هذه، وسيبقى يتّبعكم في كل الطريق المؤدي إلى لابلاند، فلو كنت مكانكم، فإنني لنْ أسافر شمالاً عبر سمولاند، وسأتخذ المسار الخارجي بدلاً منْ أولاند، وسألتقيه هناك على قارعة الطريق تماماً، وستفقدونه حقاً، وينبغي عليكم أن تمكثوا عدة أيام على الطريق الجنوبي لأولاند. وهناك ستجدون المزيد من الطعام والمزيد من الصداقة، ولا أعتقد أنكم ستندمون، إنْ سرتم عبْر ذلك الطريق».

كانت تلك النصيحة بالتأكيد هي نصيحة معقولة، وقد خلص الإوز البريّ للأخذ بها. وحالما تناولوا جميع ما لديهم منْ طعام، بدؤوا بالسفر إلى أولاند. لم يكن أيّ أحد منهم قد سافر إلى هناك، لكن الإوزة الرمادية قد زودتهم بالتوجيهات الدقيقة. وعليهم أن يسافروا مباشرة إلى جهة الجنوب إلى أن يصلوا إلى مسار الطيور الكبير، الذي يمتد على طول ساحل بلكينغه، ويجدوا جميع الطيور التي تمتلك أعشاشاً في موسم الشتاء على الساحل الغربي والتي هي قد حلّقت نحو الأمام في طريقهم إلى فنلندا وروسيا. وفي عبورهم، كانوا معتادين على التوقف في أولاند للاستراحة. أمّا الإوزة الرمادية فليس لديها مشكلة في إيجاد قيادات.

ما زال النهار في بدايته ودافئاً، مثل يوم صيف – وهو أفضل جو في العالم في رحْلة بحرية – والعقبة الوحيدة هي أنّ الجو غير صاف، لأنّ لون السماء رمادي ومحجوب تماماً. وتنتشر هنا وهناك غيوم هائلة معلّقة على مسافات بعيدة وصولاً إلى الحافات الخارجية للبحر، حاجبة

بذلك المشهد.

حين يجتاز المسافرون صخور الجزر، فإنّ البحر يمتد إلى الأمام ناعماً كما مرآة صافية، بينما ينظر الصبي إلى الأسفل، ظن أنّ الماء قد اختفى. ولم يعد يرى الأرض تحته. ويحيطه فقط الضباب والسماء. وشعر بدوران، وأمست الأشياء رمادية جدّاً من حوله، تماسك وهو فوق ظهر الإوزة، وكان خائفاً أكثر حين جلس هناك لأول مرة. وبدا كما لو أنه لن يستطيع التواصل، ولا بد أنْ يسقط باتجاه معين.

كان الوضع أسوأ حين اقتربوا منْ مسار الطيور الكبيرة، حين تحدثت الإوزة الرمادية لأول مرة. وجاء سرب بعد سرب محلّقاً في الاتجاه نفسه تماماً. ويبدو أنهم اتبعوا مساراً معيّناً. كان هناك بط وإوز رمادي اللون، وطيور الغلموت البحرية، والبط الغواص، والبط ذو الذيول الطويلة وغطّاس الماء، وصياد المحار، والدجاج البحري.

لكن، حين انحنى الصبي إلى الأمام ونظر إلى الاتجاه حيث البحر يستلقي هو الآخر، رأى موكب طيور كامل ينعكس على سطح الماء. ولكنه كان مصاباً بالدوار إلى حد أنه لم يستطع أنْ يفهم كيف حدث هذا، وظنّ أنّ جميع الطيور تطير وبطونها منقلبة نحو الأسفل. وما زال غير مندهش كثيراً لذلك، لأنه لا يعرف منْ هو الذي في الأعلى ومنْ هو في الأسفل.

تعبت الطيور وجزعت في الخروج. ولا أحد منها يصيح ويقول أشياء مسلية، وهذا ما جعل كل شيء بشكل خاص غير واقعي.

وقال: «فكر، لو نحن سافرنا بعيداً عن الأرض، وفكر لو نحن في طريقنا إلى السماء!».

لم يرَ شيئاً باستثناء الضباب والطيور منْ حوله، وأخذ يفكر في الموضوع بتعقّل كما لو أنهم مسافرون إلى السماء. كان سعيداً، وراح يتساءل ما الذي يراه هنالك. وقد زال الدوار عنه. كان سعيداً جدّاً لفكرة أنه في طريقه نحو السماء تاركاً الأرض خلفه.

تماماً، بعد ذاك، سمع بعض الأصوات العالية، ثم رأى عمودين من الدخان الأبيض يرتفعان.

استيقظت الطيور بشكل مفاجئ، وحدث اضطراب بينها. وصرخت: «صيادون! صيادون! وحلّقتْ عالياً! ثم بعيداً!».

أخيراً، رأى الصبي أنها قد سافرت كل هذه الفترة عبر ساحل البحر وكانت متأكدة أنها ليست في السماء. إذ في طابور طويل تستقر قوارب مليئة بالصيادين، يطلقون النار تلو النار، واختفى

أقرب سرب من الطيور بلمح البصر. وقد حلّقت على مسافة واطئة جداً. وغطستْ مجموعة من الأجساد المظلمة أسفل السماء باتجاه البحر؛ ولأنّ كلّ طير قد سقط هناك ارتفعت أصوات صراخ الكرب.

من الغريب للمرء الذي اعتقد بعد أوان أنه في السماء ليجد نفسه قد استيقظ فجأة على مثل هذا الخوف والعويل. وانطلقت أكّا باتجاه المرتفعات وتبعها السرب بأقصى سرعة ممكنة. كان الإوز البرّي في أمان خارج الطريق، لكن الصبي لم يستطع السيطرة على ذهوله، كي تفكر أنّ أيّ إنسان يستطيع أنْ يتمنى أنْ يطلق النار كما تفعل أكّا وياكسي وكاكسي وذكر الإوز وآخرون! والإنسانية لا تملك تصوّراً ماذا تريد أنْ تفعل.

وهكذا حملته الإوزة مرة ثانية، في الهواء الساكن، وكان كل شيء هادئاً كما كان في السابق، ولكن بعض الطيور المتعبة كانت تنادي بين الحين والآخر: «هل سنصل إلى هنالك عاجلاً؟ هل نحن في الطريق الصحيح؟» وهكذا، أجاب القادة: «نحن مسافرون في الطريق مباشرة إلى أولاند؛ مباشرة إلى أولاند».

كان الإوز الرمادي قد تعب، واستدار البط الغوّاص حولهم. وصرخ البط: «لا تكونوا في عجلة منْ أمركم!» وأجابه البط الغوّاص: «ستتناولون كل الطعام قبل أنْ تصلوا إلى هناك». وأجابه البط الغواص: «أوه! لدينا ما يكفينا من الطعام جميعاً».

ساروا مسافة طويلة قبل أنْ يبصروا مدينة أولاند. هبّت عليهم رياح خفيفة، جلبت معها شيئاً يبدو أشبه بغيوم هائلة من الدخان الأبيض، كما لو كانت هناك نار هائلة في مكان ما.

حين شاهد جمع الطيور دوامة من الضباب الأبيض، انتابهم قلق وزادوا من سرعة طيرانهم. ولكن كان ذلك شبيهاً بدخان ينفخ بكثافة متزايدة، وفي نهاية الأمر غطاهم جميعاً. ليس هناك رائحة دخان. كما أنّ هذا الدخان لم يكنْ كثيفاً ولا جافاً، لكنه دخان أبيض ورطب. وأدرك الصبي أنّ ذلك كله مجرد ضباب.

حين تكاثف الضباب، أصبح من الصعوبة بمكان، أنْ يكون بمقدورهم رؤية طول مسار الإوزة مباشرة، وبدأت الطيور بالاستمرار كمسعورات حقيقيات. كان جميع الذين لم يسافروا من قبل في المقدمة لم يمتثلوا لهذه الأوامر، وبدؤوا الآن يلعبون في الضباب. راحوا يحلّقون في طيرانهم هنا وهناك ليجذبوا ظلالاً بعد أخرى. وراحوا يصرخون: «إنكم تحلقون بسفركم دائرة هنا ودائرة هناك. عودوا. يا للشفقة! إنكم لن تصلوا أولاند بهذه الطريقة».

عرفوا جميعاً تماماً أيْن الجزر. لكنْ عملوا ما بوسعهم كي يقودوا منْ ضلّ طريقه. «انظروا إلى الطيور المذعورة! إنها تحلّق في الضباب. إنها عائدة إلى بحر الشمال». وصاحت إحدى الإوزات من الطرف الآخر: «هل أنتم بحاجة إلى رعاية! فإن استمريتم على هذا المنوال، فإنكم ستصلون إلى مدينة روغن بسهولة».

بالطبع لم يكنْ هناك أيّ خطر يهدد تلك الطيور التي اعتادت السفر منْ هنا كي تنجذب بالاتجاه الخاطئ. ولكنّ هذه الطيور التي تواجه زمناً صعباً هي طيور الإوز! وراقب المهرجون أنهم غير متأكدين من اتجاههم في الطريق، وبذلوا ما في وسعهم لإرغامهم على اضطرابهم.

ونادت البجعة: «أيها الناس الطيبون، بأيّ شيء ملزمون».

وجاء مباشرة إلى أكّا، نظر بعطف، وبجدية.

قالت أكّا بعد أن فكّرت: «إنّ هناك طائراً يجب الوثوق به. نحن مسافرون إلى مدينة أولاند؛ ولم نكن قد زرناها منْ قبل».

وقال البجع: «إنّ الأمرّ سيّئ، لقد جذبوكم إلى الاتجاه الخاطئ. إنك في طريقك إلى بليكنغه. والآن، تعال معي. وسأضعك في الطريق الصحيح!».

وهكذا طار معهم، وعندما قادهم بعيداً عن المسار ولم يعد بإمكانهم أنْ يسمعوا النداءات، اختفى وسط الضباب.

راحوا يحلّقون لفترة بطريقة عشوائية. وكان من النادر جدّاً أنْ ينجحوا في تتبع مسار الطيور، حينما اقتربت البطة منهم قالت: «من الأفضل لكم أنْ تستلقوا الآن على الماء إلى أن يزول الضباب. إنه من الواضح، أنكم لم تعتادوا أنْ تنتبهوا جيداً في الرحلات».

أما أولئك المحتالون فقد نجحوا في أنْ يجعلوا رأس أكّا يغوص في السباحة. وكلما كان الصبي أقرب، تستدير الإوزات لفترة طويلة.

صاح البط الغواص وهو يندفع: «ألم تنتبهوا إلى أنكم تطيرون إلى الأعلى وإلى الأسفل».

وتشبث الصبي بثبات حول رقبة ذكر الإوز، ما أخافه لفترة طويلة.

فإن لم يكونوا يسمعون دحرجة أو صوتاً مكبوتاً على بعد مسافة، فليس هناك منْ يستطيع أن يخبرنا متى سيصلون؟

بعد ذلك رفعت أكّا عنقها وخفقت بصعوبة بجناحيها واندفعت بسرعة فائقة. وهنا لديها شيء ما كي تهتدي به. وأخبرتها الإوزة الرمادية ألا تحط في الجهة الجنوبية لمدينة أولاند، لأنّ هناك مدفعاً يستخدمه الناس في الضباب. والآن قد استطاعت أن تعرف الطريق، وليس هناك أحد في العالم يستطيع أنْ يرشدها في ضلالها.

الفصل الحادي عشر
جنوب جزيرة أولاند

نيسان/ أبريل، من الثالث إلى السادس عشر.

تقع العقارات الملكيّة في أغلب القسم الجنوبي لجزيرة أولاند، ويطلق عليها عادة أوتنبي. وهي إلى حد ما عقار كبير يمْتدّ من الشاطئ إلى الشاطئ، ومباشرة عبر الجزيرة؛ ومن الجدير بالملاحظة في ذلك أنها مسكونة دائماً بمجموعات من الطيور الضخمة.

وفي القرن السابع عشر، حين يعتاد الملوك الذهاب إلى أولاند للصيد، يكون العقار كليّاً متنزهاً للغزلان. وفي القرن الثامن عشر، تحول إلى سباق للخيول، حيث تتوالد خيول السباق ذات الدم الأصيل؛ كما هناك أيضاً حقل للأغنام، تصان فيه مئات الشياه. أما في عصرنا فلنْ تجد الخيول محمية جيداً.

ستجد عدداً كبيراً من الحيوانات الأليفة في أوتنبي الأصيلة، ولن تجد الشياه فيها، باستثناء القطعان العظمى للخيول الشابة التي يستخدمها الفرسان. كما لنْ تجد أفضل مأوى للحيوانات في المقاطعة كلها.

وعلى امتداد أقصى الشاطئ الشرقي يقع مرج الشياه القديم الذي يبلغ طوله ميلاً ونصف الميل، وهو أكبر مرج في أولاند كلها؛ حيث بإمكان الحيوانات أنْ ترعى وتمرح وتجري حوله بحرية كما لو أنها تعيش في البريّة. هناك ستجد بستان أوتنبي الشهير وتتكاثر فيه أشجار البلوط منذ مئات السنين، التي تظلله من حرارة الشمس وتحميه من قسوة الرياح. وعلينا ألا ننسى جدار أوتنبي الطويل الذي يمتد من الشاطئ إلى الشاطئ ويفصل أوتنبي عن بقية الجزيرة. لهذا، فإنّ الحيوانات يمكنها أن تعرف المسافة التي تبتعد بها عن امتدادات العقارات الملكيّة وعلينا أيضاً أن نكون حذرين في الحصول على أرض أخرى التي ربما لم تكن محمية، لكن هذا ليس كل شيء. ففي الغالب يستطيع المرء أنْ يتيقن أيضاً أنّ الحيوانات البريّة تشعر أيضاً أن ثروة التاج القديمة من الحيوانات البريّة والحيوانات الأليفة تعد كلتاهما تحت الحماية والمأوى، منذ أن كانتا مشروعاً يتكاثر بشكل كبير.

فضلاً عن هذا، ما زال عدد قليل من الظباء التي تعد من حيوانات الماشية القديمة؛ وملاجئ للبط، وطعام طيور الحجل تعيش هناك، وهناك أيضاً عروض لمكانات الاستجمام في فصل

الربيع وأواخر فصل الصيف لآلاف من الطيور المهاجرة. وفوق كل ذلك، وعلى المستنقع أسفل الشاطئ الشرقي هناك طيور مهاجرة تحطّ للاستراحة وتناول الطعام.

حين وجدت الطيور البرية ونيلز أخيراً طريقهم إلى أولاند، هبطوا، مثل الآخرين للاستراحة على شاطئ قرب مرج الشياه؛ حيث يتكاثف الضباب فوق الجزيرة، وفوق البحر أيضاً. لكن، ما زال الصبي مندهشاً من جميع الطيور التي اكتشفها على امتداد الشاطئ وعلى امتداد نظره.

كان شاطئاً رملياً واطئاً تتناثر عليه الحصى والمسابح وحفر الأعشاب البحرية. وإذا سمح للصبي أنْ يختار؛ فإنه ليس من المحتمل أنْ يفكر في النزول إلى هناك؛ لكن من المحتمل أنه يفكر في الهبوط إلى حيث تتطلع الطيور إلى جنّة حقيقية. وتتنزه طيور بط الإوز هناك وتتغذى على حبوب المرج؛ وكلما اقتربنا من الماء نشاهد طائر الشنقب وطيور الساحل الأخرى. ويستلقي البط الغواص على البحر لاصطياد السمك، لكن الحياة الأعظم والحركة هي على ضفاف أعشاب البحر وعلى امتداد الساحل. وهناك تقف الطيور جنباً إلى جنب تلتهم وتنبش بحثاً عن الدود الذي من المفترض أن يوجد هناك بأرقام لا يمكن عدها، ومن الواضح جداً بأنه ليس هناك أية شكوى عن نقص الغذاء أو الحاجة إليه.

كانت الأغلبية العظمى تسافر إلى مسافات بعيدة، وتترجل لفترة قصيرة؛ ولكن سرعان ما يظن قائد السرب أن رفاقه قد انتعشوا بما فيه الكفاية ويعلن: «إن كنتم مستعدين الآن، يمكن أن ننطلق؟».

صرخت المجموعة: «كلا، انتظر! لم ننتعش بما فيه الكفاية حتى الآن».

قال القائد: «إنكم بالتأكيد لا تصدقونني. إنْ سمحت لكم بتناول المزيد من الطعام، فإنكم لنْ تستطيعوا الاستمرار في الطيران؟». وصفّق بجناحيه وانطلق. وعلى أبعد مسافة من ضفاف أعشاب البحر كان يستلقي سرب من طيور البجع، تلك الطيور التي لا تريد إزعاج نفسها في الذهاب إلى اليابسة، بل أخذت راحتها بالاستلقاء والتأرجح على الماء. وبين الحين والآخر، تدفع برقابها تحت الماء لتجلب الطعام منْ أعماق البحر. حين تحصل على كل شيء جيد جداً، تغامر في الصراخ بصوت عال بحيث يبدو كما لو أنها تنفخ في أبواق.

حين يسمع الصبي أنّ هناك طيور البجع في المياه الضحلة يسارع إلى ضفاف أعشاب البحر. لأنه لم يرَ من قبل بجعاً برّياً على المدى القريب. وكان محظوظاً في أن يكون قريباً منها تماماً.

لم يكن الصبي هو الوحيد الذي سمع بوجود طيور البجع، بل إن الإوز البري والإوز الرمادي والبط الغواص بين ضفاف الشاطئ، شكّلت حلقة حول البجعات وحدّقت فيها. وراحت طيور البجع تماوج بريشها، وترفع أجنحتها كما الأشرعة وتمد رقابها عالياً في الهواء. وأحياناً، يعوم أحدها متوجهاً إلى الإوز أو إلى غواص البط العظيم، وهناك، ينبس بكلمات قليلة. ومن ثم يبدو كما لو أن أحداً ما خاطب بصعوبة وتجرأ على رفع منقاره ليجيب.

لكن كان هناك غواص بط صغير لا يمكنه الوقوف طيلة هذه المراسم. وراح يغوص سريعاً ثم يتلاشى. وسرعان ما خرج أحد طيور البجع وهو يصرخ، وغاص بسرعة إلى حد حوّل الماء إلى رغوة. ومنْ ثم توقف وشرع ينظر بمهابة أكبر. في الوقت ذاته صرخ غواص ماء آخر بالطريقة ذاتها كما هو الأول، ومن ثم صرخ الثالث.

لكنّ البط الغواص لم يستطع البقاء تحت الماء طويلاً، هزّ رأسه رافعاً إيّاه إلى سطح الماء، حيث برزت له أفعى سوداء صغيرة. واندفعت إليه البجعات، ولكن حين شاهدنه أنه مخلوق صغير ومسكين، استدارت حالاً، كما لو أنها تعد نفسها بطريقة أفضل للتشاجر معه. لكنّ البط الغواص الصغير غطس مرة ثانية، وقرصه منْ قدميه، ولا بد أنه قد جرح؛ لكن الأسوأ أنهنّ لم يصنّ كرامتهنّ. وبسرعة اتخذن قراراً بالتوقف. وشرعن يضربن الهواء بأجنحتهن، وهكذا نزل رعد سار إلى الأمام قليلاً – كما لو أنه يجري على الماء – وأخيراً، ضربتهن الريح تحت أجنحتهن، ما جعلهن يرتفعن إلى الأعلى.

حين خرجت البجعات، فقدْن طريقهن تماماً؛ أمّا تلك اللائي قد تمتعن أخيراً عن طريق سلوكهن، فقد حقّرن البط الغواص لغبائه.

سار الصبي مرة ثانية إلى الأمام ليتأكد من اليابسة، حيث تموضع لمراقبة لعبة طيور الشنقب في حوض سباحة، وتشبه هذه الطيور اللقالق الصغيرة إلى حد ما، ومثلها هذه، تملك أجساماً صغيرة، ورقاباً طويلة، وسيقاناً سامقة أيضاً، وخفيفة، وحركات ميّاسة؛ لكن ألوانها ليست رمادية، بل بنيّة. ووقفن مشكّلات طابوراً طويلاً على شاطئ تغسله الأمواج. حالما تتدحرج الموجة فإنّ الطابور بأكمله يتراجع راكضاً نحو الخلف؛ وحين تنحسر أيضاً، يتابعنها. وعلى هذا السياق يبقين لعدة ساعات.

وأكثر الطيور تباهياً هي طيور ما يطْلق عليها بط الجحور، فهي دون شك تشير إلى البط العادي وتنتمي إلى فصيلته؛ فهي ذات أجساد كبيرة، ومناقير عريضة، وأرجل تشبه الكفوف

العريضة؛ لكنها أكثر إتقاناً من البط العادي. وريشها أبيض اللون؛ يزيّن رقابها طوق عريض ذهبي؛ أجنحتها تتلألأ بلونها الأخضر، والأسود، والأحمر؛ أطرافها سوداء اللون، ورأسها أخضر غامق ويبدو صقيلاً وملمّعاً.

وحالما يظهر أيّ منها على الشاطئ، يعلّق الآخرون: «والآن انظروا إلى تلك الألوان المخططة! إنها تعرف كيف تكسي نفسها فإنْ لم تكنْ واضحة فعليها ألا تدفن أعشاشها تحت الأرض، وعليها أنْ تستلقي على الأرض، مثل بقية الطيور». وأبدى البط الأسمر رأيه: «وعليها أنْ تجرب كثيراً بقدر ما هي سعيدة، ولكن عليها أيضاً ألا تدس أنوفها في شؤون الآخرين». وأردف قائلاً: «وهذا شيء واقعي حقّاً. أما بط الجحور فيظهر نتوء على قاعدة منقاره، مما يشوه مظهره».

وقريباً من الشاطئ تغوص طيور نوارس وسنونوات البحر في البحر لتصطاد الأسماك الصغيرة. وتساءل الإوز البري: «أي نوع من الأسماك تصطادونه». رد عليه طائر النورس: «سمك أبو شوكة! – سمك أبو شوكة في أولاند. إنه أفضل الأسماك في العالم، هل تذوقتموه؟». وطار إلى الإوزة وهو يملأ منقاره ببعض الأسماك، ويريد أن يعطيها إلى بعض الطيور. وقالت الإوزة البرية بانزعاج: «هل تعتقد أنني آكل مثل هذه الأسماك؟».

وفي الصباح التالي، كان الجو غائماً تماماً. كان الإوز البريّ يتنزه ويتناول طعامه حول المرج؛ لكن الصبي ذهب إلى شاطئ البحر ليجمع المحار. كان الكثير منه في المكان نفسه حيث لم يستطيعوا أن يحصلوا على غذاء أبداً، وقرر أنه سيحاول أن يصنع لنفسه حقيبة صغيرة، يستطيع أن يملأها بالمحار. ووجد قليلاً من البردي في المرج كان قويّاً وخشناً؛ ومن هذه المادة بدأ يجدل منها حقيبة ظهر. وظل يعمل في ذلك عدة ساعات، لكن حين انتهى كان مقتنعاً تماماً بها.

في وقت العشاء جاء جميع الإوز البري راكضين وسألوه إنْ كان قد رأى أيّ شيء عن ذكر الإوز الأبيض. قال الصبي: «كلا، كلا لم يكن معي». قالت الإوزة أكّا: «كان معنا لفترة طويلة وحتى وقت متأخر من الليل، ولكن لم نعد نعرف أين هو الآن».

قفز الصبي، كان خائفاً بشكل رهيب. تساءل إنْ كان أي ثعلب أو نسر قد عكّر الجو أو أي إنسان قد ظهر أيضاً في الحي. لكن لا أحد قد لاحظ أي شيء خطير. من المحتمل أنّ ذكر الإوز قد فقد طريقه في الضباب.

لكنّ رغم سوء الحظ العظيم، فإنّ الصبي لنْ يهمه تماماً كيف قد ضاع ذكر الإوز الأبيض، وانطلق حالاً يفتش عنه تحت غلاف الضباب، لهذا راح يجري أينما شاء وفي أي مكان لكن من دون أنْ يجد أثراً له. وساهم طغيان الضباب في منع رؤيته للأشياء منْ حوله. جرى نحو جهة الجنوب على مدى الشاطئ، وإلى الطريق نحو الأسفل، إلى الفنار ومدفع الضباب وهي النقطة الحاسمة للجزيرة. هناك كان الطير نفسه قد عكّر كل شيء، وليس هناك أيّ إوز. غامر بالذهاب إلى بستان أوتنبي، واستمر في البحث في كل مكان قديم، حتى في بستان البلوط المجوف في أوتنبي. لكنه لم يجد أثراً لذكر الإوز.

ظل يبحث حتى حلول الظلام، بعد ذلك كان عليه أنْ يعود إلى الشاطئ الشرقي. كان يمشي بخطوات ثقيلة وكان خائفاً حقّاً. لم يكن يعرف ما الذي يأتيه إنْ لم يجد ذكر الإوز. وليس هناك منْ يوفر له وقتاً قليلاً.

لكن ما ذلك الشيء الذي كان يتقدم ببطء نحوه في الضباب إنْ لمْ يكن ذكر الإوز؟ كان في وضع جديد، وإنه سعيد جدّاً أخيراً أنه استطاع إيجاد طريقه للعودة إلى الآخرين. وقد أصابه الضباب بالدوار، وقد قال، إنه كان يتجول حول مرج كبير طيلة النهار. رمى الإوز ذراعيه حول رقبته بفرح غامر، وتوسل إليه الاهتمام بنفسه وألا يبتعد في تجواله كثيراً عن زملائه. أقسم بثبات أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى. كلا، لنْ أفعلها مرة ثانية.

لكن في الصباح التالي، حين كان الصبي يسير عبر الشاطئ باحثاً عن المحار، جاءه الإوز راكضاً وسأله إن كان قد رأى ذكر الإوز. كلا، بالطبع، إنه لم يره.

«حسناً، إذاً، فقد ضاع ذكر الإوز مرة ثانية. لقد تاه في الضباب، تماماً كما ضاع قبل يوم».

وانطلق الصبي بحذر شديد وراح يبحث عن ذكر الإوز. فقد وجد مكاناً حيث كان جدار أوتنبي وتعثر إلى حد لم يستطع معه التسلق فوق ذلك الجدار. أخيراً، راح يبحث عنه على الشاطئ – الذي راح يتوسع تدريجياً وأصبح كبيراً إذ لا يوجد هناك فراغ للحقول والمروج والمزارع – ثم صعد إلى الأرض العالية المسطحة، التي تستلقي في وسط الجزيرة، إذ لا وجود لبنايات باستثناء طواحين الهواء، وحلبة سباق خيل أرضيتها خفيفة مبلطة بالإسمنت الأبيض المشرق.

في هذه الأثناء، لم يستطع أن يجد ذكر الإوز؛ مع حلول المساء وانسحاب الضوء، حيث كان على الصبي أن يعود إلى الساحل، لم يكن يفكر بأيّ شيء باستثناء ضياع رفيقه في السفر.

تسلّق الحائط مرة ثانية، حين سمع تهشّم شيء ما بالقرب منه. حين استدار ليرى ما الذي كان يسقط، ميّز شيئاً ما كان يتحرك على حفرة صخرية قريبة من الحائط. اقترب أكثر ورأى ذكر الإوز يمشي بوهن فوق حفرة من الصخور، وفي فمه مجموعة من الألياف الطويلة. لم يرَ ذكر الإوز الصبي، كما أن الصبي لم يناده هو الآخر. لكنه رأى أنه من المستحسن أن يكتشف أولاً لماذا اختفى ذكر الإوز مرة ثانية بهذه الطريقة.

لكن سرعان ما اكتشف السبب، ففي أعلى صخرة هناك حفرة يستلقي إوز رمادي شاب، كان يصرخ بمتعة حين جاءه ذكر الإوز. زحف الصبي قريباً منهما، استطاع أنْ يسمعهما ماذا يقولان. ومن ثم اكتشف أنّ الإوزة الرمادية قد جرحت في إحدى جناحيها، مما حال دون طيرانها، وبذلك فإن سربها قد طار بعيداً تاركاً إيّاها وحيدة. كانت على أبواب الموت تقريباً بسبب الجوع، حين سمع نداءها ذكر الإوز الأبيض، في اليوم الآخر، بحث عنها في الخارج لأنه كان يحمل إليها الطعام. وكلاهما تأمل أنها ستكون بصحة جيدة قبل أن يغادر سربها إلى الجزيرة، لكن حتى الآن، لا تستطيع الطيران ولا تستطيع المشي. وكانت قلقة جداً نتيجة ذلك، لكنه طمأنها أنه لن يسافر لوقت طويل. أخيراً تمنى لها ليلة سعيدة. وأقسم لها أن يعود إليها في اليوم التالي.

سمح الصبي لذكر الإوز بالذهاب؛ وحالما ذهب، فإنه استدار، وتسلل إلى حفرة الصخر. وكان منزعجاً لأنه كان مخدوعاً، يريد الآن أن يقول لذلك الإوز الرمادي أنّ ذكر الإوز هو ثروته. وسيأخذ الصبي إلى مدينة لابلاند، وهناك لن يتحدث عن بقائه هنا أو عن قصتها. لكن الآن، حين رأى الشاب الإوز الرمادي قريباً، فهم ليس فقط لماذا قد ذهب ذكر الإوز وجلب لها الطعام على مدى يومين، ولكن أيضاً لماذا لم يتمنّ أن يتحدث عن حقيقة أنه قد ساعدها. إنها تملك رأساً صغيراً وجميلاً؛ فريشها يشبه النسيج الحريري الناعم، وعيناها كانتا لطيفتين ومتضرعتين.

وعندما رأت الصبي، أرادت الهروب بعيداً عنه؛ ولكن الجناح الأيسر كان قد خذلها لأنه خارج مفصله مما حدا به أنْ يترنح على الأرض.

قال الصبي من دون أن يبدو عليه الغضب تقريباً كما اعتاد أن يظهر هكذا: «ينبغي ألا تخافي مني، أنا ثمبيتوت. رفيق ذكر الإوز مورتن». أعلن ذلك، ثم وقف هناك ولم يعرف ماذا يقول.

أحياناً، يجد المرء شيئاً ما بين الحيوانات تجعله يندهش أي نوع من المخلوقات هذه حقّاً! ويخشى المرء أيضاً أنها ربما قد تحوّلت إلى مخلوقات إنسانية. ومثالنا على ذلك هو الإوزة الرمادية. فحالما قال ثمبيتوت من هو؟ لوت عنقها ورأسها أمامه وهي مسحورة تماماً به، وقالت بصوت عذب بحيث إنه لا يُصدَّق أنها الإوزة التي تكلمت: «أنا سعيدة أنك جئت إلى هنا كي تساعدني، وقد أخبرني ذكر الإوز أنه ليس هناك عاقل وجيد جدّاً مثلك».

قالت هذا بمثل ذلك الوقار بحيث خلقت مشاعر ارتباك حقيقية: «بالتأكيد إنها أميرة ساحرة».

وقد امتلأ رغبة لمساعدتها، ثم مد يده تحت ريشها وشعر لفترة طويلة بعظم جناحها، وتأكد أن العظم سليم ولم ينكسر، لكنْ هناك شيء ما بمفصله. ثم وضع أصبعه إلى الأسفل على مكان الخلع في جناحها.

«انتبهي الآن!». قال وهو يقبض بشدة على العظم، وركبه في مكانه السابق، فعل ذلك بسرعة، معتبراً أنها أول مرة حاول فيها القيام بمثل هذه العملية من هذا النوع. لكن لا بد وأنها تؤذي كثيراً جدّاً، لأن الإوز المسكين صرخ صرخة شديدة، ومن ثم غطس إلى الأسفل بين الصخور من دون أنْ يُظهر أي إشارة عن حياته.

شعر الصبي بخوف مرعب. وقد رغب فقط في أن يساعدها. والآن ها هي قد ماتت. قفز قفزة كبيرة من حفرة الصخور وهرب بعيداً. وشعر أنه قد قتل إنساناً.

في الصباح التالي كان الهواء عذباً وخالياً من الضباب، قالت أكّا إن عليهم أن يستمروا في رحلتهم. كما يريد الآخرون أيضاً الاستمرار في رحلتهم، لكن ذكر الإوز الأبيض قدم اعتذاراته. فهم الصبي جيداً أنه لا يهتم كثيراً في أن يترك الإوزة الرمادية. لكن أكّا لا تريد الإصغاء إليه، وهكذا انطلقوا.

قفز الصبي فوق ظهر ذكر الإوز، ولحق الإوز الأبيض بالسرب، مع أنه كان بطيئاً وغير راغب. كما كان سعيداً للغاية أنهم استطاعوا الطيران بعيداً عن الجزيرة. كان ضمير الصبي يؤنبه جدّاً بسبب الإوز الرمادي، ولا يريد أن يخبر ذكر الإوز ماذا حدث حين حاول معالجته. كان من المحتمل أنْ يتحسن وضعه الصحي إذا كان ذكر الإوز مورتن لم يكتشف الموضوع، وفكر، رغم أنه قد اندهش، في الوقت ذاته، كيف يجيز للإوز الأبيض أن يغادر الإوز الرمادي.

لكن فجأة استدار ذكر الإوز. لأنّ فكرة الإوزة الرمادية الشابة قد تغلبت عليه. وبالإمكان الذهاب كما هو الحال في رحلة لابلاند. لم يعد بإمكانه الذهاب مع الآخرين حين عرف أنها كانت وحيدة ومريضة، وأنها تصارع الموت. وبعد ضربات جنح قليلة وجد نفسه إلى جانب حفرة الصخور، لكن الآن لا أحد يستلقي من الإوز الرمادي الشاب بين الصخور. ونادى ذكر الإوز: «دونيفين! دونيفين! أين أنت الآن؟».

فكر الصبي: «إنه من المحتمل أنّ الثعلب قد كان هنا وربما أخذها». لكن في هذه اللحظة سمع صوتاً رقيقاً ردّ على ذكر الإوز. «أنا هنا، يا ذكر الإوز؛ إنني هنا! إنني كنت آخذ حمام الصباح فقط». ومنْ أعلى الماء جاءت إوزة رمادية صغيرة – طازجة ومشذبة الريش – أخبرتهم كيف أن ثمبيتوت قد سحب جناحها إلى اليابسة، وكيف كانت في وضع لا تحسد عليه، وهي الآن على استعداد للذهاب معهم في الرحلة.

كانت قطرات الماء تستلقي كما لؤلؤ الندى وكما وميض نسيج الساتان يبدو ريشها. وفكر ثمبيتوت مرة ثانية أنها كانت أميرة صغيرة حقيقية.

الفصل الثاني عشر
الفراشة الكبيرة

الأربعاء، السادس منْ نيسان/ أبريل.

طار الإوز مباشرة وارتفع عالياً لمسافات طويلة إلى الجزيرة التي تستريح بوضوح مرئي تحتهم. شعر الصبي بسعادة وارتياح نفسيْين خلال الرحلة. كان مسروراً جداً وهو مقتنع الآن بينما كان كئيباً ومحبطاً يوم أمس. حين كان يتجول حول الجزيرة يصطاد من أجل ذكر الإوز.

شاهد الآن أنّ داخل الجزيرة يحتوي على سهل مرتفع قاحل، إكليل أرض خصبة على مدى طول الساحل؛ بدأ يدرك بعض الشيء ما قد سمع به في المساء الآخر.

جلس بالضبط إلى جانب إحدى الطواحين الهوائية على الأرض المرتفعة ليأخذ استراحة قصيرة؛ في وقت جاء عدد من الرعاة وكلابهم إلى جانبهم وقطيع طويل من الشياه في قافلتهم. لم ينتب الصبي أيّ خوف لأنه كان مختفياً تحت طواحين الهواء. لكن حدث أن جاء الرعاة وجلسوا تحت الطواحين أيضاً، لم يكنْ هناك ما يفعله الصبي باستثناء الحفاظ على صمته تماماً.

كان أحد الرعاة شاباً، يتلفّت حوله كما بقية الناس في الغالب؛ والآخر كان شيخاً غريباً. ضخم الجثة ومعقداً، ذا رأس صغير، وجهه بالغ الدقة وملامحه رقيقة، ورأس كأنه ليس له.

جلس صامتاً لفترة، محدقاً في الضباب، له تعابير متعبة غير قابلة للوصف. وبعد ذلك أخذ يتحدث إلى رفيقه. ثم تناول من حقيبة كانت على ظهره بعض الخبز والجبنة ليتناول وجبته المسائية. لم يجب على أيّ شيء في الغالب، لكنه أصغى بانتباه، كما لو أنه يفكر: «يجوز لي أن أمنحك متعة الدردشة لفترة قصيرة».

قال راعي الغنم الآخر: «الآن أستطيع أنْ أخبرك شيئاً ما، يا إريك؟ لقد تأكدت أن الإنسان والحيوان في الماضي كانا أضخم بكثير مما هما عليه الآن، فالفراشات مثلاً لا بد وأن تكون أضخم بشكل غير اعتيادي. كانت الفراشة قبل هذا الزمان يبلغ طولها عدة أميال، وأجنحتها واسعة بسعة البحر. كانت هذه الأجنحة زرقاء اللون، تلمع كما الفضة، رائعة، إلى حدّ ما، حينما تطير تقف جميع الحيوانات محدقة بها. لكن فيها هذه العقبة، هي على كل حال

ضخمة. هذان الجناحان من الصعوبة عليهما إنجاز عملهما. لكن من المحتمل أن كل شيء يسهّل مهمتها إن كانت تلك الفراشة عاقلة بحيث تبقى فوق التل. لكنها لن تفعل ذلك؛ وراحت تغامر فوق بحر البلطيق. لم تبتعد كثيراً قبل أن تهب العاصفة وشرعت تمزق جناحيها. حسناً، إننا من السهولة أن نفهم، يا إريك، كيف تتصرف الأشياء حين تهب العاصفة من بحر البلطيق وتبدأ بالصراع مع الفراشة لإضعاف جناحيها. لن يطول الوقت حتى يتمزقا ويتناثرا؛ وبالطبع، بعد ذلك، ستسقط الفراشة المسكينة في البحر. في البداية تقذف نفسها إلى الأمام وإلى الخلف فوق عباب البحر، ومن ثم تجنح فوق قليل من الأسس المتهاوية تماماً عبر سمولاند. وهناك تستلقي، ضخمة وطويلة كما كانت في السابق.

والآن يا إريك، أنا أعتقد، أنه إذا كانت الفراشة سقطت على الأرض، فإنها ستكون حالاً قد تفسخت وتمزقت إرباً إرباً. لكن لأنها سقطت في البحر، فإنها ستكون قد تنقّعت وستتحول إلى كلس، وستتصلّب كما الحصاة. وإنك، ستعرف بالطبع، لماذا نجد الحصى على الشاطئ وهنا لا شيء، غير الديدان. والآن، أعتقد أنها قد تحوّلت حيث استلقتْ داخل جبل ضيق وطويل خارج بحر البلطيق. أليس كذلك؟».

توقف للإجابة، أحنى الآخرون رؤوسهم له، ثم قال: «استمر، إنني مصغ إلى ما تهدف».

«والآن، يا إريك، تلك هي مدينة أولاند القريبة، حيث نسكن أنا وأنت ولا شيء آخر سوى جثة الفراشة القديمة. وإن توقف المرء ليفكر فإنه سيرى تلك الجزيرة هي فراشة فحسب. وإن ذهبنا باتجاه الشمال، سنرى نحافة الجثة والرأس المستدير، وإن ذهبنا باتجاه الجنوب فإنّا سنرى القسم الأسفل من الجثة الذي تكون بدايته عريضة ثم تضيق حتى تصل إلى نقطة حادة جداً».

وهنا، توقف مرة أخرى ونظر إلى حد ما بتساؤل إلى رفاقه ليرى كيف أنه أكّد ذلك. لكن الرجل الشاب حافظ على تناول الطعام وأحنى له رأسه ليستمر.

قال: «ومباشرة تحوّلت الفراشة إلى صخرة جيرية متكلّسة. وهناك أشياء مختلفة الأنواع من التربة والأعشاب والأشجار نقلتها الرياح، وتجذرت في تلك الجثة. وقد مرّ زمن طويل لم يحدث أيّ شيء آخر باستثناء نمو البردي حولها، بعد ذلك نبت حمّيض الشياه، وأزهار الصخور، ثم جاء دور النبات الشوكي ينبت حولها. حتى يومنا هذا لا شيء ينبت كثيراً على ألفارت Alfart لأنه قاحل هنا وهناك. ولا أحد يفكر في الحرث والبذر هنا في الأعلى حيث

قشرة الأرض رقيقة جداً. فإنْ منحت شيئاً لذلك الجبل والقلاع التي حوله المصنوعة من جثة الفراشة، ومن ثم لك الحق أن تتساءل من الذي يستلقي حول تلك المعاقل».

قال الرجل الذي كان يتناول طعامه: «نعم، ذلك صحيح، نعم ذلك ما يجب أنْ أعرفه».

«حسن، يجب أنْ تتذكر أنّ مدينة أولاند تقع على البحر، منذ سنين طويلة، في هذه الأثناء كل شيء تداعى بسبب تأثير الأمواج، والطحالب البحرية والرمال والحيوانات الرخوية، التي تجمّعت حولها، وبقيت هناك. ومن ثم أيضاً، تجمّع حولها تساقط الحصى والصخور من جهة الشرق والمعاقل من جهة الغرب. وبهذه الطريقة اكتسبت الجزيرة شواطئ واسعة ونمت حولها الحبوب والأزهار والأشجار.

هنا في الأعالي، وعلى ظهر الفراشة الصلب، تتواجد حولها الشياه والأبقار والمهور. والطيور تعيش وحدها بتواضع مثل طيور الزقزاق والطائر المائي أبو طيط، كما وليس هناك بنايات باستثناء الطواحين المائية وقليل من الأكواخ الصخرية، حيث نحن الرعاة نتدحرج حولها. نزولاً نحو الساحل نرى هناك القرى الكبيرة والكنائس والأبرشيات ونجوع الصيد وأخيراً المدينة كلّها».

ونظر بتفحص إلى رفيقه، الذي انتهى من تناول طعامه ثم أغلق كيس الطعام. وقال: «إنني أتساءل متى تنتهي من كل هذا».

أصر الراعي: «إنّ هذا هو الشيء الوحيد الذي أريد معرفته». وخفض من صوته إلى حدّ وصل به إلى الهمس بالكلمات، وتلصص في الضباب بعينيه الصغيرتين اللتين تبدوان قد استهلكتا في التلصص الذي لا وجود له – «هو فقط: إذا كان المزارعون الذين يسكنون في المزارع أسفل القلاع، أو الصيادون الذين يعيشون على سمك البحر المملّح، أو التجار الذين يعيشون في بورغهام، أو الضيوف الذين يستحمّون الذين يأتون في مواسم الصيف، أو السواح الذين يتجولون حول آثار قصر بورغهام، أو الصيادون الذين يأتون في فصل الخريف ويطاردون طيور الحجل، أو الرسامون الذين يجلسون هنا في جبل ألفارت ويرسمون الشياه وطواحين الهواء – أريد أن أعرف إنْ كان أيّاً منهم يفهم أنّ هذه الجزيرة كانت هي الفراشة تلك التي تطير وتحوم بجناحيها اللمّاعين».

علّق الراعي: «بالتأكيد، يجب أنْ يحدث لبعضهم». وبينما هم جالسون على حافة المعقل في أحد المساءات سمعوا العندليب يغرد في البساتين أسفلهم، نظروا إلى كالمار ورأوا أن تلك

الجزيرة لا يمكن أن تكون موجودة بالطريقة ذاتها التي لدى الآخرين.

قال أحد الشيوخ الكبار: «أريد أنْ أسأل إذا لم يكن هناك منْ يشعر برغبة أنْ يمنح الجناحين الصعود إلى طواحين الهواء – إنهما سيتوسعان ليصلا السماء؛ وبوسع السماء التوسع إلى حد أن تترك كل الجزيرة خارج البحر، وتدعها تطير مثل فراشة بين الفراشات». والتفت الرجل الشاب معلقاً: «إنه من الممكن أنّ هناك بمثل ما تقوله، ففي ليالي الصيف حين تتوسع السماء وتنفتح فوق الجزيرة، فإنني أحياناً قد أفكر إن كان من الممكن أن ترفع نفسها من البحر، وتطير بعيداً، إنْ هي أرادت ذلك».

لكن حين جعل الشيخ الكبير الرجل الشاب يتحدث، لم يصغ إليه كثيراً. واستأنف الرجل العجوز كلامه بنغمة واطئة: «إنْ كان المرء يستطيع أنْ يشرح لماذا ينتابه مثل هذا الإحساس للشوق هنا إلى جبل ألفارت، فإنني أشعر بذلك في كل يوم في حياتي، وأنا أعتقد أنه ضحية لكل واحد يجب عليه أنْ يتجول هنا. وأنا أريد أنْ أعرف إذا لم يكن أحد يعرف أن كل هذا الأسى يعود إلى حقيقة أنّ كل الجزيرة هي فراشة تتشوق إلى جناحيها».

الفصل الثالث عشر
جزيرة كارل الصغير

العاصفة

الجمعة، الثامن منْ نيسان/ أبريل.

قضى الإوز البريّ ليلتهم في المنطقة الشمالية لأولاند، وهم الآن في طريقهم إلى القارة. هبّتْ عاصفة قوية على كالمار، واكتسحوا الجهة الشمالية. ما زالوا يشقّون طريقهم باتجاه البر بسرعة جيدة. لكنْ حين اقتربوا من الجزر الأولى، كان وقع أقدامهم يسمع، كما لو أنّ تدفق أجنحة الطيور القوية يقترب؛ وفجأة تحوّل الماء بين أقدامهم إلى اللون الأسود تماماً. خفضت أكّا جناحيها نحو الأسفل فجأة، وكانت دائماً ما تسكّنهما في الهواء. بذلك، هبطتْ نحو الأسفل لتحطّ على سطح ماء بحري، لكنْ قبل وصول الإوز للماء، هبّتْ عليهم عاصفة دافعة. قبل هذا الضباب، وزبد البحر المالح، والطيور الصغيرة؛ كانت تبحث أيضاً عن الإوز البريّ، رامية إيّاهم إلى النهاية، وقاذفة بهم إلى البحر.

كانت عاصفة رعْناء، حاول الإوز البريّ مجدداً التقهقر إلى الخلف، لكنْ لم يستطيعوا، بدلاً منْ ذلك حلّقوا أسرع فأسرع، وعصفت بهم العاصفة الآن إلى أن تجاوزوا أولاند، كان البحر يمتد أمامهم، فارغاً ومهجوراً. لا يملكون شيئاً يقومون به، لكنهم حافظوا على مسافة من البحر.

حين راقبت أكّا أنهم غير قادرين على العودة، فكرت أنها من العبث أنْ تدع العاصفة تدفعهم فوق البلطيق تماماً. بناء على ذلك، غطست في الماء. كان البحر ثائراً، يزيد من عنفه في كل ثانية. وعبابه أخضر، يتدحرج إلى الأمام برغوته العارمة إلى أعلى قممه، وكل اندفاع أعلى منْ سابقه. كما لو أنه يتسابق أحدهم مع الآخر ليبرهن له منْ هو الأعنف. لكن الإوز البرّي لم يكن خائفاً منْ تضّخم الموج. على العكس منْ ذلك، يبدو أنهم يتحملونه بسرور فائق. لم يتوتروا في سباحتهم، إنما كانوا يستلقون ويسبحون بانتعاش ويغطسون في أودية المياه ويلعبون في الماء كما أطفال في أرجوحة. قلقهم الوحيد ربما هو أنّ سربهم قد يتفرق أثناء مسيرة طيرانهم. وهناك طيور أرضية كانت تطير عالياً في العاصفة، تصرخ بحسد: «ليس هناك أيّ خطر أنتم أيها الطيور التي تستطيع العوم في البحر».

لكنّ الإوز البري كان بالتأكيد ليس في مأمن من الخطر. ففي المقام الأول، تجعل الصخور منهم لا حول لهم ولا قوة. وبين الفينة والأخرى يريدون الالتفات نحو الخلف. رغم أنهم يحشرون مناقيرهم تحت أجنحتهم، ثم يغطون في النوم. لا شيء أكثر خطورة من تلك الطريقة التي تدفعهم للنوم؛ واستمرت أكّا تناديهم في كل هذه الفترة: «لا تناموا، أيّها الإوز البرّي! ومن ينم بتلك الطريقة يفقد انتظامه في الطيران مع السرب. ومنْ يبتعد عن السرب سيضيع».

رغم كل المحاولات في مقاومة النوم، فإنّ النعاس قد غلبهم واحداً بعد الآخر؛ وأكّا ذاتها راحت في غفوة من النوم، حين شاهدت فجأة شيئاً مستديراً وداكناً يرتفع إلى أعلى قمة الموجة. صرخت بصوت عال وشديد، ارتفعت في الهواء وبضربات جناحيها المدويّتين: «فقْمة! فقمة! فقمة!» كانت لحظة حاسمة. قبل توافر الوقت للإوز البرّي أنْ يخرج من الماء، كان طائر النورس قريباً منْ قدميها.

ومنْ ثم كان الإوز قد ارتفع حالاً في العاصفة التي كانت تعصف بهم قبل خروجهم من البحر. ليس هناك راحة تسمح لأكّا أو للإوز الآخرين؛ كما ليس هنالك أيّ مشهد يبدو أمامهم – باستثناء البحر المقْفر. غطسوا في البحر مرة ثانية، بقدر ما يستطيعون من مغامرة. بعد انحسار الموجات فوق الصخور غلبهم النعاس، لكن حين ناموا جاءت طيور النورس سابحة. فإنْ لم تكن الإوزة أكّا مستيقظة، فلنْ يستطيع أحد من الإوز الهروب.

بقيت العاصفة محتدمة طيلة النهار؛ وقد سببت دماراً مخيفاً بين مجموعة كبيرة من الطيور الصغيرة التي تهاجر في مثل هذا الوقت من السنة. بعضها ينحرف من اتجاهه إلى بلدان أجنبية، حيث تموت من الجوع؛ والآخرون ينهكهم الإرهاق، لذا فإنهم يغوصون في أعماق البحر حيث يلقون حتفهم غرقاً. والكثير منهم ينسحقون في جدران الكهوف، ومنهم أيضاً من يتحول إلى ضحية لطيور النوارس.

استمرت العاصفة طيلة النهار، وشرعت أكّا تتساءل إنْ كان سربها قد هلك، لكنهم الآن أهلكهم التعب، لم يجدوا أيّ مكان ربما يستريحون فيه. مع اقتراب المساء لم تتجرأ أكّا طويلاً لتستلقي على سطح البحر؛ الذي امتلأ فجأة بكرات ثلجية كبيرة، راحت تصطدم إحداها بالأخرى، وخشيت أكّا أنّ ينسحق الإوز البرّي بين الطوفان الجليدي. بعد وقت قليل، حاول الإوز البريّ الوقوف فوق قشرة من الثلج؛ لكنْ لأول مرة اكتسحتهم عاصفة وحشية وألقت بهم في الماء؛ والمرة الثانية جاء طائر النورس الذي لا يعرف الرحمة زاحفاً على

الجليد.

في وقت الغروب كان الإوز البرّي قد صعد في الهواء إلى الأعلى مرة أخرى، كانت ليلة مخيفة. وبدأ يلفهم الظلام سريعاً جدّاً لأنهم كانوا مرغمين على البقاء على البحر طيلة الليل. وهم إما يسحقون بين الجليد الطافي، وإما تلتهمهم النوارس، أو بالأحرى تفرّقهم العاصفة.

كانت السماء تزيّنها الغيوم، أخفى القمر نفسه، خيّم الظلام فجأة. في الوقت ذاته امتلأت الطبيعة كلها رعباً بعث في القلوب الشجاعة والهلع والخوف. كما أرعب الطيور المهاجرة. راحت الأصوات تسمع في أجواء البحر طيلة النهار بكامله ولا أحد يعير أدنى اهتمام لهم؛ لكنّ الآن، فإن هؤلاء الذين تحدثوا معهم لنْ نجد لهم أثراً، وبدوا حزانى وخائفين. في أسفل البحر كان اندفاع الجليد يسحق بعضه البعض وبضوضاء صرير عالية. راحت النوارس تطلق ألحانها عالياً، أغاني الصيد الوحشية. كما لو أنّ السماء والأرض على وشك الاصطدام.

الشياه

جلس الصبي للحظات يحدّق في البحر. وفجأة انتبه إلى أنّ البحر شرع يزأر بصوت عال جدّاً. حدّق أمامه تماماً – لعدّة أمتار فقط – ثمة منحدرات جبل عالية وخشنة. على قاعدتها راح الموج يندفع ويتحوّل إلى رغوة تشبه الرذاذ. حلّق الإوز البرّي باستقامة باتجاه الكهف، لمْ ير الصبي كيف تجنبوا الاندفاع، وكادوا أنْ يكونوا قطعاً أمامه. لمْ يندهش أنه يرى أنّ أكّا لمْ تر الخطر في الوقت المحدد أكثر منْ أنْ ترى أنهم كانوا فوق الجبل. ومنْ ثمّ لاحظ هو أيضاً أنّ أمامهم مدخل قوس يؤدي إلى غار، تحرك الإوز البرّي باتجاهه. في اللحظة القادمة كانوا في منجى من الخطر.

كان أول شيء فكر الإوز البرّي فيه – قبل منح أنفسهم وقتاً للاحتفال بنجاتهم – هو أنْ يرى إنْ كان رفاقهم أيضاً قد أووا جميعاً. نعم كانت أكّا، وإكسي، وكولمي، ونيليا، وفييزي، وكيوسي، وجميع فراخ الإوز، ذكر الإوز، ودونفين، وثمبيتوت؛ لكن كاكسي من نيوليا المساعد الأول للإوز من اليسار كانت مفقودة، لا أحد يعرف أيّ شيء عنْ قدرها. حين اكتشف الإوز البري أنه ليس هناك من انفصل عن السرب باستثناء كاكسي، اتخذوا الموضوع باستخفاف. كانت كاكسي عجوزاً حكيمة. كانت تعرف أساليبهم وعاداتهم، كانت، بالطبع، تريد معرفة كيف تجد طريقها لتعود إليهم.

أخذ الإوز الآن يبحث حول الكهف. جاء ضوء كاف تخلل الفتحات، وكان بإمكانهم أنْ

يروا فوهة الكهف التي كانت عميقة وواسعة. وهنّؤوا أنفسهم في أنْ يجدوا ميناء جميلاً في مثل هذه الليلة الجميلة، حين لمح أحد أفراد السرب ضوءاً مشعّاً، ونقاطاً خضراء، تلمع في زاوية مظلمة. صرخت أكّا!: «تلك عيون! وهناك حيوانات كبيرة». اندفعوا باتجاه الفتحة، لكن ثمبيتوت ناداهم «ليس هناك ما يستدعي الهروب بعيداً! إنها شياه قليلة مستلقية على طول منحدرات الكهف».

حين تعايش الإوز البرّي مع الضوء الخافت في الكهف، كانوا يرون الشياه بوضوح، ربما يبلغ عدد هذه الشياه عدد الإوز؛ إلى جانب ذلك، هناك عدد قليل من الحمْلان. وظهر هناك كبش ذو قرون طويلة ومتحركة، يبدو أنه متغطرس على بقية القطيع. خطا الإوز البرّي أمامه وانحنوا له انحناءة كبيرة. وحيّوه: «منْ بالغ سرورنا أنْ نلتقي في البرّية!». هكذا حيوه، لكنّ الكبش الكبير بقي مستلقياً في مكانه. لم ينبس بكلمة ترحيب بهم.

ومن ثم فكر الإوز البري أنّ الشياه كانت غير مسرورة لأنها قد اتخذت حماية لها في الكهف. قالت أكّا: «وجودنا هنا ليس مقبولاً ربما؛ لكنْ لا نستطيع أنْ نفعل غير ذلك. لأنّ الريح تدفعنا. وإننا نتجول حول العاصفة كل يوم، وسيكون من الأفضل السماح لنا بالتوقف هنا هذه الليلة». بعد ذلك سيكون هناك توقف طويل قبل أنْ تنبس أيّ من الشياه بكلمة ردّ؛ لكن من الجانب الآخر، يمكن أنْ نسمع بوضوح واحدة أو اثنتين تتأوّهان. عرفت أكّا، أنه من المؤكد، أنّ الشياه دائماً ما يلفّها الخجل الغريب؛ لكن هذا يبدو أنْ ليس هناك أيّة فكرة عن كيفية إدارة أنفسهم. وأخيراً، هناك نعجة كبيرة، لها وجه طويل مثير للشفقة ووجه حزين قالت: «ليس هناك أحد منْ بيننا يريد بقاءك هنا؛ لأن هذا البيت هو بيت عزاء، وإننا لا نستقبل فيه الضيوف، كما هو الحال في الأيام الماضية». قالت أكّا: «لا تدعي ذلك يقلقك. إذا كنت تعرفين ماذا نتحمل نحن هذا اليوم، فإنه من المؤكد أنْ تعرفي أننا مقتنعون إنْ حصلنا على مكان بسيط آمن ننام فيه فقط».

عندما قالت أكّا ذلك، رفعت النعجة الكبيرة رأسها: «أعتقد أنه من الأفضل لك أنْ تطيري في أسوأ عاصفة منْ أنْ تتوقفي هنا. ولكن، على الأقل يجب ألا تذهبي منْ هنا قبل أنْ نتشرف في أنْ نقدّم أفضل ضيافة يمكن أنْ يتحملها المنزل».

قادتهم إلى فضاء كان مليئاً بالماء. إلى جانبه تقع كومة... قشور، وقش. وجعلت منْ كل ذلك فراشاً للنوم. قالت: «سيأتينا في الجزيرة هذه السنة شتاء ثلجي قاسٍ. كان المزارعون الذين يملكون هذه الأرض يزودوننا بالعلف والقش، لذا فإننا لنْ نموت جوعاً في هذه الحياة. وإنّ

كل هذه النفايات تُركت لنا في أحسن الأحوال...».

اندفع الإوز إلى تناول الطعام حالاً. كانوا يعتقدون أنهم أصابوا نجاحاً، كانوا في أفضل أمزجتهم. وعليهم أنْ يلاحظوا، على كل حال، أنّ الشياه كانت متلّهّفة، لكنهم أدركوا كمْ من السهل إخافة الشياه دائماً. لم يصدقوا أنّ هناك خطراً محدقاً بهم. حالما انتهوا منْ طعامهم، استعدوا للنوم كما هي عادتهم دائماً. لكن الآن نهض الكبش الكبير ومشى يقصدهم. اعتقد الإوز أنهم لم يروا نعجة بمثل هذا الحجم وهذه القرون الخشنة. وعلى صعيد آخر، فقد كان ما يلفت النظر أيضاً هو جبهته المرتفعة والمستديرة، وعيناه البراقتان، ومشيته المتباهية كما لو أنه شجاع متباهٍ.

قال الكبش: «إنني لا أستطيع استئناف مسؤولية تحمّل بقاء الإوز من دون إخباركمْ أنّ المكان هنا غير آمن. وإنّنا لا نستطيع استقبال الضيوف ليلاً الآن». أخيراً، بدأت أكّا تدرك أنّ كلامه هذا جاد. قالت: «إننا سنغادر، طالما تتمنى ذلك حقّاً». وأردفت: «ولكن ألا أخبرتنا أولاً، ما هي مشكلتكم بالضبط؟ فإننا لا نعرف عنها شيئاً. كما لا نعرف أين نحن الآن». قال الكبش: «هذه بلاد كارل الصغير. وتقع خارج مدينة غوتلاند، وتعيش هنا الشياه والطيور البحرية فقط». قالت أكّا: «ربما أنتم شياه برية». «إننا لسنا بعيدين من هنا». رد الكبش عليها: «إننا لسنا بعيدين عن غوتلاند من هنا، وليس لدينا ما نفعله مع الكائنات الإنسانية، وهناك اتفاقية قديمة بيننا وبعض الفلاحين في الحقل في غوتلاند. وعلى وفق هذه الاتفاقية فهم يزودوننا بالعلف في حالة نزول الثلوج في موسم الشتاء؛ وفي حالة التعويض يسمح لهم في إبعاد أولئك الذين يفيضون عن الحاجة. لأن الجزيرة صغيرة، لذا، فإنها لنْ تستطيع تغطية إطعامنا لمدة عام. أو بالأحرى، يجب أنْ نهتم بعنايتنا لسنة كاملة، وينبغي ألا نسكن في المنازل التي تحتوي على أبواب بالأقفال، وإنما في الكهوف التي تشبه هذه المنازل».

وسألتْ أكّا باندهاش: «وهل تمكثون هنا في الخارج في موسم الشتاء أيضاً؟».أجاب الكبش: «نعم، ولدينا علف جيد هنا فوق الجبل طيلة السنة». قالت أكّا: «يبدو كما لو أنكم أفضل من الشياه الأخرى، لكن ماذا لو أصابتكم مصيبة؟ إذ كان برد قارس في الشتاء الماضي، فجمّد حتى البحر، وجاءت ثلاثة ثعالب فوق الجليد، وبقيت هناك منذ ذلك الحين. أو بالأحرى، ليس هناك حيوانات خطيرة في الجزيرة. وهل الثيران تتجرأ على مهاجمتكم؟». قال الكبش وهو يهزّ قرنيه: «أوه، كلا! ليس في النهار، حيث أستطيع أنْ أحمي نفسي

وشياهي، لكنهم يتسللون إلينا في الليل حين ننام في الكهوف. ونحاول أنْ نحترس لنبقى مستيقظين، لكن لا بد منْ أنْ ينام الحيوان لبعض الوقت؛ وسبق لهم أنْ هجموا علينا، وقتلوا منذ زمن قصير الشياه في الكهوف جميعاً، وهناك قطعان بحجم شياهنا».

قالت النعجة العجوز: «إنه لا يسرّنا القول إننا لا نحب مساعدة الآخرين، إننا لندافع عن أنفسنا أفضل مما لو كنّا شياهاً برّية». وسألت أكّا: «هل تعتقدين أنهم سيأتون هذه الليلة؟». أجابت النعجة العجوز: «لمْ يعد لدينا أي شيء في المخزن. كانوا هنا الليلة الماضية، وسرقوا منا خروفاً، إنهم بالتأكيد سيعودون، طالما بقي أحد منا حيّاً، وهذا ما سيفعلونه في الأماكن الأخرى». قالت أكّا: «إنهم سيستمرون على هذا السلوك، حتى تنقرضوا من الوجود تماماً». تأوّهت النعجة: «أوه! لنْ يطول الوقت قبل أنْ تنتهي آخر شاة في جزيرة كارل الصغيرة».

وقفت أكّا هناك مترددة. إنه من العبث أنْ يكون هناك مشهد ممتع للمغامرة في العاصفة مرة أخرى، وليس من المستحسن البقاء في بيت حيث نتوقع مثل هؤلاء الضيوف. حين تأمّلت لفترة قصيرة، التفتت إلى ثمبيتوت وقالت: «إنني أتساءل إنْ كنت تساعدنا كما كنت تفعل دائماً». أجاب: «نعم». إنه سيفعل ذلك. قالت الإوزة البرية: «إنه لمن المؤسف حقّاً أنك لم تنمْ طيلة هذا الوقت! لكنني أتساءل إنْ كنت قادراً أنْ تبقى مستيقظاً حتى مجيء الثعالب، كي توقظنا، وكي يكون بإمكاننا الطيران». لم يكن الصبي سعيداً جدّاً بهذا؛ ولكنْ أيّ شيء هو أفضل من الخروج إلى العاصفة مرة ثانية، وهكذا فقد أقسم أنْ يبقى مستيقظاً. وذهب إلى فتحة الكهف زاحفاً خلف صخرة، ربما يحتمي بها من العاصفة، وجلس هنالك يراقب.

حين كان الصبي جالساً هناك لفترة، خفّت العاصفة بعض الشيء، وصحت السماء وراح ضوء القمر يلعب بين الغيوم. خطا الصبي إلى الفضاء ليتطلّع إلى ذلك المشهد. كان الكهف إلى حد ما في أعلى الجبل. هناك منعطف ضيّق وحاد يؤدي إليه. ومن المحتمل هنا أنه عليه انتظار مجيء الثعالب.

حتى الآن لم ير أيّاً من الذئاب؛ ولكنْ، من الجانب الآخر، هناك شيء ما قد أرعبه كثيراً للحظات. هناك، في الأسفل مقطع من الأرض، ويقف أسفل الجبل بعض العمالقة؛ أو بالأحرى، هناك صيادون أو ربما هناك فعلاً مخلوقات إنسانية. فكر في البداية أنّه كان يحلم، لكنه الآن كان متأكداً أنه لمْ يكنْ نائماً أبداً. شاهد رجالاً كباراً، لذا فإنه من المؤكد أنه لم يكنْ واهماً. بعضهم كان واقفاً على مقطع صخرة، والآخرون تماماً فوق منحدر الجبل كما لو أنهم يريدون أنْ يتسلقوه، بعضهم رؤوسهم كبيرة، الآخرون ليس لديهم رؤوس على الإطلاق،

بعضهم له ذراع واحدة، وبعضهم لديهم حدبات أمامية وخلفية. لمْ يسبق له أنْ رأى في حياته شيئاً استثنائياً جدّاً مثل هذا.

كان الصبي يقف هناك، وقد أصيب بذعر غير مسبوق في حياته بسبب هؤلاء الأقزام، ونسي في الغالب فتح عينيه لمراقبة الثعالب. لكنه الآن سمع خربشة مخالب ورأى ثلاثة ثعالب قادمة من منحدر الجبل. وفوراً عرف أنّ لديه شيئاً حقيقياً يتعامل معه، لكنه خلد إلى الراحة مرة ثانية، لكنْ لم ينتبه أيّ خوف البتة. وشعر أنه من المؤسف أنْ يوقظ الإوزات إشفاقاً عليهنّ فقط ويترك الشياه إلى قدرهنّ. ورأى أنْ ينظم الأشياء بطريقة أخرى.

ركض بسرعة إلى النهاية الأخرى من الكهف، وهزّ قرني الكبش الكبيرين إلى أنْ استيقظ، في الوقت ذاته تأرجح على ظهره. قال: «اصْعد، يا بابا، ودعنا نجرّب إخافة الثعالب قليلاً».

حاول أنْ يكون أكثر هدوءاً قدر الإمكان، لكنّ الثعالب قد سمعت بعض الضوضاء؛ حينما صعدت إلى فم الكهف توقفت وبتعمد. قال أحد الثعالب: «إنه من المؤكد أنّ هناك منْ يتحرك، إنني أتساءل إنْ كان قد استيقظ». قال ثعلب آخر: «فقط تقدم إلى الأمام، وفي كل الأحوال، لا يمكنهم القيام بأيّ شيء ضدنا».

حين اقتربوا أكثر نحو الكهف، توقفوا، وراحوا يتشممون. وهمس الذي كان يقودهم: «من الذي سيكون عشاءنا هذه الليلة؟». قال الثعلب الأخير: «هذه الليلة سنتعشى بالكبش الكبير، وبعد ذلك، ستسهل العملية علينا مع البقية».

ركب الصبي على ظهر الكبش الكبير، وشاهدهم كيف يتسللون واحداً بعد الآخر. ثم همس: «والآن انطح مباشرة نحو الأمام». ونطح الكبش، وكان الثعلب الأول قد اندفع – فوق الذيل تماماً – وعاد إلى الفضاء. قال الصبي وهو يلوي رأس الكبش في ذلك الاتجاه: «والآن انطح نحو اليسار».

وقام الكبش بهجوم رائع. استطاع الإمساك بالثعلب الثاني على الجانب. وتدحرج مرات عديدة قبل الوقوف على قدميه ليستطيع الهروب. وقد تمنى الصبي على الثعلب الثالث أن يقع في الفخ أيضاً. لكنه هرب مسرعاً.

قال الصبي: «والآن أعتقد أن هذه الثعالب تكفينا لهذه الليلة». ووافقه الكبش الكبير: «أتفق معك تماماً. والآن سأستلقي على ظهري، وأنت ازحف بين الصوف! إنك تستحق دفْأه وراحته. وبعد كل ذلك، فإنّ الريح والعاصفة اللتين كانتا تهبّان عليك قد ولّيا».

حفرة الجحيم

في اليوم التالي راح الكبش الكبير يتجوّل والصبي على ظهره، وقد أراه الجزيرة التي تحتوي على جبل واحد هائل، يشبه بيتاً ذا جدران وسطحاً مسْقوفاً. صعد الكبش أولاً على الجبل وأطلع الصبي على مساحات أراضي رعْي جيدة هناك؛ ولكنْ عليه أنْ يعترف أنّ الجزيرة تبدو كما لو أنّها صممتْ خصيصاً للشياه. وليس هنالك أكثر منْ عشب حمّيْض للأغنام وقليل من النباتات ذات الطعم الحار اللاذع إلى حد ما، بينما تستمتع هذه الحيوانات بهذه النباتات المولعة بها.

لكنْ في الحقيقة يوجد شيء ما إلى جانب علف الحيوانات لنشاهده، هناك علف آخر هو أفضل منْ هذا العلف فوق الجرف الصخري. هناك امتداد هائل للبحر الذي كان مرئياً – إنه يمتد الآن بلونه الأزرق وتنعكس عليه أشعة الشمس، وينبسط إلى الأمام بتضخم متألق –. وهناك أيضاً الرغوة التي ترش نحو الأعلى برذاذها. ومنْ جهة الشرق يمتد الساحل الطويل؛ أما منْ جهة الجنوب فتقع جزيرة كارل العظيم، التي بنيْت على نمط مخطط الجزيرة الصغيرة نفسه. حين يمشي الكبش على حافة سطح الجبل، فإنّ الصبي يستطيع تسليط نظره إلى أسفل منحدرات الجبل هناك ويشاهد بط الأمواج المتكسرة. وقد لاحظ أنها مليئة ببساطة بأعشاش الطيور؛ وفي أسفل البحر يتعايش ما يسمى الأسقطور وبط العيدر وفراخ البط، والنوارس، وطيور الغلموت، وطيور أبو موس – جميل ومسالم – ويشغلون أنفسهم بصيد الأسماك الصغيرة.

قال الصبي: «هذه أرض مفضّلة حقاً، إنكم أيّها الشياه، تعيشون في مكان جميل». قال الكبش الكبير: «أوه، نعم! إنها جميلة بما فيها الكفاية». قال هذا، وكما لو أنه يرغب أنْ يضيف شيئاً؛ لكنه لم يفْعلْ، وتأوه فقط. وقد حذّر بعد توقف: «فإنْ تجوّلت هنا في هذا المكان وحدك، فإنك ستشاهد الشقوق والتصدعات التي تحيط بالجبل». وحذره أيضاً بعد أنْ توقف ويعد هذا تحذيراً جيداً، لأنّ هذه التصدّعات والشقوق العميقة تحيط كثيراً من الأماكن. وأكبرها يطلق عليه حفرة جهنم التي لها أعماق كثيرة ويبلغ عرضها تقريباً ستة أقدام. قال الكبش الكبير: «فإذا سقط أحد ما هناك، فإنه من المؤكد أنك لنْ تجد له أثراً». وفكر الصبي ويبدو كما لو أن في داخله تعبيراً خاصاً يريد أنْ يقوله.

بعد ذلك قاد الصبي إلى شريط ضيّق على الشاطئ. إذ بإمكانه رؤية أولئك العمالقة الذين أرعبوه الليلة الماضية، على مسافة قريبة. والذين لا يتجاوز طول أحدهم أكثر منْ عمود

صخري. أطلق عليهم الكبش الكبير تسمية «الصخور» لكنّ الصبي لم يشاهد بما فيه الكفاية. فكر إنْ كان يوجد هناك أيّ من الأقزام الذين قد تحوّلوا إلى صخور، فإنّهم لا بد وأن يكونوا تماماً هكذا.

رغم أنّ الشاطئ في الأسفل كان جميلاً، وأحبه الصبي أكثر منْ قمة الجبل، إلا أنه كان هناك ما يشبه الأشباح في أسفل الجبل؛ ومنْ أيّ مكان يأتون فهم يمرون عبر شياه ميتة. هنا في هذا المكان يقوم الذئاب بممارسة طقوس عربدتهم، فهنا يرى الصبي هياكل عظمية قد أكل لحمها، وأجساماً أكل نصف لحمها، وأخرى من النادر جداً أنْ يتذوقها حيوان ما. وهناك قلوب ممزقة قد تركتها الحيوانات الضارية للشياه، للعب بها، وقد صادتها فقط لتمزيقها حتى الموت.

لم يتوقف الكبش الكبير أمام الموت. لكنه راح يمشي بين الجثث بصمت. ولكنه، في هذه الفترة لا يمكنه مشاهدة كل هذا الرعب.

بعد ذلك شرع الكبش الكبير بالصعود إلى الجبل مرة ثانية. حين كان هناك توقف وقال: «إنْ كان شخص ما قادراً وعاقلاً بإمكانه أنْ يرى كلّ هذا البؤس الذي يسود هنا، فمن المؤكد أنه لنْ يقدر أنْ يستريح حتى تعاقب كل تلك الثعالب». قال الصبي: «لكنْ على الثعالب أنْ تعيش أيضاً». اعترف الكبش الكبير: «نعم، لكنْ على تلك الثعالب ألا تمزق تلك الحيوانات إرباً إرباً أكثر منْ حاجتها للاستمرار في الحياة. وربما تعيش حياة أفضل باستثناء تلك التي تمارس الجريمة». أوضح الصبي: «إنّ الحيوانات الوحشية التي تسيطر على الجزيرة عليها أنْ تأتي إلى هنا وتساعدك». أجاب الكبش: «إنها تتشاجر في أحايين كثيرة». قال الكبش الكبير: «لكن الثعالب غالباً ما تخفي نفسها في الكهوف والشقوق، لذا لا يمكن صيدها». وأردف: «أنت بالتأكيد لا تعني ذلك المخلوق الصغير المسكين منْ أمثالي الذي سيكون قادراً على النيل منهم، حيث لا أنت أو الفلاحين ينجح في الحصول على أفضلهم». وأردف الكبش الكبير: «فمخلوق صغير ورشيق بإمكانه أنْ يضع أشياء كثيرة في المكان الصحيح».

لمْ يتحدثوا أكثر منْ ذلك عنْ هذا الموضوع. وخطا الصبي وجلس بين الإوز البرّي، الذي كان يتناول طعامه على هضبة. ورغم أنّه لا يهتم بإظهار مشاعره للكبش، لكنه كان حزيناً على موضوعة الشياه وسيكون سعيداً بمساعدتهم. وفكر: «أستطيع على الأقل أنْ أتحدث مع أكّا ومورتن ذكر الإوز عن الموضوع. ربما بإمكانهم مساعدتي باقتراح إيجابي».

بعد قليل أخذ ذكر الإوز الأبيض الصبي على ظهره وعبر به سهْل الجبل باتجاه حفرة جهنم.

تجوّل بحذر على سطح الجبل العريض، وعلى ما يبدو لم يكن مدركاً كمْ هو واسع وأبيض. وما كان يطلب الحماية منْ أجمات أو سنامات، لكنه ذهب إلى الأمام مباشرة، إنه ذلك الشخص الوحيد الذي لا يعتني كثيراً. وإنه لمن الواضح أنه هو الشخص الذي أصاب نجاحاً منْ هبوب العاصفة. وزحف على ساقه اليمنى وكان جناحه الأيسر معلّقاً، ويزحف كما لو أنه كان قد كسر.

تصرف كما لو أنه لم يكنْ هناك أيّ خطر ينقر بين الأعشاب مرة هنا ومرة أخرى هناك. لا ينظر منْ حوله في أيّ اتجاه. واستلقى الصبي على طول استقامته على سطح العشب، ونظر نحو الأعلى باتجاه السماء الزرقاء. كان متآلفاً مع الركوب الآن على ظهر الإوز واقفاً أو ممدداً.

بينما كان ذكر الإوز والصبي مبتهجين، لم ينتبها بالطبع، إلى أنّ الثعالب الثلاثة قد صعدت إلى سهل الجبل.

أما الثعالب التي عرفت أنه من المستحيل عليها تقريباً خطف حياة إوزة على سهل مفتوح، فكرت تلك الذئاب بداية أنها لنْ تطارد ذكر الإوز. لكنْ لأنها ليس لديها بديل آخر، فإنها أخيراً تسلّلت إلى أسفل السهل وصولاً إلى الشقوق الطويلة محاولة سرقته. وتجوّلت هناك بحذر، ولم يتمكن ذكر الإوز أنْ يرى حتى ظلالها.

لم تكنْ تلك الثعالب بعيدة حين قام ذكر الإوز بمحاولة إنهاض نفسه ليطير في الهواء. فقد نشر جناحيه، لكنه لمْ يتدبر أمره في الطيران في الهواء. وحين بدت الثعالب على وشك الإمساك به لأنه لم يستطع الطيران في واقع الأمر، فإنها سارعت إلى الأمام بلهفة قوية أكثر من السابق. لمْ تخفِ الثعالب نفسها فترة طويلة في الشقوق، حتى صعدت أعلى الأرض المرتفعة. وهرعت بأسرع ما يمكنها خلف الرابية والتجويف، مقتربة أكثر فأكثر من ذكر الإوز– وبدون أنْ يبدو أنه قد لاحظ أنّه قد وقع في الفخ. وأخيراً كانت الثعالب قريبة جداً ولم يكن أمامها سوى قفزة واحدة للإمساك بذكر الإوز.

لكن حتى اللحظة الأخيرة فإنه يجب أنْ يلاحظ شيئاً ما، لأنه هرب في الطريق، وقد أخفقت تلك الثعالب في الإمساك به. وهذا، على كل حال، لا يعني الكثير جداً، وما يتعلق بذكر الإوز فأمامه بضعة أمتار للتحرك إلى الأمام، في هذه الصفقة الرابحة، قفز إلى الأمام، وتقدّم. وعلى

كل حال، فإنّ الحيوان المسكين هرب بأسرع ما يمكن.

جلس الصبي على ظهر ذكر الإوز– من الخلف، وصرخ منادياً تلك الثعالب: «إنكم تأكلون كي تسمنوا على لحم الضأن، أيها الثعالب، إنكم لا تستطيعون حتى الإمساك بالإوز». وقد مازحهم بسخرية حتى ثار جنونهم وغضبهم وراحوا يفكرون فقط بالاندفاع إلى الأمام فقط.

جرى الثعلب الأبيض إلى الأمام مباشرة إلى الشق الكبير؛ حيث كان وجاره، وبخفقة واحدة منْ جناحيه كان قد حلّق. في هذه اللحظة جاء الذئبان الآخران.

راح ذكر الإوز يجري بالسرعة السابقة ذاتها، حتى بعد وصوله أمام حفرة جهنم. ولكن هنا، كان من الصعوبة عليه الجري مسافة خطوتين حين راح الصبي يربت على رقبته، قال له: «والآن تستطيع أن تتوقف، أيّها الإوز الذكر».

في تلك اللحظة، سمعا عواء خلفهما وخربشة مخالب، وسقوطاً ثقيلاً. لكنْ لم يريا أيّ شيء.

في صباح اليوم التالي، وجد حارس فنار جزيرة كارل العظيمة، قشرة كوع تحت مدخل الباب وفوقها حروف مائلة منحوتة كتب في زاويتها هذه العبارة: «سقطت ثعالب الجزيرة الصغيرة في حفرة الجحيم. فاحذر منهم...».

وقد أكد حارس الفنار هذا أيضاً...

الفصل الرابع عشر
مدينتان

مدينة تحت البحر

السبت، التاسع منْ نيسان/ أبريل.

كانت ليلة صافية وهادئة، الإوز البرّي لا يزعج نفسه في البحث عن حماية في أيّ من الكهوف، لكنه ينام على قمة الجبل؛ أمّا الصبي فقد استلقى على العشب القصير الجاف إلى جانب الإوز.

كان القمر مضيئاً وبرّاقاً في تلك الليلة إلى حدّ لم يستطعْ معه الصبي الذهاب إلى النوم في الأسفل. استلقى هناك مندهشاً؛ وبدا له أن وقتاً طويلاً مضى على مفارقته بيته، وحسب المدة فإذا هي ثلاثة أسابيع منذ ابتدأ رحلته، وتذكّر أن انطلاقتها كانت عشية عيد الفصح.

وهذه الليلة بالذات جاءت جميع الساحرات إلى البيت من بلاكولا «Blakola» فكر وهو يضحك على نفسه. لأنه كان خائفاً قليلاً على نفسه من شبح الماء والقزم، إلا أنه ما كان يؤمن بالساحرات.

فإن كانت ثمة ساحرات في الخارج في تلك الليلة، فيجب أنْ يراهن كيْ يتأكد من وجودهن. كان الضوء مشعاً في السماء ولا شائبة سوداء تتحرك في الهواء لها أن تعيق الرؤية.

بينما كان الصبي مستلقياً هناك ومشنّفاً أنفه في الهواء ومفكراً، لمح شيئاً رائعاً! كان وجه القمر كاملاً، ومستديراً، وعالياً إلى حدّ ما. حطّ فوقه طائر كبير، لمْ يتجاوز القمر في طيرانه، لكنه تحرك كما لو أنه جاء طائراً من القمر ذاته. وبدا الطائر أسود أمام خلفية ضوء القمر يمتد جناحاه منْ حافة قرص القمر إلى الحافة الأخرى. كان يطير باعتدال، في الاتجاه ذاته، فكر الصبي أنّ ذلك هو نوع من الصباغ على وجه القمر. حجم صغير، والرقبة طويلة ونحيفة، والساقان طويلتان وخفيفتان، معلقتان نحو الأسفل.

لا يمكن أنْ يكون هذا الطائر أيّ شيء آخر غير طائر اللقلق.

بعد ثوان حطّ اللقلق السيد إيرمينرج إلى جانب الصبي، انحنى نحو الأسفل ولكزه بمنقاره لإيقاظه.

استيقظ الصبي فوراً وقال: «لم أكنْ نائماً يا سيد إيرمينرج. كيف تسنى لك أنْ تخرج في منتصف الليل، وكيف الحال في قلعة غلمينغه كلها. وهل تتحدث مع الأم أكّا؟».

أجاب السيد إيرمينرج: «إن ضوء هذه الليلة ساطع، وهذا ما منعني من النوم تماماً. لذلك قررت الطيران فوق كارلسلاند للبحث عنك، يا صديقي، ثمبيتوت. وقد علمت من طائر النورس أنك تقضي ليلتك هنا. لم أنتقل حتى الآن إلى قلعة غلمينغه. لكن ما زلت أسكن في بوميرن».

كان الصبي مبتهجاً للغاية وببساطة الحديث مع السيد إيرمينرج الذي كان يبحث عنه. ودردشا بكل أنواع الأحاديث كأصدقاء قدماء. أخيراً سأل اللقلق الصبي إنْ كان لا يحب أن يمتطي ظهره لفترة قصيرة للخروج في هذه الليلة الجميلة.

«أوه، نعم!». إن الصبي يريد الخروج فعلاً إذا كان اللقلق يرتب ليمتطي ظهره ويعود به إلى الإوز البرّي قبل بزوغ الشمس، وأقسما على السفر حالاً.

مرة أخرى طار السيد إيرمينرج باستقامة باتجاه القمر. وراحا يرتفعان ويرتفعان؛ كان البحر يغوص تحتهما. لكن الطيران استمر خفيفاً وسهلاً إلى حد أن الصبي بدا له في الغالب كما لو أنه كان مستلقياً في الهواء.

حين شرع السيد إيرمينرج بالهبوط، فكر الصبي أن الطيران قد استمر وقتاً قصيراً غير معقول.

هبطا على شاطئ بحر مهجور مغطى بحصى جميلة، وعلى مدى الساحل تمتد كثبان رملية على قممها ينبت العشب. لم تكن تلك الكثبان مرتفعة جدّاً، لكنها تمنع الصبي من رؤية أي شيء في الجزيرة.

وقف السيد إيرمينرج على أحد الكثبان، رافعاً إحدى ساقيه، وأحنى رأسه إلى الخلف، وبهذا يستطيع أنْ يثبّت منقاره تحت جناحه. قال لثمبيتوت: «بإمكانك أنْ تتجول على الشاطئ لوقت قصير؛ بينما أخلد أنا للراحة، لكنْ لا تبتعد كثيراً عن الشاطئ كي لا تضيّع طريقك لدى عودتك».

وكي يبدأ الصبي، كان عليه أنْ يشرع بتسلق كثبان رملية ليرى كيف تبدو تلك الكثبان خلفه. لكن حين مضى بضع خطوات اصطدم إبهام حذائه الخشبي بشيء صلب. واصل سيره إلى الأمام ولاحظ قطعة نقود نحاسية ملقاة على الرمل. كانت تلك القطعة متآكلة ويحيطها

الزنجار، لكنها في الغالب كانت شفافة؛ هكذا فإنّ الصبي المسكين لم يكلّف نفسه وسعاً ليلتقطها، بل ركلها بإحدى قدميه فحسب.

حين استقام كان مشدوهاً تماماً، على مسافة خطوتين فقط منه ينتصب هناك جدار مظلم وقلعة كبيرة ذات أبراج عالية.

بعد لحظة، قبل أن ينحني الصبي أمام البحر المستلقي هناك – متلألئاً وناعماً، كان قد اختفى خلف جدار طويل بين أبراج وأسوار ذات فتحات يطلق منها النار. وأمامه مباشرة توجد ضفاف عشب بحري، وكان جدار البوابة مفتوحاً.

ربما فهم الصبي لعبة شبح؛ هكذا فكر الصبي، لكنْ هذا لنْ يخيفه أبداً، لم يكنْ هناك أي خطر من ساحرة أو قزم، أو أي شيطان، هكذا، إنّ مثل هذا الرعب يواجهه في الليل. كان بناء الجدار والقلعة جميلاً. كانت رغبته الوحيدة أنْ يرى ماذا سيكون خلفها. فكر: «ينبغي أن أكتشف ما هذا». ثم دخل إلى القلعة.

وفي داخل القوس الكبير كان هناك حراس يرتدون بدلات عريضة منتفخة. وإلى جانبهم رماحهم ذات الأيدي الطويلة – جلسوا وراحوا يرمون مكعّبات النرد. كانوا يفكرون فحسب باللعبة، ولم يعيروا انتباهاً للصبي الذي أسرع متجاوزاً إيّاهم.

وقد وجد داخل القلعة فضاء مفتوحاً، مبلّطاً بحجر مستو كبير. وحولها صفوف من البنايات العالية المهيبة، تتخلل هذه البنايات شوارع ضيقة ومفتوحة. في الساحة – المواجهة للقلعة – تماماً حشد من الناس. الرجال يرتدون بدلات طويلة من الساتان وفوقها قبعات مصنوعة من الفراء؛ مزينة بالريش وتجلس منحرفة على رؤوسهم؛ وعلى صدورهم علّقت سلاسل رائعة. جميعهم يرتدون زيّ الملوك حتى يبدون أنّهم جميعاً ملوك.

أمّا النساء فهنّ يتبخترن بقبعات رؤوس عالية وأرواب طويلة وأكمام ضيقة. وهنّ يرتدين ملابس أيضاً جميلة ولكن روعتهنّ لا تقارن بالرجال.

هذا تماماً يشبه قصة كتاب – قديمة أخرجته الأم من الخزانة – ولمرة واحدة فقط – وعرضته عليه، ولمْ يصدق الصبي عينيه أبداً.

لكن ما كان أكثر إدهاشاً من الرجال أو النساء، هي المدينة نفسها. وكل بيت قد بني جزؤه الأعلى على شكل مثلث الأضلاع بمواجهة الشارع. والأضلاع المثلثة مزينة بطريقة رائعة

تجعل المرء يفكر أنه كان يجرب أنْ يمشط بعضها الآخر كي يظهر روعة ديكور جماله أكثر منْ غيره.

شاهد الصبي كلّ هذا، ولكن لا يستطيع المرء أنْ يخزن كلّ هذا في ذاكرته. لكن على الأقل يستطيع الصبي أنْ يتذكر سلّم الجملونات فوق مختلف الأرصفة التي حملت صور المسيح وحواريّيه؛ كانت الجملونات صوراً في مشكاة بعد مشكاة وعلى امتداد طول الجدار. تلك الجملونات أيضاً مرصّعة بألوان مزدوجة بقطع من الزجاج، كما كانت مخططة وذات مربعات من المرمر الأسود والأبيض. كان الصبي مندهشاً بكل ذلك، شعر بإحساس مفاجئ تسلّط عليه. «إنّ أي شيء مثل هذا لم تره عيناه من قبل أبداً. أي شيء مثل هذا لا يمكن أن تراه مرة ثانية». قال ذلك في نفسه. ثم راح يجري إلى المدينة، ثم صعوداً إلى الشارع، ومن ثم إلى شارع آخر.

كانت الشوارع مستقيمة، لكنها لم تكنْ ضيقة وكئيبة، كما هو الحال في المدن التي قد ألفها. هناك أناس في كل مكان. نساء، عجائز يجلسن أمام الدور المفتوحة، وينسجن من دون عجلة نسيجاً – فقط بمساعدة المغزل أو المكوك. أمّا محلات التجار فهي تشبه أكشاك الأسواق – مفتوحة في مواجهة الشوارع، ويتواجد جميع الحرفيين خارج بيوتهم. ففي المكان الأول يقومون بغلي الزيت الخام؛ وفي المقام الثاني يقومون بدباغة الجلود، وثالثاً، يقومون بلعبة الحبال الطويلة.

فإنْ كان لدى الصبي وقت كاف، فبإمكانه أنْ يتعلم جميع تلك الأعمال. لقد شاهد هنا كيف تصْنع أسلحة النحاس، وكيف تقوم المطارق بتليين الحديد، وكيف تصْنع الدروع؛ وكيف يصوغ الصاغة من الأحجار الكريمة المحابس والأساور؛ وكيف يقوم الإسكافيون بصناعة الأحذية الحمراء، وتليينها، وكيف يقوم النّساجون بتطريز الفضة والذهب في ملابسهم.

لكنّ الصبي ليس لديه الوقت الكافي للتريّث، وانطلق مندفعاً للمدينة مرة أخرى؛ ربما يرى المزيد قدر ما يتوافر له الوقت، قبل تلاشي كل شيء.

كان السياج العالي يمتد حول المدينة ويسيّجها كما طوق حقل زراعيّ. ورآها في نهاية كل شارع– الجملونات المزخرفة والمحزّزة. ففي أعلى قمة السياج يمشي محاربون بأسلحتهم اللمّاعة؛ حين جرى من نهاية المدينة إلى النهاية الأخرى، اقترب من بوابة أخرى في الجدار.

وعبرها يستلقي البحر والميناء معاً. شاهد الصبي سفناً قديمة، وبمقاعد تجذيفها تمتد إلى الأمام مباشرة، فضلاً عن هياكل عالية في الأمام والخلف. بعضهم يستوفي رسوم الشحن وبعضهم الآخر يقوم برمي المراسي. هناك حمّالون وتجار يسرعون ويتجاوز أحدهم الآخر. وكل شيء هناك يعجّ بالحياة والنشاط الصاخب.

لكن، حتى هنا ليس لديه الوقت الكافي للتريّث. واندفع نحو المدينة مرة أخرى؛ والآن وصل إلى ساحة كبيرة؛ حيث تنتصب الكاتدرائية بأبراجها الثلاثة العالية وأقواسها المحدّبة والمليئة بالصور. أمّا جدرانها فمزينّة بثراء بمنحوتات وليس هناك أيّة حجرة لا تحتوي على زخرفتها الخاصة. وها هو العرض الرائع للصلبان المطلية بالذهب، وتماثيل المذابح المطلية بالذهب أيضاً، والقسيسون بأرديتهم الذهبية اللمّاعة أمام القاعة المفتوحة! ومقابل الكنيسة مباشرة هناك دار سقفها مسنن ومنفرد بنحافته وبرجه مرتفع نحو السماء، وربما يرى بقدر ما يمكن قبل أن يختفي مرة ثانية. وبين المحكمة والكاتدرائية وحول كل الساحة، تقف هناك بيوت على شكل جملونات تتميز بتعدد زخرفتها.

راح الصبي يدفع نفسه راكضاً إلى الأمام نتيجة التعب وارتفاع حماسه. وقد اعتقد أنه الآن قد شاهد أغلب الأشياء الرائعة، وعلى هذا، شرع بالمشي بمتعة أكثر من دون جهد، كان الشارع الذي استدار بالتأكيد هو واحد من الشوارع التي يشتري منها المواطن ملابسه الجميلة. وقد رأى حشوداً من الناس واقفين أمام أكشاك صغيرة حيث ينشر التجار الأقمشة المطرزة والساتان الخشن، والملابس الذهبية الثقيلة، والحرير اللماع، والحجابات الرقيقة، والقلائد الشفافة كما نسيج بيت العنكبوت.

وقبل هذا، ركض الصبي مسرعاً جداً، ولا أحد يعير له أيّ انتباه. واعتقد الناس أنه كان مجرد فأرة رمادية صغيرة مندفعة بينهم. ولكن الآن، بينما هو يمشي باتجاه الشارع، باسترخاء، لمحه أحد الباعة، وشرع بإغرائه.

في البدء كان الصبي قلقاً وأراد أن يسرع خارج الشارع، لكنّ البائعين ابتسموا بوجهه لإغرائه، نشروا على المنضدة قطعة جميلة من الساتان الدمشقي، كمحاولة لإغرائه.

هزّ الصبي رأسه مفكراً: «لنْ أكون غنياً جداً بحيث أستطيع شراء ياردة واحدة من ذلك القماش».

لكنهم الآن راحوا يلمحونه في كل كشك، ويحاول الجميع إغراءه. تاركين سلعهم الثمينة،

راحوا يفكرون فيه فحسب. رأى كيف أنهم يسارعون إلى أغلب الزوايا المخفيّة للكشك ليجلبوا أفضل مبيعاتهم، وكيف أنّ أيديهم ترتجف بلهفة ويضعونها بسرعة على المنضدة.

حين همَّ الصبي للذهاب، قفز أحد التجار فوق المنضدة، وأمسكه، ومدّ أمامه قطعة قماش منسوجة من الفضة، وتشعّ بألوان متألقة.

لا يملك الصبي غير الضحك عليه. ولا بد أنّ التاجر فهم أنّ ذلك المخلوق الصغير المسكين لا يمكنه أنْ يشتري أيّ شيء منه. وبقي واقفاً ماسكاً بيديه الاثنتين الفارغتين، لذا عليهم أن يدركوا أنه لا شيء، وأن يتركوه يذهب بسلام.

لكن التاجر رفع إصبعه وانحنى ودفع له كومة من الأشياء الجميلة.

تساءل الصبي: «هل هو يعني بيع كل هذا بقطعة ذهب؟».

جلب التاجر قطعة نقود صغيرة مسْتهلكة لا قيمة لها – وهي أصغر قيمة نقدية في المدينة – وعرضها عليه. كان متلهفاً للبيع ليضاعف من ممتلكاته من كؤوس كبيرة وثقيلة.

راح الصبي يبحث طويلاً في جيوبه. وقد عرف، بالطبع، أنه لا يملك أيّة قطعة نقود، لكنه لا يملك السيطرة على مشاعره.

وقف جميع التجار هناك ليروا كيف أنّ البيع سيؤتي ثماره، وحين لاحظوا أنّ الصبي بدأ يبحث في جيوبه، قذفوا بنفوسهم نحو الطاولات، أخذوا حفنات من حلي الذهب والفضة، وعرضوها عليه. وعرضوا جميعهم عليه ما قد طلبوا مقابله وكان ذلك قطعة نقود واحدة فقط.

أعاد الصبي الصديرية والسروال إلى مكانهما، وأدركوا أنّه لا يملك نقوداً. وملأت الدموع عيون جميع هؤلاء التجار الملوكيين، إذاً، من ذا الذي أغنى منه. وأخيراً غادر لأنهم بدوا حزانى وتأملوا إنْ كان يستطيع مساعدتهم بطريقة أو بأخرى. وبعد ذلك أخذ يفكر بقطعة النقود المزنجرة، التي وجدها مؤخراً على ساحل البحر.

راح يجري في الشارع، كان الحظ يصاحبه، هكذا وصل إلى بوابة القلعة ذاتها التي دخلها أول مرة. وانطلق من خلالها، واستهل البحث عن قطعة النحاس الصغيرة التي وجدها على ساحل البحر قبل مدة قصيرة.

ووجدها، أيضاً، مباشرة؛ لكن حين التقطها وحاول أن يعود بها إلى المدينة – رأى البحر فقط أمامه. وليس هناك جدار للمدينة، ولا بوابة، ولا خفير، ولا شوارع، ولا مساكن يمكن رؤيتها

الآن، البحر أمامه فحسب.

لنْ يستطيع الصبي أنْ يحبس دموعه. وقد آمن في البداية أنّ كل الذي قد رآه كان مجرد سراب؛ وهكذا قد نسي كل شيء الآن، وفكر بالجمال الذي شاهده.

وسرعان ما عاد إلى واقعه الأصلي، رغم أنه شعر بحزن بالغ باختفاء المدينة الساحرة.

في تلك اللحظة. استيقظ السيد إيرمينرج، وجاء إليه. لكنه لم يسمعه. لكز اللقلقُ الصبيَّ بمنقاره ليجذب انتباهه: «أعتقد أنك وقفت هنا ونمت كما أنا تماماً». صرخ الصبي: «أوه، يا سيد إيرمينرج! أية مدينة تلك التي كانت منتصبة هنا الآن؟».

سأله اللقلق: «هل شاهدت مدينة؟! أعتقد أنك نمت، ثم حلمت، أليس كذلك؟».

قال ثمبيتوت: «كلا! لم أحلم أبداً». وأخبر اللقلق بكل التفاصيل التي مرّ بها.

ثم قال السيد إيرمينرج: «ما يتعلق بي، يا ثمبيتوت، أعتقد أنك غرقت في نومك هنا على الساحل وحلمت بكل تلك التجربة. لكنني لنْ أخفي عنك أنّ ذلك باتاكي، الغراب الأسود الذي يعرف كل الطيور هنا، قد أخبرني ذات يوم، أنّ هناك مدينة على ساحل البحر هذا، تسمى فينيتا. إنها غنية جداً ومحظوظة جداً أيضاً، ليس هناك مدينة تضاهيها في التألق؛ لكن ساكنيها، لسوء الحظ، كانوا متغطرسين جداً ويميلون إلى حب الظهور، وكعقوبة لهم، قال باتاكي إن مدينة فينيتا اكتسحها الفيضان وغرقت في البحر. لكن لم يمت ساكنوها. ولم تدمر مدينتهم. إنها تأتي عادة ذات ليلة كل مائة سنة، تنهض بكل روعتها من البحر وتبقى على سطحه مدة ساعة واحدة فحسب». لكن لم يمت سكانها. قال ثمبيتوت: «نعم كانت هكذا، هي تلك المدينة التي رأيتها».

«لكن حين جاءت ساعتها، غطست في البحر مرة ثانية، إذ لم يكن خلال ذلك الزمان أي تاجر في مدينة فينيتا قد باع كل شيء إلى مخلوق حيّ واحد. يا ثمبيتوت إذا كنت تملك قطعة نقد صغيرة جداً لتدفع بها إلى التجار، فربما ستبقى فينيتا هنا على الشاطئ؛ وسيستطيع سكانها العيش والموت مثل أي مخلوقات بشرية أخرى».

قال الصبي: «يا سيد إيرمينرج الآن أستطيع أن أفهم لماذا جئت أنت وجلبتني في منتصف الليل. لأنك تعتقد أنه بإمكاني إنقاذ المدينة القديمة. لكن يؤسفني جداً أنها لن تتحول تلك المدينة كما أردتها أنت، يا سيد إيرمينرج».

وغطى وجهه بيديه وراح يبكي. إنه من الصعوبة بمكان أن نقول من الذي يبدو أكثر بؤساً – الصبي أم السيد إيرمينرج.

المدينة الحيّة

الاثنين، الحادي عشر منْ نيسان/ أبريل.

في اثنين عيد الفصح كان الإوز البريّ يحمل تحت جناحه ثمبيتوت. مسافراً به إلى غوتلاند.

وتقع الجزيرة الكبيرة المصقولة تحتهما الآن. وكانت الأرض مربّعة كرقعة شطرنج كما هي «سكونه» وتتوزع فيها كنائس وحقول كثيرة.

اتخذ الإوز البرّي مساراً فوق غوتلاند كما يرى ثمبيتوت. ولمْ يكنْ خلال هذين اليومين على بعضه كما يبدو، ولم يتكلم بكلمة واحدة مرحة. كان هكذا لأنه لمْ يفكر بأي شيء كما بتلك المدينة التي بدت له بمثل هذه الطريقة الغريبة. لم ير شيئاً جميلاً مطلقاً كما لم يعد بإمكانه التوافق مع ذاته، لأنه قد أخفق في إنقاذها. لم يكنْ عادة رقيق القلب، لكنه الآن حزين جدّاً بسبب البنايات الجميلة والناس الأجلاء.

حاول كل من أكّا وذكر الإوز إقناع ثمبيتوت أنه كان ضحية حلم أو وهْم، لكنّ الصبي لم يعرْ اهتماماً لما يقولانه. كان متأكداً من ذلك لأنه شاهد فعلاً ما قد رأى بأم عينيه ولا يستطيع أحد أنْ يزعزعه عن قناعته هذه. وتجول على نحو بائس، ذلك أنه ليس من السهولة بمكان التعامل مع رفقاء السفر.

ففي الوقت الذي كان فيه الصبي كئيباً تقريباً، عادت الإوزة كاكسي العجوز إلى السرب. كانت تلهث في طريقها إلى غوتلاند. وأجبرت على الطيران للسفر فوق الجزيرة كلها قبل أنْ تعلم منْ بعض الغربان أنّ رفاقها في جزيرة كارل الصغير. وحين اكتشفت كاكسي سبب مشكلة ثمبيتوت قالت باندفاع:

«إذا كان ثمبيتوت حزيناً على المدينة القديمة، فإننا نستطيع وبسرعة أنْ نبعث في نفسه الراحة. تعالوا إليّ، وسآخذكم إلى مكان قد رأيته فيه يوم أمس! وسنزيل عنه كآبته هذه التي استمرت طويلاً».

كان الإوز في طريقه إلى المكان الذي رغبت كاكسي أنْ تريه إيّاهم. أزرق كما كان، ولا يمكنه أن يطل نحو الأسفل على أرض كان يسافر إليها كما اعتاد.

فكر أنها تبدو كما لو أنّ جميع الجزيرة كانت في البداية عالية تماماً، مثل انحدار كهف شبيهة بجزيرة كارل الصغير— ورغم أنها أكبر حجماً بالطبع. لكن بعد ذلك، كانت بطريقة ما مسطحة. ويستطيع المرء التدحرج كمسمار فوقها. وكما لو أنها كانت كتلة منْ عجين. تلك الجزيرة قد تحوّلت كلها إلى أرض مستوية، مثل خبز كعك. لكنها لم تكن مثل ذلك تماماً. وبينما كان يسافر عبر الساحل، فإنه قد شاهد هنا وهناك جدران كلس بيضاء اللون وكهوفاً وأنقاضاً، ولكن كانت في أغلب بقية الأمكنة أرضاً مستوية تماماً. والشواطئ غاطسة بتواضع باتجاه البحر.

وتمتعوا في جزيرة غوتلاند بعطلة مساء هادئ وسعيد. وتحول الجو إلى ربيع معتدل؛ فالأشجار كانت كبيرة ومبرعمة؛ وارتدت أزهار ربيع الأرض مروجاً خضراء؛ وحولها أشجار متسامقة ومتمايلة؛ أما الحدائق الصغيرة، فهي تنتشر حول كل الأكواخ، وكانت أعناب الثعلب تزهو مخْضرة.

أما دفء وبراعم الربيع فكانا يغريان الناس في الحدائق والطرق، ومهما كان عددهم فهم جاؤوا متزامنين مع الربيع، ليمارسوا الألعاب. ليس الأطفال وحدهم وإنما الكبار منهم أيضاً. فهم يرمون الأحجار إلى أهداف معينة، ويرمون بالكرات عالياً في الهواء، حيث كانت إلى حد ما تلامس الإوز البري. ويبدو هذا ممتعاً ومسلياً، وفي الوقت ذاته ترى كبار العمر وهم يلعبون؛ كما أنّ الأطفال كانوا بالتأكيد يستمتعون بالألعاب. وهذا كله ربما ينسي حزن وخيبة الصبي لأنه أخفق في الحفاظ على المدينة القديمة.

لكن على كل حال، كان عليه الاعتراف أن تلك كانت رحلة رائعة. وكان الهواء مفْعماً بالمتعة والإيقاعات. وهناك بعض الأطفال يلعبون بما يسمى ألعاب الحلقة، ويغنّون بينما هم يواصلون ألعابهم. كان جيش الإنقاذ في الخارج. وقد شاهد الصبي عدداً كبيراً من الناس وهم يرتدون الزي الأسود والأحمر ويجلسون على تل غابة، ويعزفون على آلة الغيتار والأدوات الموسيقية. وفي أسفل الطريق قدم عدد كبير من الناس يطلق عليهم الفرسان الجيدون الذي كانوا في رحلة ممتعة. وقد شخصهم من خلال شعاراتهم الكبيرة والنقوش الذهبية التي تسبح فوقهم. كانوا يؤدون أغنية بعد أغنية وهو يستمع إليهم.

كان جالساً، ينظر إلى الأسفل لفترة طويلة، حين رفع عينيه فجأة. كانت متعته لا توصف أبداً. وقبل أن يدركها، غادر الإوز البري داخل الجزيرة واتجه إلى جهة الغرب – إلى ساحل البحر – وبدا له الآن أزرق وواسعاً، يمتد أمامه. وعلى كل حال، لم يكنْ رائعاً ذلك البحر، باستثناء

ظهر المدينة التي بدت له على الشاطئ.

قدم الصبي من الشرق، كانت الشمس قد اتجهت لتغطس في الغرب. وبينما هو يقترب أكثر من المدينة، بجدرانها وأبراجها العالية، وبيوتها وكنائسها ذات الجملونات تقف هناك تماماً سوداء مقابل سماء المساء المنيرة. لهذا، لم يكنْ يشاهد ما الذي تشبهه حقاً تلك المدينة. لكن بعد لحظة أو لحظتين ظنّ تماماً أنّها تشبه بجمالها تلك التي شاهدها في عيد الفصح. حين دخلها تماماً، إنها تشبه ولا تشبه تلك المدينة التي تحت البحر. فكان هناك التناقض ذاته بين المدينتين كما هو بين الرجل الذي شاهد حشداً من الأرجواني والمجوهرات ذات يوم. وفي يوم آخر كان يرتدي بدلة من الخرق.

نعم، وفي يوم من الأيام، كانت هذه المدينة ربما تشبه تلك المدينة التي كان الصبي جالساً وهو يحلم بها. هذا الشخص كان جالساً ومنطوياً إلى جانب حائط عليه أبراج وبوابات. لكن الأبراج في هذه المدينة، التي تسمح لها بالوجود على الأرض، كانت بلا رفوف، مجوفة، وفارغة. أما البوابة فهي بلا أبواب؛ وقد اختفى حرّاسها ومحاربوها. وأصبح تألقها الرائع كله من الماضي. ولم يترك شيئاً باستثناء جمجمة صخرية رمادية عارية.

بينما كان الصبي يتقدم نحو المدينة، شاهد أنّ القسم الأكبر منها تحول إلى شيء ضئيل، وإلى بيوت واطئة؛ ولكن انتصبت هنا وهناك بيوت قليلة عالية تشبه الجملونات. أما الكاتدرائية فكانت من الأيام الخوالي، والبيوت التي بنيت على شكل جملونات طليت باللون الأبيض، وكلها دون زخرفة؛ لكن الصبي قد شاهد مؤخراً المدينة المدفونة، وبدا كما لو أنه فهم كيف أنها ذات مرة كانت ديكورات؛ بعضها من التماثيل، والبعض الآخر من الرخام الأسود والأبيض، يشبه رخام الكاتدرائية، وكان أغلبها بلا سقوف ومداخلها خاوية. أما فتحات نوافذها فكانت فارغة، ونبتت الأعشاب على سطوحها وتسلق اللبلاب أعلى جدرانها. ولكنه أدرك الآن أنها كانت قد زيّنت في يوم من الأيام: إذ كانت مغطاة باللوحات الزيتية والصور؛ وكان مذبح الكنيسة مزيناً بمذبح كنيسة وتقاطعات جميلة. وهناك قسيسون كانوا يتحركون هنا وهناك. يحتشدون بأردانهم العريضة.

وشاهد الصبي أيضاً الأزقة الضيقة، التي كانت في الغالب مهجورة في مساءات العطل. وعرف، ماذا يفعل، أي حشود فخمة في يوم من الأيام تندفع هناك!

لكنْ ما لمْ يشاهده نيلز هولغيرسون، هو أن تلك المدينة هي حتى هذا اليوم هي الجمال

والأصالة. فهو لم يشاهد الأكواخ الدافئة على جانبي الشوارع وجدرانها السوداء ذات الحواف البيض وورود الجيرانيوم على جوانب النوافذ المشرقة، ولا الحدائق الكثيرة والجميلة، والأزقة، ولا جمال آثار كروم العنب. كان عقله منشغلاً بالروعة السابقة التي لم يستطع التمتع بجمالها في الوقت الحاضر. عاد الإوز البرّي أمام وخلف المدينة مرات عديدة، لذا كان بإمكان ثمبيتوت أن يرى كل شيء. وأخيراً. هبطوا نحو الأسفل على العشب الذي ينمو على أرضية الكاتدرائية، ليقضوا ليلتهم هناك.

وبعد وقت طويل من نومهم، ما زال ثمبيتوت مستيقظاً جالساً يحدق في الأقواس المفتوحة في سماء المساء. حين جلس هناك لفترة، فكر جدياً ألا يحزن كثيراً لأنه لم يكن بوسعه إنقاذ المدينة المندثرة.

كلا، لنْ يفعل ذلك، يريد أنْ يقوم الآن بما يلي، إذا كانت المدينة الأخرى لم تغطسْ في البحر مرة ثانية، لكن ربما يأتي وقت ستتحول فيه إلى مدينة مهلهلة كما هي المدينة السابقة. ربما لم يكنْ بإمكانها مقاومة الزمن والاضمحلال، لكنْ ستقف هناك بكنائس لا سقوف لها وبيوت جرداء مهجورة، وشوارع فارغة، تماماً مثل هذه الشوارع. ومن ثم من الأفضل أن تبقى بكل مجدها في أسفل الأعماق.

ثم فكر: «ماذا لو حدث الأفضل، إذا كانت لدي القوة لإنقاذها». ومن ثم لم يعد يحزن على تلك المدينة.

من دون شك، هناك كثيرون من الجيل الشاب يفكرون بالطريقة ذاتها التي أفكر فيها. لكن حين يتقدم الناس في العمر، ويتآلفون قليلاً مع القناعة، ففي هذه الحالة سيكونون أكثر سعادة من حياة شعب مدينة فيسبي Visby وأكثر أهمية من فينيتا التي في أعماق مولاند.

الفصل الخامس عشر
أسطورة سمولاند

الثلاثاء، الثاني عشر من نيسان/ أبريل.

قام الإوز البرّي برحلة جيدة عبْر البحر، وقد هبط في مدينة أبرشية شوست Tjust Parish شمالي سمولاند. تبدو تلك الأبرشية غير قادرة على حسم أمرها لتكون على الأرض أو على البحر. وتجري الخلجان في كل مكان، وتقتطع الأرض إلى جزر وشبه جزر. وإلى نقاط ورؤوس. كان البحر نشيطاً والأشياء الوحيدة التي تمسك بنفسها فوقه هي التلال والجبال. وتختفي جميع الأراضي المنخفضة تماماً، تحت المياه.

كان الوقت مساء، حين جاء الإوز من البحر؛ وكانت اليابسة والتلال الصغيرة تضفي بجمالها على الخلجان المتلألئة. هنا وهناك، وعلى الجزر، شاهد الصبي كابينات وأكواخاً. سافر بعيداً في الداخل، وتحوّلت بيوت السكن نحو الأفضل والأكبر، وفي نهاية الأمر، راحت تتوسع أكثر. وهناك عبْر الشاطئ صفّ من الأشجار وعبرها أيضاً تقع خرائط أرضية، وعلى قمم تلال صغيرة ينتشر فيها كثير من الأشجار. ولا يستطيع الصبي إلا التفكير بمدينة غلينغي. هنا أيضاً مكان يلتقي فيه الأرض والبحر بطريقة ساحرة وجميلة، وكلاهما تحاول، كما لوْ أنها كانت تريد أنْ تعرض إحداهما للأخرى أروع ما تملكه.

وحطّ الإوز البرّي على أرض صخرية قاحلة تسمى خليج الإوز Goose Bay. ومن النظرة الأولى على الشاطئ تبعث في نفوسهم الطمأنينة أن الربيع قادم بخطوات سريعة بينما هم على الجزر. لم تكن الأشجار الكبيرة الجميلة حتى الآن تتجلل بأوراقها، لكن الأرض تحتها مطرزة بشقائق النعمان البيضاء والزرقاء.

حين شاهد الإوز البرّي سجّادة الأزهار خشي أنهم سيمكثون فترة طويلة في القسم الجنوبي من البلد. وأشارت أكّا فجأة إلى أنه ليس هناك وقت كاف للبحث عن مكان يتوقفون فيه في سمولاند. وفي الصباح التالي عليهم أن يشدوا الرحال إلى أوسترغولاند.

لم يلمح الصبي شيئاً منْ ملامح سمولاند، وهذا ما أحزنه. فهو قد سمع عنها أكثر من أي محافظة، وتاق لرؤيتها بعينيه الاثنتين.

في حضرة الصيف، حين عمل بوصفه الصبي – الإوز مع فلاح في منطقة مجاورة ليوردبيرغا، اعتاد أن يلتقي كل يوم في الغالب طفلين من سمولاند يميلان للعب مع الإوز وقد أزعجه ذينْك الطفلين جداً ببلدهم سمولاند.

إنه ليس من العدل القول إنّ أوسا، الإوزة، قد أزعجته. لكن على العكس، كانت حكيمة جداً في تصرفها ذاك. لكن الشخص الذي استطاع إزعاجها بانتقامه، كان شقيقها، الصغير ماتس.

«وهل سمعت، بالصبي – الإوز المدعو نيلز وما حدث له حين أسست مدينتيْ سمولاند و«سكونه؟» أراد أنْ يسأل فيما إذا كان نيلز هولغيرسن قال كلا، وبدأ فجأة يشير إلى الأسطورة القديمة المضحكة.

«حسناً، حدث هذا، في ذلك الزمان حين خلق ربنا العالم. إذ بينما هو يقوم بأفضل عمل، جاءه القديس بطرس مباشرة. توقف ونظر من حوله، ومنْ ثم سأل إنْ كان هذا العمل الذي قام به هو عمل صعب. قال الرب: «حسناً، لم يكنْ عملاً سهلاً». ووقف القديس بطرس هناك لفترة طويلة، حين لاحظ أنّ ذلك العمل من السهولة ليظهر موقع الجزر واحدة بعد الأخرى، وأصرّ على لمسات يديه فيها. وقال القديس بطرس: «ربما أنت بحاجة إلى أن تريح نفسك قليلاً، أنا سأحضر للعمل في الوقت المحدد من أجلك». «ولكن هذه ليس إرادة ربنا». أجاب. «ولا أعرف إن كان في وطنك مثل هذا الفن كي أضع ثقتي بك وأتحمل مسؤوليتي وعندها أغادر». حينها غضب القديس بطرس، وقال إنه يعتقد أنه يخلق بلداناً جميلة تماماً كما هو الرب أيضاً.

وهكذا حدث، إنّ ربنا خلق مدينة سمولاند. ولم يكن لديه حتى نصف استعداد، لكن بدا كما لو أنه يريد أن تتحول إلى أرض لا توصف بجمالها وخصوبتها. كان من الصعوبة على إلهنا أنْ يقول كلا للقديس بطرس، إلى جانب ذلك، فكر أنه من المحتمل أن ذاك الشيء بدأ بداية جيدة ولا يستطيع أيّاً كان أن يدمره. ولهذا قال: «إنْ أنت رغبت، فسنجرب منْ منّا هو الذي يفهم هذا الصنف من الخلق هو الأفضل. أنت، الذي لم تكن أكثر من راهب مبتدئ؟ يجب أن أستمر بهذا العمل، الذي قد بدأته أنا، وسوف أخلق أرضاً جديدة». وبهذا وافق القديس بطرس مباشرة. وبهذا أيضاً اتجه كلاهما معاً للعمل – وكلاهما ينطلق من مكانه.

واتجه ربنا إلى الجهة الجنوبية إلى حد ما، حيث تعهد بخلق «سكونه». ولم يمر وقت طويل حتى دخلها، وسأل إن كان القديس بطرس قد انتهى من عمله أيضاً، كي يأتي ليعاينه. قال

القديس بطرس: «عملي جاهز الآن». ومن الواضح ومن خلال نبرة صوته أنه كان مسروراً بما قد أنجز من عمل.

حين قال القديس بطرس إنه شاهد «سكونه»، أراد أن يعترف أنه ليس هناك شيء أفضل من الثناء على ذلك البلد. إنها أرض خصبة وسهلة الحراثة، بحقولها الواسعة من أي جهة ينظر إليها المرء، لكن من الصعوبة الإشارة إلى التلال. كان من الواضح أن ربنا حقاً قد تأمّل في صنعها كي يشعر الناس أنهم في وطنهم هنالك. قال القديس بطرس: «نعم، هذا بلد جيد». قال ربنا: «ولكن أعتقد أنّ بلدي هو الأفضل، ومنْ ثم علينا أنْ نلقي عليه نظرة».

الآن، انتهى خلق البلاد في الجهة الشمالية والشرقية حين بدأ القديس بطرس عمله، لكن الأقسام الجنوبية والغربية، والمناطق الداخلية كلها، خلقها الرب بنفسه. وحين جاء ربنا كان القديس بطرس يعمل، اندهش حين توقف قليلاً وقال: «ما هذا العمل الرائع الذي قمت به للوطن، أيها القديس بطرس؟».

وقف القديس بطرس، أيضاً، ينظر من حوله، وهو مندهش تماماً لما قام به من عمل. لكن، ليس لديه أدنى فكرة يمكن أن تكون إيجابية عن كيفية التعامل مع حرارة الأرض. ولهذا جمع مقداراً كبيراً من حصى الجبل وأقام منها أرضاً مرتفعة، وما فعله هنا ربما الآن قد يلامس السماء تماماً في الوقت ذاته، وطلب من السماء تزويده بكمية هائلة من حرارة الشمس. ونشر فوق حفر الأحجار طبقة خفيفة من التربة، وكان يعتقد أن كل شيء كان منظماً بإتقان.

لكنْ بينما هو يهبط إلى «سكونه» واجه كمية منْ زخّات رذاذ ثقيلة، والأكثر من هذا ليس هناك حاجة ليظهر ما يحتاجه عمله إليه. حين جاء ربنا ليفحص الأرض، كانت قاعدة الصخور الجرداء قد غسلتْ تماماً في جميع الأحياء. وهي التي كانت على وشك أنْ تكون الأفضل. وضع الطين والحصى فوق الصخور، ولكن يبدو أنه عمل غير متقن، وكان من الواضح أيضاً أن المشاهد يراها شيئاً قليلاً قياساً بشجر الصفصاف ونبات العرعر والطحلب ونبات الخلّنج الذي ينبت هناك. وما هو متوافر بغزارة هو الماء! فهو يغطي جميع الكهوف في الجبال والبحيرات والأنهار والغدران وكل شيء، ونستطيع القول إنه ليس هناك مستنقعات ولا أهوار تنتشر فوق مساحات كبيرة جداً. وكان معظم سخطه هو أنّ بعض المسارات تملك مياهاً كثيرة، تكون نادرة في بعضها، لأنّ كل الحقول تبدو كما الأهوار الجافة، في الوقت الذي تكون فيه تلال الرمال والتراب مرتفعة نحو الغيوم.

قال ربنا: «ماذا تعني من خلقك مثل هذه الأرض؟». قدم القديس بطرس اعتذاره للرب، وأوضح أنه يرغب في بناء أرض عالية جداً تلامس حرارة الشمس».

قال الرب: «لكنك ستواجه أيضاً الصقيع الذي يهبط بكميات كبيرة من السماء، أثناء الليل، وإنني أخشى جداً عدم ظهور النباتات نتيجة ذلك الصقيع».

قال القديس بطرس: «هذا شيء مؤكد، ولم يخطر ببالي مثل كلامك هذا».

حين أسهب مات الصغير كثيراً في قصته هذه، احتجت الإوزة، أوسا: «إنني لا أستطيع أنْ أتحمل كثيراً، يا مات الصغير أنْ أسمع منك أن تقول كل هذا البؤس في سمولاند، وإنك نسيت تماماً جودة التربة هناك، وهناك. فكر فقط، بضاحية مور المجاورة لكالمار، إنني أتساءل هنا أين ستجد منطقة الحبوب الغنية جداً. فهناك حقول وحقول تماماً كما هي في «سكونه». فالتربة جيدة ولا يمكنني أن أتخيل شيئاً لا يمكن أن ينمو هناك».

وأصر مات الصغير: «لا يمكنني أن أصدق ذلك، إنني أشير إلى ما قاله الآخرون عنها من قبل».

قالت الإوزة أوسا: «أنا قد سمعت كثيرون يقولون ليس هناك أرض ساحلية جميلة مثل شوست، فكر في الخلجان والجزر؛ والبساتين والمزارع». واعترف الصغير: «نعم هذه حقيقة مطلقة»، ثم استمرت أوسا الإوزة: «ألا تتذكر أنّ المعلم قد قال إنّ هذه الضاحية الجميلة هي قطعة من سمولاند تقع على بحيرة فاتيرن ليس لها مثيل في السويد؟ فكّر في البحيرة الجميلة والجبال الساحلية الصفراء، وغرينا وينشوبنك؟ وبمصانعها الكثيرة وفكّر في هوسك فارنا، وجميع المؤسسات الكبيرة!». قال مات الصغير مرة أخرى: «نعم هذه حقيقة مطلقة!». «وفكّر في جزيرة فيزنغ، يا مات الصغير، وفكّر في الآثار وغابات الحور والأساطير! ومطاحن الدقيق وورش النجارة». قال مات الصغير ويبدو أنه منزعج: «نعم، هذه حقيقة مطلقة».

وفجأة تطلّع نحو الأعلى وقال: «الآن، نحن أغبياء مساكين! كل هذا، بالطبع، يقع في سمولاند، أرض الرب، وفي ذلك القسم من الأرض التي تلاشت بالطبع حين تعهد القديس بطرس العمل. إنه من الطبيعي أنْ تكون جميلة ورائعة هناك. لكن في سمولاند أرض القديس بطرس بدت كما لو أنها تتحدث عن أسطورة. ولم يكن من المدهش أن ربنا كان حزيناً حين رآها». واستمر مات الصغير، ملتقطاً خيط القصة. لم يفقد القديس بطرس شجاعته، وفي كل الأحوال، هو حاول أنْ يريح ربنا حيث قال: «لا تحزن على هذا! انتظر فقط حتى أخلق

الناس، الذين يتطلعون إلى مجيء المستنقعات والفيضان ويفصل الحقول عن التلال الحجرية».

وأردف: «كان ذلك نهاية صبر ربنا» – وقال: «كلا تستطيع الذهاب إلى «سكونه» وتخلق سكوننغي. ولكن، سأخلق سمولاند بنفسي». وهكذا خلق ربنا سمولاند وجعلها شاهداً سريعاً، سعيدة ومقتنعة ومقتصدة ومغامرة ومقتدرة. وربما من الممكن أن يكون قادراً على العيش في بلده الفقير.

كان مات الصغير صامتاً؛ وإن كان نيلز هولغيرسون حافظ هو الآخر على صمته، فإنّ الجميع سيكونون بخير؛ لكنه لم يكن من الممكن الامتناع عن السؤال كيف نجح القديس بطرس في خلق سكوننغي.

«حسناً، ماذا تعتقد بنفسك؟» قال مات الصغير، وهو ينظر باحتقار شديد لأن نيلز قد سقط عليه، ليجلده. لكن مات كان فقط صبياً صغيراً، أما أوسا الإوزة، التي تكبره بسنة واحدة، فقد هرعت إلى الأمام فوراً لتساعده. رغم أنها كانت طيبة، لكنها قفزت كأسد حالما لمس أحد أخاها.

ولم يعر نيلز هولغيرسون اهتماماً لأن يحارب فتاة، لذا أدار ظهره، ولم ينظر إلى أطفال سمولاند أولئك حتى نهاية هذا النهار.

الفصل السادس عشر
الغربان

الصراصير الأرضية

هناك أبرشيّة يطْلق عليها سونيربو، تقع في الزاوية الجنوبية الغربية منْ سمولاند – هي إلى حدّ ما هادئة، وتكاد تشكّل بلداً. والذي يراها في فصل الشتاء، حين تكون مغطاة بالثلوج، لا يمكنه أنْ يتخيّل أنّ هناك شيئاً تحت الثلوج، باستثناء أنّها حديقة أرضية، أو حقول شعير، أو مروج نبات النفل، على العموم، هي قضية البلدان التي تقع على أرض منبسطة. لكنْ، في مستهلّ شهر نيسان – أبريل، وحين يذوب الجليد في سونيربو يكون من الواضح أن تحته مروجاً رملية، وصخوراً جرداء، ومسطّحات مائية كبيرة. كما توجد هنا وهناك حقول؛ ومن المؤكد، أنها صغيرة إلى حدّ من النادر أنْ تستحق الذكر؛ توجد أيضاً بيوت حقول صغيرة حمراء أو رمادية مخفية تحت أيْكة صغيرة من الأشجار – في الغالب كما لو أنها تخشى الكشف عنْ وجهها.

عند ملامسة أبرشيّة سونيربو حدود هالاند، نجد هناك أرضاً بوراً صخرية بعيدة المدى، ومن يقف على إحدى نهاياتها لا يمكنه النظر إليها عبر النهاية الأخرى. كما لا نجد شيئاً هناك باستثناء نبات الخلّنج الذي ينمو على أرض بور، وليس من السهل أنْ ينال نباتات أخر غير نباتات طفيلية. كي نبدأ مع إحدى هذه النباتات فعلى المرء أنْ يقلع نبات الخلّنج أولاً؛ لأنّ العمل مع هكذا نبات؛ ورغم وجود تقلص ألياف فيه، يظهر نفسه كما لو أنه شجرة. وبناء على ذلك، فهو يعمل على أنه أشجار حقيقية، ينشر نفسه خارج تقاليد الغابة فوق أراض عريضة؛ ويمسكها، ويسبب الموت لتلك النباتات الغريبة التي تريد أنْ تتجمع في حدودها هناك.

والمكان الوحيد على الأرض البور حيث نبات الخلّنج الذي لمْ يكن القوة الوحيدة في الأسفل، هو الحافة الصخرية التي تتقاطع معه. وتجد هناك أعشاب العرْعر، وأدغال الجبل، وقليلاً من أشجار السنديان الكبيرة. وفي الوقت الذي سافر فيه نيلز حول هذا المكان مع الإوز البريّ، وجد فيه كابينة صغيرة تنتصب على أرض صغيرة نظيفة حولها. لكن الناس الذين سكنوها ذات مرة لسبب أو آخر، قد انتقلوا بعيداً عنها. وما زالت الكابينة الصغيرة

شاغرة الآن. كما أنّ المساحة الأرضية حولها هي الأخرى شاغرة.

وعند مغادرة الكابينة فإنّ المستأجرين يغلقون صمّامات الأمان، كما يغلقون النوافذ والأبواب بكلابات. لكن لا أحد يخطر بباله كسر النوافذ التي تربط بالخرق عادة. وبعد نزول زخات مطر قليلة في مواسم الصيف، فإنّ هذه الخرق تتقلّص وتلتصق، وبعد ذلك ينجح الغراب في تفكيكها.

أما حافة الجبل المطلة على نبات خلّنْج البور لمْ تكنْ مهجورة تماماً كما يعتقد البعض، لأنها كانت مسكونة منْ قبل أسراب من الغربان. وبالطبع، فإنّ الغربان هذه لا تعيش هناك طيلة السنة. فهي تنتقل إلى بلدان أجنبية أخرى في فصل الشتاء؛ أما في فصل الخريف فإنّها تسافر منْ حقل حبوب إلى آخر عبر غوتالاند وتلتقط الحبوب؛ خلال فصل الصيف تنتشر في حقول أبرشية سونيربو وتكركر وتعتاش على البيض والتوت، لكنها في فصل الربيع كلّه، في وقت بناء أعشاشها، فإنها تعود إلى بور نبات الخلّنج.

أمّا ذلك الغراب الذي لكز الخرْقة من الشباك هو الغراب الذكر المدعو غارم وايت فيثر؛ Garm Whitefeather، لكنْ لمْ يدْع بأيّ اسم آخر باستثناء فوملي أو دروملي Fumle or Drumle، أو خارج وخارج فوملي – دروملي، لأنه يتصرف دائماً بطريقة رثّة وبغباء. ولا يصْلح لأيّ شيء إيجابي باستثناء قيامه بأعمال ساخرة. وكان فوملي – دروملي هذا أكبر وأقوى منْ أيّ غراب آخر، لكنه لا يحترم نفسه على الأقل؛ إنه – وما زال – يقوم بأعمال مضْحكة ولا يرجى منه خير، رغم أنه ينحدر من أسرة جيدة جداً. وبحق، فإنه يجب أن يكون قائداً لجميع القطيع، منذ أن تشرف بالعودة إلى أكبر وايت فيثر[1]. ولكن قبل أن يولد بوقت طويل، فإن السلطة قد ذهبت إلى عائلته، وهي الآن، بيد الغراب الوحشي القاسي المسمى وند – رش. [2] Wind Rush.

وهذا التحوّل في الحكم إنما يعود إلى حقيقة أنّ الغربان اعتادت أنْ تعقد قمة لها قد تقرر فيها تغيير نمط سلوكها في الحياة. ومن المحتمل أنّ هناك الكثير من الذين يفكرون أن كل شيء في شكل الغراب الذي يعيش بالطريقة ذاتها؛ ولكن هذا ليس هو القضية. فهناك حشد كامل من الغربان الذين يعيشون حيوات محترمة – وهذا يدعونا للقول، إنهم يعيشون على الحبوب، والديدان، والسراعيب، والحيوانات النافقة؛ وهناك آخرون يعيشون حياة قطاع طرق منتظمة، يغامرون بأنفسهم على فراخ الأرانب والطيور الصغيرة، وينهبون كل أعشاش الطيور التي يقع نظرهم عليها.

وكان الغربان القدماء وايت فيذر صارمين ومعتدلين في الوقت ذاته؛ وطالما كانوا يقودون السرب لمدة طويلة، فكان الغربان مجبرين على قيادة أنفسهم بهذه الطريقة بحيث إنّ الطيور الأخرى لم تتحدث عنهم بسوء. ولكن كان عدد الغربان هائلاً، وكان الفقر منتشراً بينهم. لم يهتموا بالاستمرار طويلاً في حياة أخلاقية صارمة، وهكذا تمردوا ضد الوايت فيذر، ومنحوا السلطة إلى الريح المندفعة التي كانت أسوأ نهابة وسارقة أعشاش يمكن تخيلها – إنْ لم تكن زوجته وند إير هي الأسوأ. وتحت حكمهم فقد شرع الغربان العيش على حياة تجعلهم يشعرون بالخوف أكثر منْ صقور الحمائم وطيور البوم.

ومن الطبيعي، ألا يقول فوملي – دروملي أيّ شيء عن السرب. وكانت الغربان جميعاً تحمل فكرة عنه أنه لا يعتني بهم على الأقل بعد حكم أسلافه، وأنه لنْ يعمل كقائد لهم. وليس هناك منْ لاحظه، إذا لم يكن قد اقترف باستمرار أخطاء جديدة، والقليل منها، كانت معقولة، وقال إنّ ذلك ربما كان محظوظاً لأنّ فوملي دروملي أحمق متخبط؛ أو بالأحرى، إن رش وند ووند إير قلما كانا يسمحان له، وهو الذي كان شيخ القبيلة العجوز، ويجب أن يبقى مع السرب.

والآن، من الجانب الآخر، كانوا إلى حد ما أصدقاءه، ويأخذونه معهم برحابة صدر للاستكشافات عن الغزو، وحيث إنّ الجميع قد لاحظ أنّهم أكثر مهارة وجرأة منه.

ليس ثمة أحد من الغربان قد عرف أنّ فوملي – دروملي هو الذي التقط بمنقاره خرقة الباب كي يفتحه؛ ولأنهم قد عرفوا ذلك، فكان ذلك مثار دهشتهم لمثل هذه الجرأة وهذا الفعل للاقتراب من مأوى الإنسان الذي لا يؤتمن جانبه. وبهذا احتفظ بعناية فائقة لنفسه، ولديه مبرراته المعقولة لفعل ذلك. وقد عاملته وند إير بروح جيدة دائماً خلال النهار، حين كان الآخرون حوله. لكن في إحدى الليالي الداكنة حين كان الرفاق يجثمون على غصن شجرة، هاجمته مجموعة من الغربان وقد كاد أن يُقتل تقريباً. وبعد ذلك وفي كل ليلة، حين يكون يحلّ الظلام، فإنه ينتقل منْ أمكنة نومه الاعتيادية إلى كابينة شاغرة أخرى.

الآن وفي أحد المساءات، حين كانت الغربان تقف على ما يسمى حافّة الغربان، كانوا ينظمون أعشاشهم وقد حدث لهم أن يكتشفوا مكاناً رائعاً. فقد طار وند رش وفوملي – دروملي ومجموعة أخرى إلى أسفل هاوية لكنهم لم يجدوا فيها مأربهم، باستثناء حفرة من الحصى، بيد أن الغربان لم يقتنعوا بمثل هذا الشرح البسيط؛ فقد شرعوا يهبطون نحو الأسفل إلى الحفرة باستمرار، وراحوا أيضاً يدورون حول حبوب الحصى ليتوصلوا إلى السبب الذي

يدعو الإنسان إلى حفرها. وبينما كان الغربان يتفقدون المكان، أخذ يتساقط عدد هائل من جانب. واندفعوا باتجاهه، وكانت لديهم فرصة جيدة ليجدوا من بين الحصى المتساقطة بقايا قش في جرة كبيرة، مقفلة بمشبك خشبي. ومن الطبيعي أنهم أرادوا أن يعرفوا ماذا كان في داخلها. وحاولوا أن ينقروا الحفر في الجرّة وذلك لتليين المشْبك الخشبي، لكن كما يبدو قد أخفقوا.

وقفوا محتارين ينظرون إلى الجرة، حينما سمعوا شخصاً يقول: «هل أستطيع أن أنزل إليكم كي أساعدكم، أيها الغربان؟». وقد حدقوا نحو الأعلى بسرعة. وعلى حافة الهاوية كان هناك ثعلب يومض بعينيه نحوهم. وكان واحداً من أجمل الثعالب التي رأوها بلونه وبرشاقة جسده. والعيب الوحيد فيه هو أنه قد فقد إحدى أذنيه.

قالت وند رش: «إن تفضلت علينا وقدمت لنا خدمة، فإننا لنْ نقول، لا». بينما هو والآخرون قد حلقوا نحو الأعلى من داخل الحفرة. وبعد ذلك قفز الثعلب إلى مكانهم في الحفرة، وراح ينقر على الجرة وسحب قفلها، ولكنه لم يستطع فتحها.

قالت وند رش: «هل تستطيع أن تخبرنا ماذا في داخلها؟». ودحرج الثعلب الجرة نحو الأمام والخلف وراح يصغي بانتباه، وهو يقول: «لا بد وأن تكون فضة في داخلها». وهذا ما توقعه كثير من الغربان. «وهل حقاً تعتقد أنّ فيها نقوداً فضية». وراحوا يلهثون، وجحظت عيونهم، كما لو أنها خارج رؤوسهم وبجشع؛ وكأنه شيء عجيب. وليس هناك شيء في العالم يحبه الغربان أكثر مما يحبون الفضة.

قال الثعلب، وهو يدحرج الجرة أكثر من مرة: «اسمعوها كيف تجلجل، ولكن فقط أنا لا أفهم كيف نستطيع الحصول عليها». قال الغربان: «هذا بالتأكيد من المستحيل». وقف الثعلب وهو يمسح رأسه بساقه الأمامية اليسرى، وراح يتأمل: والآن، ربما ينجح، بمساعدة الغربان، بالسيطرة على ذلك العفريت الصغير الذي كان دائماً يراوغه. قال الثعلب: «أوه! إنني أعرف شخصاً يستطيع أن يفتح الجرة». «أخبرنا! أخبرنا!». صرخ الغربان؛ وكانوا منفعلين إلى حد أنهم تراجعوا إلى الحفرة، وقال: «ذلك أنني سأفعل، إذا أقسمتم لي أولاً أنكم ستقبلون شروطي».

وبعد ذلك أخبر الثعلب الغربان عن ثمبيتوت، إن كانوا يستطيعون أن يجلبوه إلى أرض البور فإنه سيفتح الجرة لهم. لكن الدفع مقابل الاستشارة، وقرر أنه عليهم أن يسلموا ثمبيتوت إيّاه

حالما يسلمهم النقود الذهبية. ولا يملك الغربان سبباً للاحتفاظ بثمبيتوت، وهكذا قبلوا بالاقتراح فوراً. وإنه من السهولة بمكان الموافقة على هذا الشرط؛ ولكن ليس من السهولة بمكان أن يعرفوا أين يجدون ثمبيتوت وأين يتوقف الإوز البري. وانطلقت الوند رش مسرعة يصحبها خمسون غراباً، وقالت إنها ستعود حالاً. وقد مضى يوم بعد يوم من دون أن يروا ظلاله على قمة جبل الغربان.

اختطاف من قبل الغربان

الأربعاء، الثلاثون من نيسان/ أبريل.

استيْقظ الإوز البرّي مع طلوع الفجر، وهو الوقت الذي يتناولون فيه لقمة طعام قبل انطلاقهم في رحلتهم باتجاه أوسترغوتلاند. وناموا هناك في مكان يطلق عليه خليج الإوزة، كان ذلك الخليج صغيراً وقاحلاً، ولكن في الماء الذي يحيط بها ثمة أعشاب مياه يستطيعون تناول طعامهم، وكان هذا غير مناسب للصبي، على كل حال، إذ لم يسْتطع الحصول على شيء يؤكل.

بينما كان واقفاً هناك، جائعاً ويغالبه النعاس، ينظر في كل الاتجاهات، وقع نظره على زوج من السناجب يلعبان في مساحة مشجرة أمام جزيرة صخور. وقد تساءل إن كان يملك هذان السنجابان أيّ تجهيزات من الطعام خزّناها في موسم الشتاء. وسأل الصبي ذكر الإوز أن يأخذه إلى تلك الساحة وربما يلتمسهما بكمية من البنْدق.

وعام السنجاب الأول حالاً نحو الخليج مع الصبي، لكنْ يبدو أنّ الحظ قد أسعفه، إذْ إنّ السنجابين كانا يطاردان أحدهما الآخر ومن شجرة إلى شجرة ولم ينزعجا للإصغاء للصبي. وبدلاً منْ ذلك، انسحبا كثيراً إلى موقع الصخور. أسرع باتجاههما، وسرعان ما ابتعد عن الذكر، وانتظر أحد السنجابين على الشاطئ. وراح الصبي يخوض في الماء متجهاً نحو الأمام بين بعض جذوع الزعفران الأبيض التي كانت عالية حيث تصل إلى حنكه حين شعر أن أحدهما يمسكه من الخلف، وحاول رفعه. نظر حوله وشاهد أنّ الغراب هو الذي يمسك به منْ شريط قميصه. حاول أنْ يسحب نفسه ليفلت منه. ولكن قبل أن يفعل ذلك، اندفع إليه غراب آخر وأمسك بجوربه، وطرحه أرضاً.

إذا صرخ نيلز حالاً طلباً للنجدة، فإنّ ذكر الإوز الأبيض سينقذه بالتأكيد؛ ولكن ربما فكر الصبي أنه بإمكانه إنقاذ نفسه من دون مساعدة، من مجموعة من الغربان. وراح يرفس

ويضرب بساقيه، لكن الغرابان تشبثا للإمساك به، ونجحا في الارتفاع وإياه نحو الأعلى. وكي يدفعا بالأمر نحو الأسوأ، فقد حلّقا للأعلى بطيش إلى حد أنّ رأسه قد اصطدم بغصن شجرة مما سبب له كدمة تحوّل لونها إلى اللون الأسود في مقدمة إحدى عينيه، وفقد الوعي على أثرها.

حين فتح عينيه أكثر من مرة، وجد نفسه مرتفعاً عن الأرض، لكنه راح يستعيد وعيه تدريجياً؛ وبداية لم يدرك أين كان، وماذا قد رأى. وحين نظر نحو الأسفل، لاحظ سجادة صوف كبيرة بشكل هائل تحته ومنسوجة بالألوان الخضراء والحمراء وبنماذج كبيرة وغير منتظمة، وكانت سميكة وجميلة جداً، لكن الصبي فكر بالإشفاق عليها أنها استخدمت بطريقة سيئة. وكانت في الواقع رثة وممزقة؛ وفي أماكن أخرى منها كانت ممزقة تماماً. لكن الأغرب من كل شيء، أنها تمتد فوق مرآة من الأرض، وتحت الثقوب والتمزقات في تلك السجادة إشراقة ساطعة، وزجاج متلألئ.

وبعد ذلك، رأى الصبي الشمس تتدحرج أعلى السماء. وفجأة، بدأت المرآة الزجاجية تحت الثقوب والتمزقات في السجادة تومض باللونين الأحمر والذهبي. وتبدو أنها فائقة الجمال. كان الصبي مسحوراً بمنظومة ألوان جميلة، ورغم ذلك، فإنه لمْ يفهمْ تماماً ما الذي قد رآه. لكنّ الغرابان قد هبطا الآن وفهم فجأة أنّ تلك السجادة التي كانت تحته هي الأرض. التي كانت ترتدي أشجاراً خضراء ورمادية مخروطية وأشجاراً عارية الأوراق. وأنّ تلك الحفر والتمزقات المتلألئة هي خلْجان وبحيرات صغيرة.

وقد تذكّر الصبي ذلك لأول مرة أنه قد سافر في الجو، وفكر أنّ الأرض في «سكونه» تبدو شبيهة بقطعة قماش ذات مربعات. لكنّ هذا المشهد، الذي يمثّل سجادة ممزّقة – أيّ بلد يمكن أنْ يكون هذا؟ وبدأ يطرح على نفسه العديد من الأسئلة. ولماذا كان جالساً على ظهر ذكر الإوز؟ ولماذا هذا السرب العظيم الذي يحلّق حوله؟ ولماذا هو مجذوب ومصعوق هنا وهناك، لهذا كان على وشك أنْ ينقسم إلى نصفين.

بعد ذلك، وفجأة، كان كل شيء قد سقط عليه. واخْتطف منْ قبل مجموعة من الغربان. كان ذكر الإوز الأبيض واقفاً على الشاطئ، ينتظر، وكان على الإوز البرّي السفر اليوم إلى أوسترغيتلاند. وقد حمل إلى الجنوب الغربي؛ وفهم أن قرص الشمس كان خلفه. وكانت السجادة الكبيرة التي تمتد تحته هي بالتأكيد سمولاند.

فكر الصبي: «كيف سيكون ذكر الإوز الآن، لأنني لمْ أعنَ به؟» وبدأ يصرخ على الغربان ليعيدوه إلى الإوز البرّي حالاً. إنه في حالة لا يحْسد عليها أبداً، في حساباته الخاصة، لأنه اعتقد أنهم كانوا يحملونه ببساطة بروحية تحمل الأذى.

لمْ يعر الغرابان الحد الأدنى من الانتباه لنصائحه، ولكنهما حلّقا عالياً وبأسرع ما يمكنهما. وبعد قليل، صفّق أحدهما بجناحيه بطريقة تعْني: «انتبه! هناك خطر!». وبعد ذلك هبطا بسرعة في غابة صنوبر، واندفعا بطريقهما بين أغصان شائكة نحو الأرض، وأنزلا الصبي تحت صنوبرة كثيفة، حيث كان قد أخْفي جيداً كي لا يستطيع حتى الصقر رؤيته.

وأشار إليه خمسون غراباً بمناقيرهم، ثم أحاطوا به. قال: «والآن، أيّها الغربان، ربما أنني أفهم أنّ هدفكم هو اختطافي» ولكنْ قلّما سمحوا له بسماع جملته قبل أن يسمع هسيس غراب كبير موجهاً إليه الكلام: «ابقَ في مكانك! وإلا اقتلعت عيْنيك!».

كان من الواضح، أنّ ذلك الغراب كان يعني ما يقول؛ وما على الصبي إلا أنْ يطيع. وهكذا جلس هناك وراح يحدق في الغربان، وفي المقابل راح الغربان يحدقون فيه.

كلما نظر طويلاً إليهم، قلّ احترامه لهم، وكان زيهم الريش مغْبرّاً ومثيراً للاشمئزاز فضلاً عن أنه أشعث – كما لوْ أنّهم لمْ يلامسهم الماء أو الزيت. وكانت أصابع أقدامهم ومخالبهم وسخة وقد جفّ عليها الطين، وكانت زوايا مناقيرهم مغطاة بمرق الطعام. وكانوا طيوراً يختلفون جدّاً عن الإوز البرّي – وهذا ما لاحظه الصبي، وفكر أنّهم قساة، وذوو وجهين، ومؤرقون، وذوو مظهر جريء، تماماً مثل حناجر مقطعة، ومتشردون.

قال في نفسه: «أنا بالتأكيد قد سقطت حقّاً بيد عصابة سرّاق حقيقيين».

وفي هذا الوقت بالذات سمع الإوز البرّي يناديه منْ أعلاه.

«أين أنت؟» أنا هنا «أين أنت؟» أنا هنا.

وأدرك أنّ ذلك الصوت هو صوت أكّا وآخرون كانوا يبحثون عنه في الخارج؛ لكنه قبل إجابتهم، سمع غراباً يبدو أنه قائد العصبة راح يهسّ في أذنه: «افتْح عينيك!» لكنْ لا شيء يستطيع فعله غير التزام الصمت.

راح يسمع أصواتهم مرة ومرتين، ثم تلاشى الصوت تدريجياً. لم يعرف الإوز البرّي أنه قريب منهم جدّاً. وفكر: «حسناً، بإمكانك الذهاب بعيداً، يا نيلز هولغيرسون، والآن ينبغي أنْ تبرهن

إنْ كنت قد تعلّمت شيئاً خلال هذه الأسابيع في الهواء الطلق، أمْ لا؟».

بعد لحظة، أعطى الغربان إشارة التوقف؛ ومنذ أنْ كان لديهم إصرار في نواياهم، بشكل جلي، أنْ يحملوه معهم بعيداً وبمثل هذه الطريقة أمسكه أحدهم منْ شريط قميصه، والآخر منْ جواربه، قال الصبي: «هل لا يوجد منْ بينكم أحد يستطيع أنْ يحملني على ظهره؟ إنكم تسافرون بي الآن بطريقة سيئة إلى حد أنني أشعر كما لو أنني تحولت إلى قطع صغيرة. دعوني أركب! إنني لنْ أقفز منْ على ظهر أيّ غراب، إنني أقسم لكم بهذا؟» والتقط القائد كلامه: «أوه! إننا لسنا بحاجة للاهتمام بكيفية السفر بك». وقال الغراب الأشعث غير المألوف ذو الريش الأبيض في جناحه، وهو يتقدم إلى الأمام: «إنه بالتأكيد من الأفضل لنا يا وند رش، إذا حصل ثمبيتوت على الكل أفضل من أن يحصل على أجزاء. ولهذا فإنني سأحمله على ظهري». قالت: وند رش: «إذا كنت تستطيع حمله يا فوملي دروملي فليس لدي أدنى اعتراض لكن حافظ عليه». وبهذه الطريقة فإنه قد ربح حالياً المزيد وشعر الصبي بالقناعة. وفكر: «ليس هناك شيء تربحه مقابل فقدك حصاة لأنني قد اخْتطفت من قبل الغربان، فأنا بالتأكيد سأكون قادراً على تدبّر تلك التعاسات الصغيرة والقليلة».

استمر الغربان بالطيران باتجاه الغرب الجنوبي، عبر سمولاند. وكان صباحاً مجيداً – مشْمساً وهادئاً. وكانت الطيور على الأرض تغرّد بأجمل أغانيها. وفي الغابة العالية، والمظلمة جلس طائر السمان، خافضاً جناحيه للأسفل ونافخاً حنجرته؛ ليعزف ألحانه. «كم أنت جميل! كم أنت جميل! كم أنت جميل!». راح يغني بهذه الكلمات. «ليس هناك أجمل مني! ليس هناك أجمل مني! ليس هناك أجمل مني! ليس هناك أجمل مني!». وحالما انتهى من تغريداته هذه، راح يكررها مرة أخرى.

بعد ذلك تماماً كان الصبي راكباً عبْر الغابة؛ حين سمع هذه الأغنية مرات عديدة، ولاحظ أنّ طائر السمان لا يعرف أشياء أخرى، فقد وضع يديه إلى أعلى فمه كي يلحن معزوفة بوق، ونادى نحو الأسفل وقال الصبي: «نحن هنا سمعنا هذا منْ قبل، إننا سمعنا هذا منْ قبل». «منْ أنت؟ منْ أنت؟ منْ يسْخر مني؟». سخر طائر السمان محاولاً الإمساك بلمحة منَ المنادي. «إنه المخطوف من الغربان هو الذي يسخر منْ أغنيتك». عند هذا، التفت الرئيس الغراب وقال: «حافظ على عينيك يا ثمبيتوت!». ولكن الصبي أجاب: «أوه! هذا لا يعنيني أبداً، إنني أريد أن أبرهن لك أنني لا أخشاك!».

وواصلوا مسيرهم في السفر أبعد فأبعد داخل المدينة والغابات والبحيرات وفي كل مكان. في

صخور البتولا وفي الأغصان الجرداء حيث جلستِ الآنسة -Wood-Dove- وود-دوف؛ وأمامها جلس السيد وود -دوف Wood-Dove. وراح ينفخ في ريشه رافعاً جسده تارة ثم خافضاً إيّاه تارة أخرى، وراح يطقطق أمام الغصن. وبقي طوال الوقت يهْدل بصوته: «أنت، أنت، المحبوب في الغابة قاطبة. وليس هناك في الغابة محبوب كما أنت، كما أنت، أنت، أنت!».

لكنه وهو في الهواء، استمر الصبي في ركوبه، وحين سمع السيد دوف لم يتمالك نفسه في البقاء مستقراً. فصرخ: «لا تصدقوه! لا تصدقوه!».

لم يستطع دوف أن يستقر، وأخيراً صاح: «هل تصدقونه! لا تصدقوه!». وهدل السيد دوف محاولاً أنْ يرى ذلك الذي صرخ بوجهه: «منْ، منْ، من الذي كذب عليك». وأجاب الصبي: «إنه ذلك الذي خطفته الغربان هو الذي يكذب عليك». والتفتت وند رش مرة ثانية إلى الصبي وأمرته أنْ يخرس، ولكن فوملي درومليِ الذي كان يحمله قال: «دعه يثرثر، وستعتقد الطيور الصغيرة كلها أننا نحن الغربان أصبحنا بديهيّي النكتة وطيوراً ساخرة».

قالت: «أوه! إنهم لم يكونوا إلى هذه الدرجة من الخبل». لكنه يحب الفكرة كما هي، وبعد ذلك ترك الصبي يصرخ كما يروق له.

ومنْ ثم طاروا في الغالب فوق الغابات والأحراش، تقريباً. شاهدوا في الدرجة الأساس قصراً ريفياً قديماً وجميلاً، وأمامه بحيرة، وغابة خلفه. وجدرانه حمراء، ومبنيّ على شكل أبراج؛ تحيطه أشجار الجميّز، فضلاً عن أشجار عنب الثعلب القديمة والسميكة في البستان. وعلى قمة فيذركوك Feathercock[3] جلس الزرزور يغنّي بصوت عال جدّاً حيث راحت زوجته تسمع كل تنغيمة. وهي تحتضن البيض في قلب شجرة الكمثرى: «نحن لدينا أربع بيضات جميلة وصغيرة، نحن لدينا أربع بيضات جميلة، نحن لدينا عش مليء بالبيض الجميل».

حين أكمل الزرزور أغنيته للمرة الألف، صعد الصبي مكاناً مرتفعاً، وقد وضع يديه على فمه، مثل مزمار، وراح ينادي الزرزور: «سينال منهم طائر العقعق. سينال منهم طائر العقْعق».

ورد عليه الزرزور: «من الذي يريد أن يخيفني؟». ورفرف بجناحيه بصعوبة. قال الصبي: «إنّ الذي يخيفك قد صادته الغربان، إنّ الذي يخيفك قد صادته الغربان». في هذه المرة لم يحاول رئيس الغربان إسكاته. الحقيقة، في هذه المرة لمْ يسْخرْ منه هو أو سرّ به كثيراً، ونعق بقناعة.

كلما اقتربوا من البلاد، شاهدوا البحيرات الواسعة، والعدد الكبير من الجزر والأمكنة. ويقف على شاطئ بحيرة بط ذكر منْحنٍ أمام بطّة. وأقسم أمامها: «سأكون لك أبداً وطيلة أيام عمري. سأكون لك أبداً وطيلة أيام عمري». وصاح الصبي: «لا لنْ تستمر أكثر منْ نهاية الصيف القادم». وناداه ذكر البط: «منْ أنت؟». قال الصبي: «اسمي هو المخطوف من الغربان».

في وقت العشاء تناول الغربان طعامهم في البستان. ثم تجولوا فيه وأكملوا وجبة طعامهم، لكن لا أحد منهم قد أعطى الصبي شيئاً. بعد ذلك جاء فوملي ودروملي إلى الرئيس حاملين له طعام ما يطْلق عليه غصن وردة الكلب، وفوقه قليل من البراعم الجافة. «هنا شيء لك، يا وند رش». ثم أضاف: «هذا طعام لذيذ، ومناسب لك». شمّه وند رش بازدراء: «هل تعتقد أنني أتناول طعاماً قديماً، وبراعم جافة؟». ردّ عليه: «كنت أعتقد أنك ستكون مسروراً به!». قال فوملي دروملي، ورمى طعام أغصان براعم الكلب كما لو أنه كان يائساً. وقد سقط الطعام أمام الصبي، ولم يتوانَ عن الإمساك به وراح يتناوله حتى شبع.

حين انتهى الغربان منْ طعامهم، بدؤوا يثرثرون بمرح. قال أحدهم للقائد: «بمَ تفكر، يا وند رش؟ يبدو أنك هادئ هذا اليوم». ردّ عليه: «إنني أفكر أنه في يوم من الأيام كانت هناك في هذه الضاحية دجاجة مغْرمة بسيدتها؛ ولكي تبعث السعادة في داخلها حقاً، ذهبت إلى عشها وملأته بعدد من البيض الذي كانت تخفيه تحت مخزن الطابق الأرضي. وقد اندهشت سيدة الأرض بالطبع، حيث أخفت الدجاجة نفسها لوقت طويل. راحت السيدة تبحث عنها، لكنها لم تجدها. هل تخمّن، يا لونغ بل (المنقار الطويل)، من الذي يجدها ويجد البيض؟».

«أعتقد أنني أستطيع أنْ أخمّن، يا وند رش، لكن حين تخبرنا عنْ ذلك، فإنني سأخبرك شيئاً ما يسرّك. هل تتذكر القطة السوداء الكبيرة في دار أبرشية هينيريد؟ إنّها غير مقتنعة لأنهم دائماً ما يأخذون منها صغارها، ويغرقونها في الماء. لكنها نجحت تلك القطة لمرة واحدة في إخفاء صغارها، وكان هذا حين وضعتهم في كومة قش خلف الباب. وكانت تلك القطة سعيدة جداً بصغارها الشباب، ولكنني أعتقد أننا أكثر سعادة منها».

أيّ نوع من الخدع كان ذلك أنْ تسرق قططاً صغيرة – «كنت ذات مرة أطارد أرنباً شاباً كان رمادياً تماماً. وهذا يعني مطاردته منْ مكْمن إلى مكْمن». ولمْ يستمر في كلامه كثيراً حين قاطعه شخص آخر: «من الممكن أنْ تكون هذه المطاردة نوعاً من الرياضة، وربما تزْعج الدجاج والقطط، لكنني أجدها لعبة مدهشة لأن ذلك الغراب كان بإمكانه أنْ يقلق الإنسان. وذات مرة سرقت ملعقة فضية».

لكن الآن راح الصبي يفكر وكان في وضع جيد أن يجلس ويصغي إلى مثل هذه الثرثرة ثم: «والآن أصغوا إليّ أيتها الغربان! قلت لكم يجب أنْ تخجلوا منْ تبجحكم عن شروركم هذه. فقد عشت بين الإوز البرّي لمدة ثلاثة أسابيع، وبينما أنا بينهم لم أسمع أبداً أو أرى شيئاً باستثناء عمل الخير. ولا بد أنك رئيس سيئ، منذ أنْ سمح لك أن تسلب وأن تقتل بهذه الطريقة. عليك أنْ تسلك حياة جديدة، لأنني أستطيع إخبارك أنّ الجنس البشري قد تعب منْ شرورك وبذل ما بوسعه لاقتلاعك منْ جذورك. وستكون نهايتك سريعة».

حين سمعتْ وند رش والغربان هذا، كانوا غاضبين إلى حدّ أرادوا فيه أنْ يرموا بأنفسهم إليه ويمزقونه إلى قطع. لكنْ فيوملي ودروملي ضحكا ونعقا، ووقفا أمامه. وقال: «أوه! كلا، كلا». قال ذلك، وبدا مذعوراً تماماً. «ماذا تعتقد أنّ وند إير Wind– Air سيقول إذا مزّقت ثمبيتوت إلى قطع قبل أنْ يعطينا النقود الفضّية؟». وقالت رش: «يجب أن تكون أنت يا فوملي دروملي، إنك تخاف حتى من نساء القبيلة ولكن، على كل حال، اتركه والجماعة وثمبيتوت بسلام».

بعد ذلك بفترة قصيرة، انتقل الغربان إلى مكان آخر. وحتى الآن، فإن ذلك الصبي بقي يفكر أنّ مدينة سمولاند لم تكن فقيرة إلى هذا الحد. وبالطبع هي مدينة غابات ومليئة بسفوح الجبال، فضلاً عن الجزر والبحيرات التي تقع الأراضي المزروعة فيها، ولم يأتِ إليها أيّ خراب يذْكر. لكن الأرض الأبعد التي ذهبوا قليلاً إليها هي القرى والأكواخ. وباتجاه النهاية، اعتقد أنه راكب فوق أرض برية لا شيء فيها باستثناء المستنقعات ومروج وعرْعر التلال.

ومالت الشمس نحو الغروب، ولكنْ ما زال أفقها مضيئاً تماماً حين وصل الغربان خلّنج البور الشاسع. وقد أرسل وند رش غراباً مباشرة ليقول إنّه قد اجتمع بنجاح؛ وحينها كان الأمر معروفاً. وطار وند رش ومئات من الغربان منْ على حافة الغراب لمواجهة القادمين. وسط نعيق يصم الآذان قام به الغربان. وقال فوملي دروملي للصبي: «كنت ساخراً جداً ومرحاً جداً خلال الرحلة إلى حد أنني مولع بك حقاً. ولهذا، سأعطيك بعض النصائح المفيدة. وحالما ينْبلج الضوء فإنك ستقوم بعمل بسيط ربما سيكون بسيطاً جداً بالنسبة إليك؛ ولكن احذر القيام به!».

بعد ذلك مباشرة، وضع فوملي دروملي نيلز في قاع حفرة واستلقى على ظهره، وبقي مستلقياً على ظهره هناك رغم أنه قام بهذا ببساطة ورفرفت مجموعة من الغربان حوله وأحدثوا حفيفاً مثل عاصفة، لكنه لم ينظر إلى الأعلى.

قال وند رش: «يا ثمبيتوت، انهض الآن! إنك ستساعدنا بقضية ستكون سهلة عليك».

لمْ يتحرّك الصبي، لكنه تظاهر بالنوم. مما حدا بوند رش أنْ يمسك بذراعه ويسحبه على الرمل باتجاه جرّة مصنوعة منذ زمن مرمية في حفرة!. قال وند رش: «انهض يا ثمبيتوت!». قال الصبي: «لماذا لا تدعني نائماً». ثم تثاءب وقال: «إنني تعب جدّاً ولا أستطيع القيام بأي شيء هذه الليلة، انتظروا حتى يوم غد!». قال وند رش: «افْتح الجرة!». وراح يهزه. وهو يقول: «كيف يستطيع طفل صغير فتح مثل هذه الجرّة؟ خاصة وأنها بقدر حجمي تماماً». وأمره وند رش أكثر منْ مرة: «افتحها! وإلا فإنك ستنْدم!». نهض الصبي مترنّحاً فوق الجرّة، وتخبّط في مشبكه، وأسقط ذراعيه إلى الأسفل. وقال: «لمْ يسْبق لي أن كنت ضعيفاً جدّاً كما هو الحال الآن، فإن سمحت لي فقط بالنوم حتى وقت الصباح، أعتقد أنه بإمكاني تدبّر أمري مع ذلك المشْبك».

لكن صبر وند رش نفد وطار نحو الصبي ونقره في ساقه. لمْ يعر الصبي أهمية لهذه المعاملة من الغراب. وسحب جسده وركض خطوتين إلى الخلف، وسحب سكينه منْ غمْدها، وأمسكها مهدداً منْ أمامه. وصرخ بوجه وند رش: «من الأفضل لك أنْ تكون حذراً!».

لكنّ وند رش كان أيضاً ساخطاً جدّاً لأنه لمْ يراوغ في الخطر، واندفع نحو الصبي، تماماً كما لو أنه أعمى، وركض باستقامة مقابل السكين التي اخترقت عينيه إلى رأسه. وسحب الصبي بسرعة السكين إلى الخلف، لكن وند رش طعنه بجناحيه ثم سقط مفارقاً الحياة.

وصرخ أقرب الغربان: «مات وند رش! لقد قتل رئيس القبيلة وند رش». بعد ذلك حدث صخب مزعج. البعض راح ينوح، وآخرون راحوا يصرخون مهدّدين بالانتقام. وركض الجميع، أو صفّقوا بأجنحتهم باتجاه الصبي، يقودهم فوملي دروملي. لكن دروملي وعادة ما يتصرف بسوء، صفّق بجناحيه، أو مدهما فوق الصبي، مانعاً الآخرين من التقدم إلى الأمام وغرس مناقيرهم في جسده.

واعتقد الصبي أنّ تلك الأشياء تبدو سيئة له. ولمْ يستطع الهروب من الغربان، وليس هناك من مكان يستطيع إخفاء نفسه به. وفجأة خطر له أنْ يفكر بالجرة الأرضية. مسك بقوة المشْبك وسحبه باتجاهه، ومنْ ثم حدث أنّ الجرة كانت مخفيّة هناك، لأنها مليئة تقريباً إلى حافتها بنقود فضية خفيفة وقليلة. ولمْ يعد بإمكان الصبي الذهاب بعيداً، لذا، انحنى وراح يرمي بالنقود من خارج الجرة.

صفّق الغربان بأجنحتهم حول الصبي مشكّلين بذلك سرباً طويلاً، وهم ينقرون به، ولكن حين رمى النقود فإنهم قد نسوا فوراً عطشهم للانتقام، وسارعوا إلى جمع النقود. ورمى الصبي حفنات منها ثم تبع ذلك كل ما تبقى لديه منها – نعم وحتى وند رش ذاتها – التقطتها. ففي الوقت الذي كان كل واحد منهم يلتقط قطعة فضية، راح يركض إلى العش بأقصى سرعة لإخفائها.

بعد أنْ رمى الصبي كلّ النقود الفضيّة التي بقيت في الجرة حدّق إلى الأعلى. ولم يبق هناك أي غراب باستثناء غراب واحد ترك في حفرة رمل. ذلك هو فوملي دروملي، ذو الريشة البيضاء في أحد جناحيه؛ والذي كان قد حمل ثمبيتوت. قال الغراب بنغمة تختلف تماماً عن التي كان يستخدمها حتى هذا اليوم: «أريد إنقاذ حياتك. اجلس على ظهري، وسآخذك إلى مكان خفيّ حيث تقضي هذه الليلة هناك. وغداً، سوف أتدبر أمرك كي تستطيع العودة إلى الإوز البرّي».

القمْرة

الخميس، الرابع عشر من نيسان/ أبريل.

في صباح اليوم التالي حين استيقظ الصبي، كان مسْتلقياً على الفراش، رأى نفسه في دار، ذات أربعة جدران تحيط به، وسقف فوقه. اعتقد أنه في البيت: «إنني أتساءل إنْ كانت أمي ستأتي حالاً وتجلب لي القهوة». قال في نفسه حيث كان يستلقي، نصف مستيقظ. من ثم تذكر أنه كان في قمْرة مهجورة على جبل الغراب وأنّ الذي جلبه هو فوملي دروملي ذو الشعر الأبيض حاملاً إيّاه إلى تلك القمْرة قبل ليلة من الآن. وكان جسمه مقرّحاً كلّه بعد رحلته هذه. وقد فكر أنه من الأفضل له أن يبقى مستلقياً بانتظار فوملي دروملي، الذي أقسم أنْ يأتي ليأخذه.

أزاح جانباً الستائر القطنية ذات المربّعات المعلّقة أمام فراش النوم، ليتطلع إلى الخارج، إلى القمرة. وفجأة انتبه إلى أنه لمْ ير زميله في هذه القمرة. أما الجدران فلا تحتوي على أيّ شيء، باستثناء صفين من جذوع الأشجار؛ ومن ثم يبدأ السقف. كما أنه ليس هناك سقف داخلي. وهكذا يستطيع التطلع بوضوح إلى سقف الشجرة. كانت القمرة من الصغر بحيث تظهر أنها بنيت لمثل هذا الشكل ليبدو أكثر منْ شكل إنسان إلى حد ما. على كل حال، فإنّ موقد النار والمدخنة كانا واسعين. فكر أنه لم ير أوسع منْ هذا. كان مدخل الباب يشكل جداراً شبه جملون إلى جانب موقد النار الذي كان ضيقاً جدّاً، إلى حد أنه بدا أكثر شبهاً ببوابة صغيرة.

في الجدار الثاني الشبيه بجدار جملون رأى شبّاكاً واسعاً وواطئاً وبألواح متعددة. ومن النادر أنْ نجد أثاثاً متحركاً في القمرة. أما الدكة المسنودة إلى جانب الباب والمنضدة تحت النافذة وفوقها قرطاسية، فهي ثابتة – وهناك أيضاً سرير نوم كبير يستطيع أن يستلقي عليه، وخزانة ملونة بألوان متعددة.

لا يمْلك الصبي إلا أنْ يعبّر عنْ دهْشته من الذي بنى هذه القمْرة، ولماذا هي مهجورة. وتبدو بالتأكيد كما لوْ أنّ الناس الذين كانوا يعيشون هناك يتوقعون عودته. فإبريق القهوة وقدر العصيدة موضوعان على الموْقد، فضلاً عن الخشب في موْقد النار؛ وفي إحدى الزوايا تنتصب نار الفرن مشتعلة، وفضلات الخبز مبعثرة قرب الموقد؛ وعجلة الغزل مرتفعة على الدكّة؛ وعلى الرف فوق النافذة يعلق نكيث الحبال والكتان وخصلة خيوط الغزل، فضلاً عن شمعة وباقة منْ أعواد الثقاب.

نعم، من المؤكد أنّها تبدو كما لو أنّ الناس الذين يعيشون هناك ينوون العودة إلى الماضي. فهناك مثلاً، فرشات سرير من القماش منضودة على سرير آخر؛ والجدران علّق عليها شريط طويل من القماش، مرسوم عليه بالألوان، صور ثلاثة فرسان يدْعوْن على التوالي، كاسبرز، وميلكوير، وبالثازار. وقد رسمت الخيول وفرسانها بالألوان الزيتية بعدّة نسخ. وكلهم يمتطون هذه الخيول حول القمرة وباتجاه الروافد.

لكن على السقف رأى الصبي شيئاً جلب انتباهه بلمح البصر؛ إذ ثمة قطعتان من الكيك معلقتان هناك على سفد وتبدوان قديمتين ومتعفنتين، وكانتا رغم ذلك نوعاً من الخبز. وطرق الصبي عليهما وهما على موقد النار، ما أدى إلى سقوط إحداهما على الأرض. وأكل قليلاً منها، ومن ثم ملأ حقيبته. كان شيئاً لا يصدق كيف أن هذا الخبز ما زال طرياً طيلة هذا الزمن الطويل.

تطّلع الصبي حول القمرة أكثر من مرة، محاولاً اكتشاف إنْ كان ثمة شيء آخر ربما يجده مفيداً لفترة أطول. راح يفكر: «من الأفضل لي أنْ آخذ ما أحتاج إليه، لأنه ليس هناك من يهتم به». ولكن في الغالب كان كل شيء كبيراً جدّاً وثقيلاً أيضاً. وحمل ما استطاع من كل ذلك، وربما القليل منْ أعواد الثقاب.

تسلّق على الطاولة وأرْجح نفسه باتجاه ستائر رف النافذة. بينما هو جالس هناك يحشو أعواد الثقاب في حقيبته، دخل الغراب ذو الريشة البيضاء منْ خلال النافذة. قال فوملي دروملي وهو

يحطّ على المنضدة: «حسناً، إنني هنا، أخيراً. لنْ أبقى هنا طويلاً، لأننا نحن معشر الغربان قد انتخبنا شيخ قبيلة جديدًا بدلاً منْ وند رش»، قال الصبي: «من الذي اخترتموه؟». «حسناً، اخترنا واحداً من الذين لا يسْمح بالسرقة والظلم. فقد انتخبنا غارم وايت فيثر، Garm Whitefeather وقد أطْلق عليه مؤخراً فوملي – دروملي». وقد أجاب بأنه نصّب نفسه للمهمة حتى بدا تماماً كأنه ملك. قال الصبي مهنئاً إيّاه: «هذا اختيار جيد». قال غارم: «ربما تتمنى لي حظاً سعيداً». ومنْ ثم أخبر الصبي عن الوقت الذي قضوه مع وند رش ووند إير.

خلال هذا العرْض، سمع الصبي صوتاً خارج الشباك، اعتقد أنه بدا مألوفاً. تساءل الثعلب: «هل هو بخير؟». أجاب صوت غراب: «نعم، إنه مختف هناك». وصاح غارم: «خذ حذرك يا ثمبيتوت! إنّ وند إير واقف هناك في الخارج مع ذلك الثعلب الذي يريد أنْ يأكلك». ليس لديه الوقت كيْ يقول شيئاً، وفي هذه الأثناء قذف الثعلب الماكر نفسه من الشباك. ولعفونة إطارات الشباك القديم ومرونتها، استطاع الثعلب الماكر إنفاذ نفسه من خلالها. في الخطوة الثانية توقف الثعلب الماكر على طاولة الشباك، وكان غارم وايت فيثر لا يملك الوقت الكافي للطيران لقتله حالاً، وهكذا قفز إلى الأرض، وراح يبحث عن الصبي الذي أخفى نفسه خلف نكيث الحبال اللولبية، لكن الثعلب الماكر سرعان ما اكتشفه، ثم جثم استعداداً للوثبة التالية. ولأنّ القمْرة صغيرة جداً وواطئة جداً، فقد أدرك الصبي أنه ليس من الصعوبة بمكان على الثعلب الماكر أن يقترب منه. ولكن في تلك اللحظة لم يكن الصبي من دون سلاح للدفاع عن نفسه، وقد ضرب ضربته، وانطلق إلى نكيث الحبال، وحين التهبت الحبال وجهها ضد الثعلب الماكر. وحين أحاطت النار بالثعلب، جمد برعب جنوني. فكر أنه ليس أمام الصبي وقت للخلاص، واندفع باتجاهه بجنون منْ خارج القمْرة.

لكن يبدو كما لوْ أنّ الصبي هرب منْ خطر ليرمي نفسه إلى خطر أعظم. فقد قذف الثعلب الماكر بخصل نكيث الحبال عليه، وانتشرت النيران إلى مشنقته. قفز إلى الأسفل وحاول إخمادها، لكن زاد لهبها بعنف شديد. امتلأت القمرة بالدخان، أما الثعلب الماكر الذي بقي فقط خارج الشباك، بدأ يدرك حالته الداخلية. صرخ: «حسناً، يا ثمبيتوت، ما هو خيارك الآن؟ هل أشويك حيّاً هنا، أو تخرج حيّاً إليّ؟ بالتأكيد، إنني أفضل وبكل سرور التهامك؛ لكن مهما كانت طريقة الموت التي تواجهها، فإنها ستكون مفضلة لديّ».

لمْ يستطع الصبي التفكير، لكن كان ذلك الثعلب مصيباً، لأن النار زادت منْ سرعتها. كان الفراش بأكمله يلتهب بالنار؛ وراح الدخان يتصاعد من الأرض؛ لكنّ النار زحفت على طول

شريط الجدران المصبوغة منْ راكب إلى راكب. قفز الصبي على موقد النار وحاول فتح باب الفرن، ويبدو أن هناك منْ حشر المفتاح في ثقبه، ولكن وببطء انفتح القفل. فكر: «ربما هناك إنسان قادم إلى هنا». ولكن وهو في مأزقه الرهيب هذا، لم يكن خائفاً، بل كان سعيداً. كان هو الآن على عتبة الباب بعد أن انفتح، وقبل أنْ يقف أمامه طفلان ظهرا حينما شاهدا القمرة تلتهمها النار. ولم يكن لديه الوقت الكافي ليكتشف ذلك، لكنه اندفع إليهما ليفتح لهما الباب.

لمْ يجرؤ على الجري بعيداً. وقد عرف بالطبع، أنّ ذلك الثعلب الماكر كان ينتظره، وأدرك أنّ عليه البقاء قرب الطفلين. التفت ليرى أيّ نوع من الناس هما، لكنه لم ينظر إليهما للحظة قبل أن يركض إليهما ويصرخ بأعلى صوته: «أوه، نهار سعيد، يا أوسا الإوزة! أوه، نهارك سعيد، يا مات الصغير!».

ولأنّ الصبي قد رأى أولئك الأطفال، فإنه نسي تماماً أين هو الآن. وقد تلاشت من ذاكرته الغربان والقمرة المحترقة والحيوانات الناطقة. كان يمشي على حقل قش في ويست فيمنهوغ Vemmenhog West متجهاً إلى سرب الإوز؛ وإلى جانبه، في الحقل، يمشي أطفال سمولاند، مع إوزاتهم. بسرعة نظر إليهم وأسرع بخطواته باتجاه حافة الصخرة وصاح: «أوه، نهارك سعيد يا أوسا الإوزة! أوه! نهارك سعيد يا مات الصغير!».

حين رأى الأطفال مثل هذا المخلوق الصغير متجهاً إليهم وباسطاً يديه، راح يمسك أحدهم بالآخر، مترنحين للخلف، وينظرون بخوف مميت.

حين شعر الصبي برعبهم، تقدم نحوهم، وهنا تذكر منْ هو. وبعد ذلك، أدرك أنه لا شيء قد يحدث أسوأ مما يراه الأطفال الآن وكيف أنه وقع تحت فعْل السحر. وشعر بالخوف والحزن وتغلّب عليه شعوره بأنه لم يعد منْ فصيلة الإنسان – استدار وهرب – من دون أن يدري إلى أين يسير.

لكن السرور كان بانتظار الصبي حين هبط إلى أرض البور، فقد لمح، هناك في هذه الأرض، شيئاً أبيض، قادماً باتجاهه هو ذكر الإوز الأبيض، يصطحب دونفين. وحين رأى الشيء الأبيض الصبي يجري بسرعة، اعتقد أنّ هناك شياطين مخيفة كانت تتعقبه. وهكذا اندفع فوق ظهره وطار معه عالياً.

- تعني الريشة البيضاء، المترجم.

- تعني الرياح المندفعة. المترجم.
- تعني ريشة الديك، المترجم.

الفصل السابع عشر
الفلّاحة العجوز

الخميس، الرابع عشر منْ نيسان/ أبريل.

كان هناك ثلاثة مسافرين، خرجوا في آخر المساء بحثاً عنْ ملاذ لهم لليلة واحدة في ميناء. سافروا عبْر موقع مهجور وفقير شمالي سمولاند. ووجدوا مكان الاستراحة الذي بحثوا عنه؛ ولْم يوهنهم التسكع في البحث عن أسرّة نوم أو غرف مريحة. قال الأول: «إذا كانت إحدى سلاسل تلك الجبال الطويلة فيها قمة عالية جداً وانحدارات تحول دون استطاعة ذلك الثعلب الصعود إليها، فإنه بإمكاننا الحصول على مكان للنوم فيه على أي حال». قال الثاني: «إذا كان أحد تلك المستنقعات الواسعة قد جفّ، فإن ذلك الثعلب لنْ يتجرأ على المخاطرة للذهاب إليه. في هذه الحالة سيكون ملاذاً لليلتنا هذه». قال الثالث: «إذا كان ذلك الجليد لإحدى البحيرات الواسعة التي نستطيع السفر من خلالها رخواً، فإنّ الثعلب لنْ يستطيع الذهاب إليها. لذا فإننا سنجد مأربنا الذي نبحث عنه».

لكنْ أسوأ الأشياء هي حين تغرب الشمس، فإنّ اثنين من المسافرين سيغلبهم النعاس، إذ من الملاحظ عنهما أنّ كل دقيقة تمرّ عليهما تنحني رؤوسهما ويكونان على وشك السقوط على الأرض. أما الثالث الذي استطاع البقاء يقظاً، أخذ وضعه يسوء كلما اقترب الليل. كان منْ سوء حظنا أننا بدأنا نقترب من اليابسة؛ حيث تتجمد المستنقعات والبحيرات، وبهذا استطاع الذئب أن يتجول في كل مكان. أما في أماكن أخرى فإنّ الجليد قد ذاب؛ لكننا الآن في وضع جيد في أبرد المناطق في سمولاند، خاصة وأنّ موسم الربيع لم يأتِ بعد. «وإنني لا أعرف كيف أتدبر الأمر لأجد مكاناً جيداً للمنام يحميني من الثعلب الماكر! الذي سيكون فوقنا قبل انبلاج الصبح».

حدّق في جميع الاتجاهات، لكنه لمْ يجد حماية له يستطيع منْ خلالها أنْ يجد له كوخاً. كانت ليلة مظلمة وباردة جداً. وكانت الرياح تهبّ عاصفة ويهبط الرذاذ، وتحوّلت إلى إزعاج متزايد في كل ثانية تمر عليه.

ربما يبدو هذا غريباً، ربما لا يبدو أنّ لدى المسافرين رغبة، على الأقل، كي يسألوا عن غرفة نوم في أحد البيوت وفي أيّ حقل زراعي، اجتازوا الآن عدة أبرشيات من دون أنْ يطرقوا أيّ

بيت. خاصة، وأنّ هناك كابينات صغيرة تقع على إحدى التلال في ضاحية الغابة، التي يتجول فيها جميع المتشردين الفقراء، يغمرهم الفرح وهم يركضون باتجاهها، غير مبالين بأيّ خطر. وربما في الغالب يغري أحدهم القول إنهم استحقوا مواجهة هذا الزمن الصعب، ولأنهم لمْ يلجؤوا لطلب المساعدة أينما تكون.

لكن أخيراً، حين حلّ الظلام تماماً، كان من النادر أنْ يرى المرء وميض ضوء تحت السماء. أما المسافران اللذان احتاجا إلى راحة منْ وعثاء السفر، فكان لا بد لهما أن يأخذا غفوة صغيرة وهم شبه نائمين، خاصة وقد صادف أنهما الآن في فضاء مزرعة كانت بعيدة عن جميع المزارع المجاورة. ليست لأنّها المزرعة الوحيدة التي تقع هناك في أرض مهجورة، وإنما لأنها بدت غير مسكونة أيضاً. وليس هناك منْ دخان يتصاعد منْ مدخنة؛ وليس هناك بصيص ضوء من خلال النوافذ؛ وليس هناك إنسان يتحرك في المكان. وحين يبقى الإنسان مستيقظاً ويرى المكان راح يقول في نفسه: «دعونا نحاول أن ندخله، مهما يكن. فإننا لن نجد مكاناً أفضل منه».

وسرعان ما وقف الرجال الثلاثة في باحة الدار. كان اثنان منهما قد غلبهما النعاس فجأة بعد أنْ كانا واقفين. لكنّ الثالث راح يتطلع حوله بلهفة، للبحث عنْ غطاء لهم. خاصة وأنّ الحقل لمْ يكنْ صغيراً، فإلى جانب البيت المسكون والإسطبل ومعمل التدخين، هناك سلسلة جبال، ومخازن صغيرة للحبوب، وحظائر ماشية، لكنها تبدو كلها فقيرة بشكل مرعب، ومهلهل. والبيوت كلها رمادية اللون، ومكسوّة بالطحالب، وجدرانها آيلة للسقوط، أما سقوفها فهي ثقوب تتثاءب، وأبوابها معلقة ومنحرفة، ومفاصلها مكسورة. كان من الواضح أنه ليس هناك من يشكو من إزعاج أنْ يُدقَّ مسمار في الجدار منذ زمن بعيد جداً.

في هذه الأثناء، فإنّ الذي استيقظ اكتشف من البيوت ما هو حظيرة أبقار ليس إلا. أيقظ رفيقيه في السفر منْ نومهما، وأرشدهما إلى باب الحظيرة. ومنْ حسْن الحظ، أنّ هذا غير مرتبط بأي شيء آخر، مما سهل عليه أنْ يدفع بسهولة مشبك الباب بقصبة. تنفس الصعداء للفكرة التي تمهد له الدخول إلى الحظيرة. وبينما انفتح الباب متأرْجحاً بطقطقة حادة، سمع رغاء بقرة يقول: «وأخيراً، جئت يا سيدتي؟ وكنت أعتقد أنك لن تأتي لتقديم عشائي هذه الليلة؟».

توقف الشخص الذي استيقظ توّاً على عتبة الباب، وصعقه الرعب حين اكتشف أنّ حظيرة الأبقار لمْ تكنْ فارغة. لكنه رأى فجأة بقرة واحدة في الحظيرة، وثلاث أو أربع دجاجات

فقط؛ ثم تحلّى بالشجاعة مرة أخرى، وقال: «نحن ثلاثة جوالين مساكين جئنا إلى مكان ما، حيث لنْ يستطيع الثعلب مهاجمتنا، كما لنْ يستطيع أي إنسان الإمساك بنا. وإننا هنا نتساءل إنْ كان هذا المكان مناسباً لنا». أجابت البقرة: «لا أعتقد ذلك، لكنه ربما يكون مناسباً». ثم أردفت: «تأكد أنّ الجدران محطمة، لكنّ الثعلب لا يستطيع التسلل منْ خلالها حتى الآن؛ ولا أحد يسكن هنا باستثناء امرأة فلاحة عجوز، لكنْ ليس من المحتمل أنْ يأسر أيّ أحد هنا. ولكن، منْ أنت؟». وبينما هي تتحرك في مقعدها لتلقي نظرة على القادم الجديد، أجاب أول الواصلين: «أنا نيلز هولغيرسون من فيمنهيغ Vemmenhog الذي قد تحوّل إلى قزم، ومعي إوز أليف غالباً ما أمتطيه وآخر رمادي اللون». قالت البقرة: «لم أر منْ قبل إوزات متميزات بين الجدران الأربعة للحظيرة، لكن، على الرحب والسعة، رغم أنني أفضل مجيء سيدتي، لتقدم لي عشائي».

أطلق الصبي الإوزتين في حظيرة الأبقار، التي كانت واسعة إلى حد ما، ووضعهما في معلف فارغ، حيث رقدا للنوم مباشرة. وبالنسبة إليه، فقد رتب لنفسه فراشاً صغيراً من القش، معتقداً أنه هو أيضاً سيغلبه النوم في الحال.

لكن هذا كان مستحيلاً، لأن البقرة المسكينة، التي لم يأتِ عشاؤها، لم تستقر حتى الآن. حرّكت خاصرتيْها، وراحت تتحرك في مقعدها، بينما هي تعاني من الجوع. ولم تغمض عينا الصبي أبداً، لكنه استلقى هناك وراح يفكر بكل ما حدث له خلال تلك الأيام السابقة.

فكّر في الإوزة أوسا، ومات الصغير، الذي التقاه بطريقة غير متوقعة أبداً؛ وحدث له أيضاً، أنّ الكابينة الصغيرة التي أحْرقتْ لا بد وأن يكون بيتهم القديم في سمولاند، وتذكر أنه قد سمع حديثهما تماماً عن تلك الكابينة الصغيرة، وأرض البور الشاسعة التي استلقى تحتها. وراحوا يتسكعون مرة ليروا بيتهم القديم مرة ثانية، وحين وصلوا كانت النار قد شبت فيه.

كان هذا يشكل في نفوسهم حزناً عظيماً جلبه لهم، وقد آلمه ذلك كثيراً جدّاً. فإنْ عاد مرة ثانية إلى مخلوق إنساني، فإنه سيعوض عنْ كلّ الذي صنع هذا الخراب والتقدير الخاطئ.

ومنْ ثم راحت أفكاره تدور حول الغربان. وحين فكر بالإوز فوملي دروملي الذي أنقذ حياته، والذي قد واجه موته مباشرة بعد انتخابه رئيساً للقبيلة، كان حزيناً جدّاً إلى حد أن عينيه اغرورقتا بالدموع.

ورصيده في الحياة الآن هو تلك الأيام العصيبة جدّاً. ولكن على أي حال، فقد وجد ذكر

الإوز، كما وجده الإوز دونفين، وهذه ضربة حظ نادرة جداً.

قال الإوز الذكر حالما اكتشف الإوز البرّي أنّ ثمبتيوت قد اختفى، إنهم قد سألوا جميع الحيوانات عنه في الغابة. وقد علموا فوراً أنّ سرب غربان سمولاند كانوا يحملونه. لكنّ السرب هو خارج رؤية النظر، إلى أين سيكون اتجاههم، لا أحد قادر على معرفة ذلك الاتجاه. ربما يجدون الصبي بأسرع ما يمْكن. وأمرت الإوزة أكّا الإوز البرّي بالانطلاق – اثنين إلى جانب اثنين – وفي مختلف الاتجاهات للبحث عنه. لكن بعد يومين من المطاردة، لا أحد يعلم إنْ كانوا قد وجدوه أم لا، وعليهم أنْ يلتقوا في الغرب الشمالي في سمولاند على أعلى قمة جبل، التي تمثّل انحداراً شديداً، قبالة برج والتي يطْلق عليها Taberg. وبعد أنْ زودتهم أكّا بأفضل الاتجاهات، التي توصلهم إلى تابيرغ، فقد تفرقوا.

وقد اختار ذكر الإوز الأبيض دونفين رفيق سفر، ومن ثم انطلقوا هنا وهناك وبلهفة كبيرة للبحث عن ثمبيتوت. وخلال هذه الجولة سمعوا صوت طائر السماني الذي جلس على قمة شجرة يصرخ ويولول أنّ هنالك شخصاً يطْلق على نفسه المخطوف من الغربان، كان يسخر منه. وقد تحدثوا مع طائر السماني وقد أراهم اتجاه ذلك المخطوف الذي أطلق على نفسه المخطوف من الغربان قد سافر. وبعد ذلك التقوا ذكر الحمام، والزرزور، وذكر البط الذي كان يولول على مجرم صغير كان ينزعج من أغانيهم، والذي كان يسمى المقبوض عليه من قبل الغربان، والأسير من الغربان، والمسروق من قبل الغربان.. إلخ، الذي خطفته الغربان والمسروق من الغربان. وبهذه الطريقة، لم يكونوا قادرين على إيجاد أي أثر لثمبيتوت على مساحة البور كلها في أبرشية سونيربو.

حالما وجد البط الذكر ودونفين ثمبيتوت، حلّقا باتجاه الشمال كي يصلوا تابيرغ. ولكنه كان طريقاً طويلاً للوصول، فضلاً عنْ ذلك ساد الظلام الداكن فوقهما قبل أنْ يلْمحا قمة الجبل. فكر الصبي، قبل أن يهبط نحو القش ليتدفأ من البرد: «إذا وصلنا صباح غد فإن كل وعثاء السفر ستزول بالتأكيد». وخلال هذه الفترة كلها فإنّ البقرة المدللة ستكون غاضبة في كرسيها المتحرك. وبعد ذلك فجأة، شرعت بالحديث مع الصبي: «كان كل شيء لا يسير في الطريق الصحيح معي، فأنا بقرة جفّ ضرْعها، وليس هناك علاج لي كما ليس لدي علف للعشاء، ولا فراش نوم لي، وسيدتي تأتي وقت الفجر لتنظم كل شيء لي، ولكنها تشعر بالمرض وسرعان ما تعود إلى مكانها في الكابينة؛ لا عودة ترجى منها بعد ذلك».

قال الصبي: «إنّ ما يحزنني جداً أنني ضئيل الجسم ولا قوة لي ولا حول». قالت البقرة: «لا

تجعلني أصدق أنك ضعيف ولا حول لك ولا قوة، لأنّ جميع الأقزام الذين سمعت عنهم كانوا أقوياء إلى حد أنهم يستطيعون أن يحملوا العلف كله، ويميتون البقرة بضربة قاضية واحدة». لم يستطع الصبي تمالك نفسه من الضحك لكلام البقرة وقال: «إنهم أقزام مختلفون عني، لكنني أستطيع أنْ أرخي الحبل عن رقبتك وأفتح الباب لك، وبهذا تستطيعين الخروج وتشربين من أحد الأحواض وأنا أحاول التسلق على المتبنة وأرمي العلف لك». قالت البقرة: «نعم، هذه ستكون مساعدة منك». وعمل الصبي كما قال؛ وحين وقفت البقرة أمام علفها، فكر بأن عليه الآن الذهاب أخيراً لينام بعض الوقت. ولكنْ من الصعوبة بمكان أنْ يزحف إلى فراش النوم في الأسفل، قبل أنْ تتحدث معه البقرة بشيء جديد. قالت البقرة: «يجب أنْ تكون صادقاً إنْ سألتك عن شيء أكثر مما تسأل أنت؟». أكد الصبي: «أوه، كلا، لا أفعل ذلك، إنه فقط شيء أستطيع القيام به». قالت البقرة: «بعد ذلك، سأسألك أنْ تذهب وتدخل الكابينة، مباشرة أمامك، لتكتشف كيف تدبر سيدتي أمورها. وأخشى أنّ مصيبة أو سوء حظ قد أصابها». قال الصبي: «كلا، لا أستطيع فعل ذلك. ولا أستطيع أنْ أظْهر نفسي أمام مخلوقات إنسانية». قالت البقرة: «بالتأكيد أنت لا تخاف امرأة عجوز ومريضة. ولكنك ينبغي ألا تخاف أن تدخل الكابينة، عليك أن تقف في خارج الباب وتتلصص منْ خلال فتحة القفل!». قال الصبي: «أوه! إنْ كان ذلك كلّ ما تريدين أنْ تسأليني إيّاه، فإنني سأقوم به، بالطبع».

وبتلك الطريقة فتح باب الحظيرة وذهب إلى الباحة. كانت ليلة مرعبة! لا القمر يضيء ولا النجوم تشع؛ وتهب الرياح عاصفة، وينزل المطر كالسيول الجارفة. وأسوأ ما في ذلك هو البومات السبع الجالسات صفاً واحداً تحت مزراب الكابينة. وإنه لشيء مروّع مجرد سماع صوتهن، حيث يجلسن وهنّ يدمدمنّ عن الجو؛ لكنْ الأسوأ هو ما الذي يحدث له لو وضعتْ إحدى البومات عينيها عليه. فهذا يعني نهاية حياته. قال الصبي بينما هو يغامر: «الشفقة لكل مخلوق صغير!». وكان يملك الحق في أن يقول ذلك الكلام، لأن الريح نفخته مرتين قبل دخوله الدار؛ وذات مرة اكتسحته الريح وقذفت به إلى حوض سباحة كان عميقاً وكاد أنْ يغرق. لكنه ذهب إلى هناك رغم أنفه.

راح يتسلّق مدرّجات السلّم ودخل عتبة الباب. كان باب الكابينة مغلقاً، لكنه هبط إلى إحدى الزوايا وكانت قطعة كبيرة من الحجر قد قطعت الطريق، لمنع القطة من الدخول والخروج. وليس هناك أية صعوبة تحول دون رغبة الصبي في رؤية الأشياء في الكابينة.

كان من الصعوبة بمكان التحديق في الداخل حين ترنح نحو الخلف واستدار رأسه جانباً. وكانت هناك أرنبة متمددة على الأرض في الداخل. لم تتحرك؛ ويبرق وجهها الأبيض بغرابة، كما لو أنّ هناك قمراً غير مرئي قد ألقى ضوءاً فوقها.

وتذكر الصبي ذلك حين كان جدّه لأبيه قد توفي. وفهم أنّ المرأة العجوز التي كانت مستلقية على أرضية الكابينة ستموت. ربما جاءها موت مفاجئ ولمْ يمنحها الوقت الكافي لترقد في فراشها.

بينما هو يفكر لأنه كان وحيداً مع الموت في وسط ليلة مظلمة، كان خائفاً بشكل مرعب، ورمى نفسه على بعد مسافة إحدى المدرجات وانطلق نحو الحظيرة.

حين أخبر البقرة بما قد شاهده في الكابينة، توقفت عن الأكل. ثم تأوّهت وقالت: «ماتت سيدتي أيضاً، كما أنّ الموت قادم إليّ لا محالة». قال الصبي بارتياح: «هناك شخص ما سيرعاك دائماً». قالت البقرة: «أوه! إنك لا تعرف، أنني أبلغ ضعف بقرة عجوز حالياً عندما وضعوا رقبتها على دكة المسْلخ، ولكنني لا أريد أن أعيش طويلاً، منذ أن ذهبت تلك البقرة لم تعد تعتني بي أبداً».

لمْ تقل المزيد في هذا الوقت، لكن الصبي لاحظ أنها لم تنْم ولمْ تأكلْ حتى. لمْ يمر وقت طويل قبل أن تبدأ الكلام مرة ثانية. قالت: «هل كانت نائمة على الأرض عارية؟». قال الصبي: «نعم، كانت عارية». قالت: «كان من عادتها أن تخرج إلى الحظيرة». ثم استمرت في كلامها: «وتتحدث عن كل شيء يزعجها، وأفهم ماذا تقول، رغم أنني لا أتجاوب معها. كانت في أيامها الأخيرة تتحدث عنْ خوفها ربما ليس هناك من أحد يكون قربها حين تموت. وكانت منزعجة بشكل أقل ربما لأنه لا أحد قريب منها كَي يغلق عينيها ويطوي يديها على صدرها، بعد مفارقتها الحياة. ربما تذهب أنت إليها وتفعل ذلك؟» تردد الصبي. وتذكر حين توفي جده، كانت أمه تعتني به كثيراً وتضع كل شيء في مكانه المناسب. كان يعرف أنّ هناك شيئاً ينبغي إنجازه. لكنْ من الجانب الآخر، شعر أنه لا يجرؤ على الذهاب إلى الميت، في ليلة شبحية. لكنه لم يقل لا؛ ولم يخطُ خطوة واحدة باتجاه باب الحظيرة. ولدقائق معدودة كانت البقرة العجوز صامتة، كما لو أنها تنتظر جواباً. لكن حين لمْ يقل الصبي شيئاً، لم تكرر طلبها. وبدلاً عن ذلك، بدأت الحديث معه عن سيدتها.

هناك الكثير يجب أنْ يقال، أولاً، وفي الغالب، عنْ جميع الأطفال الذين ربّتهم. إنهم كانوا

في حظيرة الأبقار في كل يوم، وفي فصل الصيف فإنهم يأخذون الماشية إلى المرعى في المستنقع وفي البستان، لذلك تعرف البقرة عنهم كل شيء. كانوا رائعين جداً، جميعهم، سعداء ومجدّين. وتعرف البقرة جيداً أن القائمين على رعايتها كانوا جيدين.

وهناك أيضاً الكثير ينبغي أنْ يقال عن الحقل، إنه لمْ يكنْ دائماً فقيراً كما هو الحال الآن، رغم أنّ القسم الأعظم منه يتألف من المستنقعات وبساتين صخرية. وليس هناك غرف كثيرة تركتْ لهذه الحقول، ولكنْ كان الكثير من العلف متوافراً في كل مكان. في وقت واحد كانت هناك بقرة لكل معْلف في الحظيرة، أمّا حظيرة الثيران فهي شاغرة الآن. كانت في وقت ما مليئة بالثيران. وكانت هناك حياة فيها مسرّات ومباهج في الحظيرة والكابينة. حين تفتح السيدة باب الحظيرة تجد دائماً همهمة وغناء، وتعبّر جميع الأبقار عن ارتياحها وسعادتها حين يسمعْن أنها قادمة إليهن.

لكنّ الرجل الطيب قد مات حين كان الأطفال صغاراً ولا يستطيعون القيام بالمساعدة، ما يعني أنّ على السيدة القيام بالمسؤولية. كانت قوية كما رجل؛ وكانت تقوم بالفلاحة والحصاد. وفي المساءات، حين كانت تأتي إلى الحظيرة لحلب الأبقار، تكون في بعض الأحيان تعبة إلى حدّ يدفعها للبكاء.

لكنْ حين فكرت بالأطفال نزلت دموعها: «لا يهم. فأيام الفرح قادمة إليّ مرة ثانية. لو أن أطفالي شباباً، نعم، لو أنهم شباب فقط».

لكنْ حالما شب الأطفال، تغلّبت عليهم رغبة عارمة. لا يريدون البقاء في البيت، لذا فقد هاجروا إلى بلد غريب. ولم تحصل أمهم على أيّة مساعدة منهم. كان عدد منهم قد تزوج قبل أنْ يهاجروا، وتركوا أطفالهم خلف البيت القديم. ولا بد أنّ أولئك الأطفال يرافقون السيدة في الحظيرة، تماماً كما لو كانوا أطفالها. وراحوا يعتنون بالأبقار، وكانوا أناساً طيبين، ورائعين. وفي أحد المساءات حين كانت السيدة متْعبة جداً غلبها النعاس في منتصف وقت حلب الأبقار، وأرادت أن توقظ نفسها مرة ثانية لتعيد الشجاعة لنفسها وتعيد حلب الأبقار. قالت في نفسها: «الوقت الممتع قادم إليّ أيضاً»، وانتفضت على النعاس وقالت: «حين يشبّون ذات يوم».

وشبّ الأطفال، وذهبوا إلى آبائهم في البلاد الغريبة. ولا أحد منهم قد عاد، ولا واحد بقي في المنزل. وتركت السيدة وحيدة في الحقل.

ربما لمْ تسألهم أبداً البقاء معها. وقالت، بينما هي تقف في وسط الإسطبل مع البقرة العجوز: «شكراً يا ريدلينا، إنني أريد أنْ أسألهم أنْ يبقوا معي، حين استطاعوا الخروج إلى العالم وتمتعوا بالارتياح. وهنا في سمولاند كانوا فقراء وحسب ويتطلعون إلى المستقبل».

لكن حين رحل آخر جدّ للأطفال، راحت تواجه الحياة وحدها، وتدريجياً، انحنى ظهرها واسمرّ لونها، وراحت تتمايل في مشيتها، كما لو أنها لا تمتلك القوة لتتحرك. ووصل بها الأمر إلى أنْ تتوقف عن العمل. ولم يهمّها الاعتناء بالحقل، ودعتْ كل شيء على الرف خراباً. كما أنها لمْ تُعدْ ترميم الدار؛ وباعت البقرات كما باعت الثيران. والشيء الوحيد الذي احتفظت به هو البقرة العجوز التي تجيد الكلام مع ثمبيتوت. وتركتها تعيش معها لأنّ جميع الأطفال قد غادروها.

كان بإمكانها أن تتخذ خادمات للعناية بها، كما كان بإمكانها أنْ تتخذ أيدي عاملة لمساعدتها للاهتمام بالحقل، لكنها لم تستطْع تحمّل رؤية الغرباء منْ حولها، منذ أن هجرتها خادمتها الأولى. ربما كانت أكثر اقتناعاً أنْ ترى الحقل يتداعى للخراب، منذ أن أدركت أن لا أحد منْ أطفالها عاد إليها ليتحمل المسؤولية بعد مغادرتها الحياة. ولا يهمها إفقار نفسها لأن لا فائدة ترجى من المستقبل. ولكنها لا تنزعج كثيراً حين تعرف أنّ أطفالها يعرفون كمْ من الشقاء تعاني بعد مغادرتهم. وقد تأوهت وهي تتداعى في الحظيرة: «لو أن الأطفال لم يسمعوها على الأقل تتحدث عن كل ما تعانيه».

ويكتب لها الأطفال باستمرار، ويلتمسونها أنْ تلتحق بهم؛ لكنها لا ترغب في ذلك. لأنها لا تريد أنْ يصادروا الأرض منها. وهي غاضبة على هذه الفكرة. «هذه حماقة مني، لأنني، لا أحب تلك الأرض التي تكون مفيدة لهم. لكنني لا أريد أنْ أراها».

وفكرت بالأطفال فقط، وبهذا – كلا، إنهم بحاجة إلى أنْ يغادروا. حين يأتي الصيف يجب أنْ تقود البقرة لترعى في المستنقع الكبير. وبقيت طيلة النهار جالسة على حافة المستنقع، ويداها في حجرها، وهي في طريقها إلى البيت راحت تحدث نفسها: «اسمعي، يا ريدلينا، إذا كانت هنا حقول غنية وكبيرة، في هذا المستنقع القاحل، فإنه ليس هناك حاجة لمغادرتهم».

شعرت بالغضب أن لا تجني شيئاً من هذا المستنقع الذي يمتد إلى مساحات كبيرة. جلست وراحت تتحدث عن خطأ هذا المستنقع الذي دفع بالأولاد إلى مغادرتها.

في المساء الماضي كانت ترتجف وشعرت بالوهن أكثر من السابق، إلى درجة أنها لم تستطع

حلب الأبقار. واعتادت أنْ تكون مقابل المعلف وتتحدث عن شخصين غريبين قد شاهداها، وسألاها إنْ كان من الممكن شراء المستنقع. لأنهما يريدان تجفيفه، وقالا، إنهما يريدان إحياء زراعة الحبوب فيه. وهذا ما جعلها متلهفة وسعيدة. قالت: «هل سمعت يا ريدلينا، هل سمعت أنه بالإمكان زراعة الحبوب في المستنقع، والآن، سأكتب للأولاد كي يعودوا إلى الوطن. ولا ينبغي عليهم البقاء فترة أطول هنالك؛ والآن عليهم أنْ يأكلوا خبزهم في وطنهم هنا». وبهذا فقد غادرت إلى الكابينة لتقوم...

لمْ يسمع الصبي أكثر منْ هذا، بادر وفتح الباب، عبر الباحة في طريقه إلى الموت، الذي تمناه، ولكن في آخر الأمر كان خائفاً جداً.

لمْ تكن الكابينة كما توقع. إنها مجهّزة بأنواع الأشياء، ويجد فيها المرء عموماً منْ بين أولئك الذين لهم أقارب في الولايات المتحدة الأميركية. وفي إحدى الزوايا نجد كراسي صخرية أميركية؛ وعلى الطاولة أمام النافذة كان يقع غطاء فخم مطرز؛ كما يوجد جمال ينسحب على فراش النوم، وعلى الجدار، أطر خشبية منحوتة، وصور لأطفال، ولأجدادهم معلّقة والذين ذهبوا بعيداً؛ وعلى المكتب تنتصب أصص عالية ومجموعة من حاملات شمع وعليها شموع حلزونية.

بحث الصبي عنْ علبة ثقاب لإشعال تلك الشموع، ليس لأنه يحتاج الكثير من الضوء أكثر مما يحتاجه الآن، بل لأنه فكر بأنّ ذلك هو أحد الطرق في تشريف الموتى.

ومنْ ثم صعد إلى المرأة، أغلق عينيها، وطوى يديها وقاطعهما على صدرها، ورفع شعرها الخفيف الرمادي من على رأسها. وشعر بعدم الخوف منها، لكنه حزن بعمق لأنها كانت تجْبر على العيش بالرغم منْ عمرها في الوحدة والرغبات. وهو، أخيراً، سيحرس جثمانها هذه الليلة.

التقط كتاب الأناشيد، وجلس يقرأ مجموعة منْ تلك الأناشيد بصوت منغّم منخفض. لكن في منتصف القراءة، بدأ يفكر بوالدته ووالده. والتفكير بذينك الوالدين اللذين كانا يتوقان لأطفالهما! وهذا ما لم يعرفه أبداً، والتفكير بأن حياتهما يمكن أن تكون رغم ذاك قد انتهت بطريقة ما حين يكون أطفالهما قد غادروهما! فكر في أولئك الذين في الوطن، الذين ما زالوا يتوقون إليه بالطريقة ذاتها التي ماتت فيها العجوز الفلاحة وهي تتوق إلى أطفالها!

بعثت هذه الفكرة مشاعر السعادة في داخله، لكنه لمْ يتجرأ على الإيمان بها، لأنه ليس من

ذلك النوع الذي يتوق إليها الإنسان.

لكن ما هو الشيء الذي لمْ يكنه، ربما يكون فعلاً هو ذلك الإنسان. وحين راح يتلفّت من حوله، شاهد لوحة زيتية لأولئك الذين ذهبوا بعيداً. كانوا كباراً، رجالاً ونساء أقوياء، ووجوه مليئة باللهفة. هناك فخر في حجابات النساء الطويلة، ورجال مهذبون بملابسهم الأنيقة، كما هناك أطفال بشعورهم المتموجة وأزيائهم البيضاء الجميلة. وفكر أنهم جميعاً يحدقون بطريقة عمياء في الفراغ ولا يريدون رؤية الأشياء.

قال الصبي للوحات الزيتية: «أيتها النساء وأيها الرجال المساكين! لقد ماتت أمكم، وإنكم لا تستطيعون تعويضها الآن. هذه الأم قد غادرتكم. لكن أمي ما زالت حية».

وهنا توقف، وأحنى رأسه ثم ابتسم لنفسه، وقال: «أمي ما زالت على قيد الحياة. أمي وأبي كلاهما على قيد الحياة الآن».

الفصل الثامن عشر
منْ تابيرغ إلى هوسكفارنا

الجمعة، الخامس منْ نيسان/ أبريل.

جلس الصبي مستيقظاً طيلة الليلة بكاملها، لكنْ مع انبلاج الفجر نام وحلم بأمه وأبيه. كان من الصعوبة بمكان أنْ يميز بين معالمهما. كان لونهما يتحوّل إلى اللون الرمادي. وكان وجهاهما يبدوان عجوزين. تساءل كمْ من الزمن قد مضى عليهما، أجابا أنهما قضيا عمراً طويلاً من الزمن لأنهما كانا يشتاقان إليه. كان مندهشاً ومتأثراً، لأنه كان لا يصدق أنهما كانا سعيدين للتحرر منه.

حين استيقظ كان صباحاً جميلاً، وجوّاً صافياً. أولاً، تناول قطعة خبز وجدها في الكابينة؛ ومنْ ثم قدّم للإوز والبقرة فطورهما، فتح باب الزريبة، وخرجت البقرة إلى أقرب حقل. حين شاهدها الجيران قادمة وحدها، أدركوا أنّ ثمة شيئاً قد حدث لسيدتها. سارعوا إلى الحقل القفر ليتأكدوا ما الذي حدث لها تماماً. وبالفعل وجدوها قد فارقت الحياة ودفنوا جثتها.

لم يكن من السهل أنْ ينتقل الصبي والإوز إلى حيث الهواء، حين نظروا نظرة خاطفة إلى أعلى الجبل وفي الأغلب إلى جدران الأعمدة، وبسرعة، توضحت لهم قمة الجبل تماماً؛ وعرفوا أنّ هذا المكان هو تابيرغ. تقف على قمته أكّا، مع يكسي Yksi، وكولمي،kolmi ونيليا Nalja، وفييزي Viisi، وكيوسي Kuusi، وجميع فراخ الإوز الستة بانتظارهم. هناك مرح صاخب، وقوقأة دجاج، وصفْق أجنحة، ومناداة، ولا أحد يستطيع وصفها، حين شاهدوا أنّ ذكر الإوز ودونفين قد نجحا في إيجاد ثمبيتوت.

على جانب تابيرغ Taberg نمت الغابة عالياً، لكن أعلى قمتها كانت قاحلة؛ ومن هناك استطاع أحدهم أنْ ينظر بعيداً في كل الاتجاهات. وإنْ حدّق شخص ما باتجاه الشرق، الجنوب، أو الغرب، فإنه لا يلمح شيئاً البتّة على مدى مسافة نظره باستثناء أرض مرتفعة، وأشجار صنوبر داكنة، وأرض سباخ سمراء، وبحيرات جليدية، وحافات جبلية مائلة إلى الزرقة. لم يستطع الصبي منع نفسه من التفكير حقاً أنّ الإنسان الذي صنع هذا لم يتعرض إلى ألم كبير في عمله، لكنْ ومضت بباله فكرة، وهي أنه إذا نظر الإنسان إلى الشمال، فإنّ الأمر يختلف، وهنا يبدو كما لو أنه قد اكتشف عناية وعاطفة عظيمتين. في هذا الاتجاه يشاهد

الإنسان فقط الجبال والوديان الناعمة والتواءات الأنهار، كلها متجهة إلى بحيرة فاتيرن الكبيرة التي تستلقي على الجليد بحرية وبشفافية رقراقة، ومشرقة كما لو أنها مليئة بالماء لكنها مجرد ضوء أزرق.

إنها بحيرة فاتيرن التي تضفي مثل هذا السحر العجيب على المشهد شمال جبل تابيرغ. كما لو أنه أثير أزرق يرتفع نحو الأعلى من البحيرة، والذي يخفي الأرض والبساتين والتلال والسقوف وأبراج مدينة ينشوبنغ التي تتلألأ عبر شواطئ بحيرة فاتيرن، وتغلّف بلون أزرق فاتح يربت على العين. فإنْ كانت هناك بلدان في السماء، فإن مثل هذا المشهد لا يكون إلا في السماء. وفكر الصبي، أنه يعتقد أنّ لديه فكرة واهنة، إذ كيف يبدو لنا مثل هذا المشهد في الجنة!

في آخر اليوم، حين استمر الإوز في رحلته، حلّق باتجاه الوادي الأزرق. كانوا في مزاج يوم عطلة. راحوا يصرخون ويحدثون ضوضاء بحيث لا أحد منهم يسمع ذلك الضجيج.

حدث هذا ليكون أوّل ربيع جميل حقّاً في هذا الفصل. وفعل الربيع فعْله تحت تأثير المطر وعصْف الريح؛ لكنْ مع ظهور الطقس الجميل المفاجئ، كان الناس مفْعمين بمثل هذا التشوّف بعد حرارة الصيف والغابات الخضراء التي قلما تنجز مهامها. حين طار الإوز البري محلّقاً عالياً فوق الأرض، طليقاً ومرحاً، أوقف الجميع أعمالهم ولحقوا به.

إن أول من رأى الإوز البرّي في ذلك اليوم، هم عمّال المعادن في جبل تابيرغ الذين يحفرون المعدن النفيس في فم الكنز. وحين سمعوا قوقأتهم، توقفوا عنْ حفرهم في الكنز ونادى أحدهم على الطيور: «إلى أين أنتم ذاهبون؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟». لمْ يفهم الإوز البرّي ماذا يقول. انحنى الصبي إلى الأمام منْ على ظهر الإوز وردّ عليهم: «حيث لا معْول ولا مطْرقة». حين سمع عمّال المنجم كلماته، اعتقدوا أنها كانت رغبتهم التي خلقت ثرثرة الإوز التي تبدو كما لو أنها كلام إنسان. صاح على الإوز: «خذونا بعيداً معكم! خذونا بعيداً معكم!» صرخ الصبي: «لا، ليس هذه السنة، لا، ليس هذه السنة».

اتبع الإوز مجرى نهر تابيرغ باتجاه بحيرة مونك. وخلال هذه الفترة كلها قاموا بالجلبة ذاتها. هنا، وعلى قطّاع الأرض الضيّقة بين بحيرة مونك وبحيرات فاتيرن تقع مدينة ينشوبنغ وبمعاملها العظيمة. أولاً تابع الإوز البرّي الطيران عبر مصانع ورق بحيرة مونك. وقد انتهت استراحة ساعة الظهر الآن. تقاطر العمال العظماء إلى بوابة المطحنة. حين سمعوا الإوز

البرّي، توقفوا للحظة إصغاء. نادوهم: «إلى أين أنتم ذاهبون؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟». وفهم الإوز البري أنه لا شيء يستحق الرد بما قالوه، لكن الصبي أجابهم: «نحن ذاهبون إلى حيث لا مكائن ولا صناديق بخار». حين سمع العمال الجواب، اعتقدوا أنّ هذه هي رغبتهم التي دفعت الإوز يثرثر كما لو أنهم بشر. قال العمال: «خذونا معكم». أجاب الصبي: «ليس هذه السنة، ليس هذه السنة».

وأخيراً، حلّق الإوز البرّي فوق ما يعْرف جيداً بمصنع الثقاب، الذي يقع على سواحل فاتيرن – واسعاً كحصن – بمداخنه التي تلامس السماء. ليس هناك منْ يتحرك في الساحات؛ لكنْ في القاعة الواسعة هناك عاملات شابات جالسات يعبئن أعواد الثقاب. وقد فتحن النافذة، منْ أجل خلق جو جميل. ومنْ خلال فتحات تلك النافذة، جاء الإوز البرّي وهو ينادي. وكانت المرأة الجالسة قريباً من الشباك قد اتكأت وبيدها علبة ثقاب وراحت تصرخ: «إلى أين أنتم ذاهبون؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟» رد الصبي عليها: «إلى تلك الأرض التي لا حاجة فيها للضوء أو عيدان الثقاب». وما سمعته الفتاة من كلمات هي ثرثرة الإوز البري، ولكنها قد ميزت قليلاً من تلك الكلمات، وردت بصوت عال: «خذوني معكم! خذوني معكم!» أجاب الصبي: «ليس هذه السنة، ليس هذه السنة».

في شرق المصانع تقع مدينة ينشوبنغ على موقع يعدّ أكثر مجداً يمكن أنْ تشغله مدينة. أمّا بحيرة فاتيرن فهي تقع على منحدر كثبان رملي، وكلاهما يقع على الجوانب الغربية؛ لكنهما مستقيمتان من جهة الجنوب، على جدران رملية. كما لو أنّ هذه الجدران الرملية تصنع غرفة لقلعة كبيرة، يستطيع المرء منْ خلالها الوصول إلى البحيرة. في وسط القلعة – هناك جبل على الجهة اليسرى، وجبل آخر على الجهة اليمنى؛ وخلفهما تقع بحيرة مونك، وأمامها بحيرة فيتيرن – تقع مدينة ينشوبنغ.

طار الإوز البرّي فوق مدينة ضيقة وطويلة، وتصرفوا هنا كما لو أنهم في مدينتهم. لكن لا أحد ردّ عليهم من سكان المدينة. ولا يمكن لأحد أنْ يتوقع أنّ أناس المدينة سيتوقفون في الشارع وينادون على الإوز البرّي.

امتدت الرحلة مسافة أبعد باتجاه شواطئ فاتيرن؛ وبعد مسافة قصيرة إلى مدينة سانا سانيتاريوم. Sanna Sanitarium حيث كان بعض المرضى يخرجون إلى الشرفة للتمتع بهواء الربيع، ويسمعون أيضاً جلبة الإوز البرّي: «إلى أين أنتم ذاهبون؟» ويسأل أحد ما بصوت واهن بالكاد يسْمع: «إلى تلك الأرض حيث لا حزن فيها ولا مرض». ويجيب

الصبي: «خذونا معكم، خذونا معكم»، ويجيبه الصوت الواهن: «ليس هذه السنة، ليس هذه السنة».

استمروا محلّقين في طيرانهم لمسافات بعيدة، وأخيراً وصلوا مدينة هوسكفارنا التي تقع على الوادي. أمّا الجبال التي تحيط بها فكانت منحدرة وتشكّل جمالاً. ويندفع النهر عبر القمم وشلالات طويلة وضيقة. وورش كبيرة ومصانع تقع أسفل جدران الجبل، وتتناثر عبر أعماق الوادي حيث تقع مساكن العمال، تحيط بها حدائق صغيرة؛ في وسط الوادي تقع المدارس. تماماً في الوقت الذي وصل فيه الإوز البرّي، دقّ الجرس وتزاحم الأطفال وامتلأت بهم باحة المدرسة وكانوا يسيرون وهم يشكلون خطاً واحداً، كان عددهم كبيراً حيث غصّت بهم ساحة المدرسة. صرخ الأطفال حين سمعوا الإوز البرّي: «إلى أين أنتم ذاهبون، إلى أين أنتم ذاهبون». أجابهم الصبي: «إلى حيث لا نجد كتباً ولا دروساً». أجاب الطفل: «ليس هذه السنة، ليس هذه السنة، وإنما في السنة القادمة!».

الفصل التاسع عشر
بحيرة الإوز الكبيرة

جارو البطة البرّية

على الشاطئ الغربي لمدينة فيترن يلوح في الأفق جبل أومبيرغ، وفي الجهة الشرقية منه تقع مدينة داغموسه Dagmosse، وتماماً في شرق داغموسه يقع سهل توكيرن وحول توكيرن كلّها يمتد واسعاً سهل أوستيرغوتا Ostergota وبذا، من المحتمل أنهم زرعوا وجنوا في أعماق البحيرة. لكنهم لم ينجحوا في أوستيرغوتا.

وبحيرة توكيرن هي بحيرة واسعة تماماً، وفي الأزمنة الخوالي لا بدّ وأنْ تكون واسعة أيضاً. إلا أن الناس يعتقدون أنها غطّت السهل الخصْب كله، وهكذا حاولوا تجفيف المياه فيها، بهدف الزراعة في أعماقها وبالتالي جني المحصول – لكنهم لم يوفقوا في وضع الأنقاض في البحيرة كلها، الذي كان هدفهم الحقيقي – ورغم ذلك ما زال يختفي الكثير من الأراضي. إنّ التجفيف، يعني تحويلها إلى مياه ضحلة، وهذا يعني أيضاً أنه من الصعوبة بمكان سبر غور العمق أكثر منْ قامة رجل. وبالتالي، تتحوّل الشواطئ إلى مستنقعات وأطيان؛ وتنشأ خارج البحيرة جزر طينية وسط سطح الماء.

وهنا، إنْ وقف شخص ما يحبّ الوقوف على قدميه في الماء، وكان جسمه ورأسه في الهواء، فهذا يعني وجود قصب. ولا يمكن إيجاد مكان أفضل للنمو أكثر من الشواطئ الضحلة والطويلة لتوكيرن. ومنْ حولها الجزر الطينية الصغيرة التي تزدهر جيداً وتنمو طولاً أكثر منْ قامة رجل، فضلاً عن أنها ثخينة جداً حتى يبدو من المستحيل دفع زورق فيها إلى الأمام. وفيها يتشكل سياج أخضر واسع حول البحيرة كلها، لذلك سيكون مقبولاً وجود زورق في أمكنة قليلة، حين يبتعد الناس عن القصب.

لكنْ إذا كان القصب قد يمنع الناس من الوصول إليه، فإنه بالمقابل يعطي المأوى والحماية لمخلوقات أخرى كثيرة. لأنه يوجد في القصب كثير من السدود الصغيرة والقنوات التي ما يزال ماؤها أخضر؛ حيث يتواجد ما يسمّى بطحلب البط وبرك الطحالب تجري باتجاه البذور؛ إذ نرى بيوض البعوض والسمك الأسود والديدان التي تضع بيوضها بأعداد لا يمكن حصرها. وعلى امتداد الشواطئ لهذه السدود الصغيرة والقنوات، نجد هنا الكثير من الآبار

المستعصية حيث تفْقس بيوض طيور البحر وتجلب فراخها من دون أي إزعاج من الأعداء أو مخاوف الحصول على الطعام.

ويعيش عدد لا يحْصى من الطيور في قصب توكيرن؛ ويلتقي الكثير والكثير منْ هذا الحشد من الطيور هناك في كلّ عام. وبينما همْ يأتون إلى هنا ليعرفوا المساكن الرائعة فيه، فإنّ أول الذين يستقرون فيها هم البط الذين ما زالوا يعيشون هناك منذ آلاف السنين. لكنّهم لا يستغرقون وقتاً طويلاً ليمتلكوا البحيرة، لأنهم مضطرون للمشاركة فيها مع طيور البجع، وطيور الغطّاس، وطيور الغرّة، والبط الغواص، والكثير منْ طيور الماء هذه.

وبالتأكيد فإنّ بحيرة توكيرن هي الأكبر والأكثر تفضيلاً لدى الطيور في كل البلاد؛ وربما يعدّ الطيور أنفسهم محظوظين طالما أنهم يملكون مثل هذا التراجع. لكنْ منْ غير المؤكد معرفة ما هي المدة التي سيبقون فيها مسيطرين على القصب وضفاف الطين. وأسوة بالبشر فإنهم لا ينسون أنّ تلك البحيرة ستتمدد عبر جزء معتبر في الخير والتربة الخصبة؛ وفي كل فترة قصيرة لتجفيف البحيرة ستعود الطيور إليها. إنّ هذه الاقتراحات قد نفدت. وإنّ الآلاف منْ طيور الماء قد أجبروا على الانتقال منْ هذه المواقع.

في وقت كان فيه نيلز هولغيرسون قد سافر حول مواقع الإوز البرّي، كان يعيش هناك في توكيرن بط برّي يطلق عليه اسم جارو. وهو طير شاب، كان يعيش هناك في مواسم الصيف، والخريف، والشتاء، أما الآن، فإنه يعيش في موسم الربيع لأول مرة. وقد عاد منْ أفريقيا الشمالية، ووصل الآن مدينة توكيرن في أفضل فصولها، حيث ما زال الجليد على سطح البحيرة.

وفي أحد المساءات، وبينما هو والبطات الشابات يقضون وقتاً ممتعاً، يتسابقون إلى الخلف ثم نحو الأمام في البحيرة، جاءتهم إطلاقة منْ صياد، وعلى أثرها جرح جارو في صدره. وقد اعتقد أنه مات لا محالة؛ لكنّ ذلك الرامي لمْ يصوّب إليه في مقتل، واستمر بالطيران إلى أبعد ما يكون. ولمْ يفكر إنْ كان محلّقاً بالاتجاه الصحيح أمْ لا، لكنه صارع كيْ يطير إلى مسافة أبعد. وحين خذلته قوته، لمْ يستطع الطيران أبعد مما كان عليه الآن، في وقت لمْ يكنْ فيه في البحيرة، وقد طار إلى مسافة قصيرة داخل البلاد، حين غطس نحو الأسفل، منهكاً، قبل دخوله أحد الحقول الكبيرة التي توازي مدينة توكيرن.

وبعد لحظة، صادف أن امتدتْ إليه يد فلاح شاب، رأى جارو، فجاءه مسرعاً وانتشله. لكنْ

جارو، الذي لم يطرحْ أي سؤال، لأنه أراد الموت بهدوء، جمع شجاعته وقرص يد الفلاح بأصبعه، وهكذا استطاع إنقاذ حياته.

لم يستطعْ جارو تحرير نفسه. فعدوّه على كل حال، قد أنقذ حياته؛ ولاحظ الفلاح أنّ ذلك الطير ما زال حيّاً. وحمله برقّة وحذر إلى الكوخ، وعرضه على سيدة الدار– وهي امرأة شابة ذات وجه رقيق. أخذتْ جارو فوراً منْ عامل المزرعة، وضربتْ على ظهره، ومسحتْ الدم الذي كان يسيل أسفل ريش رقبته. تطلعت بوجهه بدقّة؛ وحين رأتْ ملامح وجهه الجميلة، ولونه الأخضر الداكن، ورأسه المشرق، وشريط رقبته الأبيض، ولونه الأحمر – البني، وجناحه الأزرق، فمن المحتمل أنها فكّرت في الإشفاق عليه خشية أنْ يموت. ثم وضعته حالاً في سلّة.

بقي جارو الطير يرفرف بجناحيه ويصارع الموت؛ لكنْ حين فهم أنّ الناس لا يفكرون في قتله، استقر في السلة تغمره مشاعر الارتياح. والآن، من الجليّ أنْ نلاحظ مدى الإنهاك الذي يعانيه نتيجة الآلام وفقدان الدم. حملت السيدة السلة منْ مكانها على الأرض إلى زاوية البيت، بجانب موقد النار تماماً؛ وقبل أنْ تضعه غطّ جارو في نوم سريع.

وبعد فترة وجيزة راح أحد ما يهزه برفق، فاستيقظ جارو على إثرها. فتح عينيه، ويبدو أنه يواجه تجربة تشبه الصدمة المرعبة لأنه في الغالب قد فقد مشاعره. ومن المؤكد أنه فقد وعيه! ذلك أنّ مخلوقاً ما كان واقفاً أمامه هو الأخطر بين البشر والطيور الضحية وليس هنالك أقل قسوة منه؛ ذلك هو قيصر نفسه! – الكلب ذو الشعر الطويل الذي راح يشمّه بغرابة.

كمْ كان خائفاً ويدْعو للإشفاق بعكْس ما كانه الصيف الماضي، حين كان بطيطة صغيرة أصفر اللون، وكان في كلّ وقت يسمع نداء تحْذير: «قيصر قادم! قيصر قادم!». حين رأى الكلْب المنقط جلده باللون الأسمر والأبيض، وأسنان مليئة باللعاب وقد جاء يخوض في الماء خلال القصب، اعتقد أنه الموت نفسه. تأمّل دائماً ألا يعيش تلك اللحظة حين يواجه قيصر وجهاً لوجه.

لكنْ، وهو في حزنه هذا، لا بد وأنْ يسْقط في أقرب ساحة حيث يعيش القيصر، وهو واقف أمامه تماماً وهو يهْدر: «منْ أنت؟ كيف دخلت الدار؟ ألمْ تعد إلى مكانك بين مياه ضفاف القصب؟».

كان منْ أكبر الصعوبات أنه استطاع أنْ يمتلك الشجاعة للحديث. واعترف: «لا تغضبْ

عليّ، يا قيصر، لأنني دخلت الدار! لمْ تكن غلطتي. لقد جرحت بطلقة بندقية. وسيدة المنزل نفسها هي التي وضعتني في هذه السلّة».

قال قيصر: «أوه! إذاً أصحاب البيت هم الذين وضعوك هنا، من المؤكد أنّ قصدهم هو علاجك؛ رغم أنّ دوري، كما أعتقد سيكون أكثر حساسية لآكلك، لأنك في حمايتهم. لكنْ، وفي كل الأحوال، فإنك آمن في الدار. وأنت آمن الآن ولا خوف عليك، ولا نستطيع الذهاب إلى توكيرن».

وبذلك، تمدّد قيصر بكامل طوله أمام لهب نار الخشب، لينام. وحالما فهم جارو أنّ هذا الخطر المزعج أصبح من الماضي، زحف الإرهاق الشديد في جسده، وغطّ في نوم عميق.

استيقظ جارو بعد وقت، ورأى أنّ ذلك الصحن ذا الألوان الخضر والماء يترقرق أمامه. ما زال عليلاً تماماً، ولكنْ رغم ذلك شعر بالجوع، وراح يأكل. حين رأته السيدة يأكل الطعام، خطتْ نحوه وداعبته، وبدتْ مسرورة أمامه. بعد ذلك، سقط جارو في النوم مرة أخرى. ولأيام عدة لمْ يقمْ بأيّ شيء باستثناء أنه يأكل وينام. وفي أحد الصباحات المشرقة شعر جارو بتحسن جيد، ما دفعه للنزول من السلة وراح يتجول على مدى مساحة طول الغرفة. لكنه لم يذهبْ بعيداً جدّاً ما دام مزاجه متعكّراً واستلقى هناك. ثم جاء قيصر مباشرة، الذي كان فاتحاً فكيّه الكبيرين وأمسكه. واعتقد جارو بالطبع، أنّ ذلك الكلب ينوي عضّه حتى الموت، لكنّ قيصر بدلاً منْ ذلك أعاده إلى السلة من دون أنْ يسبب له أدنى أذى. والسبب يعود إلى أنه كان واثقاً من الكلب تماماً. وهكذا أصبح قيصر وجارو صديقين، وفي كل يوم، ولعدة ساعات، كان جارو يستلقي وينام بين مخالب قيصر الأمامية.

كانت هناك عاطفة كبيرة يبديها جارو إزاء سيدته أكثر ممّا يبديها لقيصر. وقد أبدى لها هذه العاطفة من دون خوف على الأقل؛ إنه يمسح رأسه بيدها حين تجلب له الطعام. وحين تخرج من الكوخ يروح يتأوه بحسرة؛ وحين تعود يصرخ مرحّباً بها بلغته الخاصة.

كانا مهذبيْن ولطيفيْن فضلاً عن حبه لهما. وتمنى كما لو أنه كان في صحة جيدة، كيْ يستطيع الطيران إلى توكيرن ليخبر البط البري رغم أنّ عداءهما ليس خطيراً، وليس ثمة حاجة للخوف منهما.

وقد لاحظ أنّ البشر كما قيصر، هم مخلوقات نظراتها هادئة، توحي بالخير إلى منْ تنظر إليه. أمّا كلاوينا قطة الدار، فهي الوحيدة في الكوخ التي تكون نظراتها خاطفة لا يحب أن يبادلها

النظرات. ورغم أنها لمْ تسببْ له أيّ أذى يذكر، لكنه لمْ يستطعْ أنْ يضع ثقته فيها. إضافة إلى أنها تتشاجر معه باستمرار، لأنه يحب المخلوقات الإنسانية. قالت كلاوينا: «إنك تعتقد أنهم يحمونك لأنهم مولعون بك. انتظرْ فقط حتى تكون بديناً بدرجة كافية! وبعد ذلك سيلوون رقبتك. أنا أعرفهم، أنا أعرفهم».

وجارو مثل بقية الطيور رقيق، وذو قلب حنون؛ وكان، حزيناً بطريقة لا توصف حين سمع ذلك. ولمْ يستطعْ أنْ يتخيل أنّ تلك السيدة ترغب في لوي رقبته، ولا يستطيع أن يتخيل شيئاً منْ هذا القبيل لابنها، أما الصبي الصغير فقد بقي جالساً عدة ساعات بجانب السلة يبربر ويهذر. بدأ يفكر أنّ لديهم الحب ذاته الذي يبادلهم إيّاه.

وفي يوم ما، بينما جارو وقيصر كانا مستلقيين في مكانهما العادي المشترك أمام موقد النار، جلست كلاوينا أمام الموقد وشرعت تثير البط البري.

قالت: «إنني أتعجب، يا جارو، ماذا تفعل البطات البرية، في السنة القادمة، حين يجفّ توكيرن ويتحول إلى حبوب قمح؟». صاح جارو وقفز نحو الأعلى: «ما الذي تقولينه يا كلاوينا؟» – وراح يشعر بالخوف بكل معنى الكلمة. بربرت كلاوينا: «إنني دائماً أنسى، يا جارو، إنك لا تفهم كلام البشر مثلي أنا وقيصر، وإلا فإنك بالتأكيد ستسمع الرجال الذين كانوا هناك يوم أمس يقولون إنّ كل الماء سيجف في توكارين وفي السنة القادمة سيكون عمق البحيرة كجفاف أرضية البيت، والآن إنني مندهشة إلى أين ستذهبون أيّها البط البرّي». وبينما يصغي جارو إلى هذا الكلام اشتعل غضباً وراح يهس كما الأفعى. وصرخ في وجه القطة كلاوينا: «إنك تتصرفين كحقيرة وبلهاء تماماً! إنك تريدين فقط أن تحرضيني ضدّ البشر. لا أعتقد أنهم يريدون فعل أيّ شيء من هذا النوع. وينبغي أنْ يعرفوا أنّ توكيرن هو ثروة البط البري، لماذا يجب أنْ يشرّدوا كثيراً من الطيور ويحولوا سعادتهم إلى تعاسة؟ إنك بالتأكيد تقولين كل ذلك كي تخيفيني. أتمنى لك أن يمزقك غوركو النسر، وأتمنى على سيدتي أيضاً أن تحلق شاربيك!».

لكنْ جارو لم يستطعْ إخْراس القطة كلاوينا بمثل هذا الانفجار، قالت: «وهكذا إنك تعتقد أنني أكذب، اسأل القيصر، إذاً؟ هو الآخر، كان في الدار الليلة الماضية! إنّ قيصر لا يكذب». قال جارو: «يا قيصر، إنك تعرف لغة الإنسان أكثر بكثير منْ كلاوينا. قل إنها لمْ تسْمع الكلام الصحيح! فكر كيف يبدو الأمر إن جفف الناس ماء توكيرن، لتغيير عمق البحيرة إلى حقول! وبعد ذلك لا يكون أكثر منْ طحالب أو غذاء بط أو لتربية البط البري

وليس هناك أسماك سوداء أو ديدان أو بيوض البعوض أو فراخ البط. وحينذاك ستختفي ضفاف القصب، في حين إنّ فراخ البط تخفي نفسها حتى تتمكن من الطيران. وسيرْغم جميع البط على الانتقال بعيداً منْ هنا، وسيبحث عنْ مأوى آخر. ولكنْ أين سيجدون البديل مثل توكيرن؟». قال قيصر: «إنّ كلاوينا لم تسمع الكلام الصحيح!».

إنه لمن المدهش حقاً مراقبة قيصر خلال هذه التحولات. فقد بقي مستيقظاً لفترة طويلة قبل أنْ ينام. ولكن الآن، حين التفت جارو نحوه، كان يلهث، ويضع أنفه الطويل على مخالبه الأمامية، ويبدو كما لو أنه نائم ويغمز بإحدى جفنيه.

راحت القطة تنظر إلى قيصر بابتسامة ذات معنى. وقالتْ لجارو: «أنا أعتقد أنّ قيصر لا يهتم بإجابتك، إنْ كان الأمر يتعلّق به أو ببقية الكلاب؛ فإنهم لنْ يعترفوا أنّ البشر يقترفون أخطاء. ولكنْ يمكن الاعتماد عليّ، على أي حال. وسأخبرك لماذا يرغبون بتجفيف البحيرة في هذا الوقت بالضبط. وإلى هذا الحد فإنك والبط البري ما زلتم تحكمون السيطرة على توكيرن وإنهم لا يرغبون بتجفيفه. وبعد ذلك حصلوا على عمل خير دون علمك؛ ولكن غطاسي الماء وطيور الغرة المائية وطيور أخرى هم طيور لا فائدة من لحومها قد غزوا تقريباً ضفاف القصب جميعاً، ويعتقد الناس أنه لا حاجة أنْ ندع وجود البحيرة في مجال اهتماماتهم».

لا يريد جارو إزعاج نفسه للردّ على كلاوينا، لكنه رفع رأسه وصرخ في أذن قيصر: «يا قيصر! إنك تعرف أنّ هناك في توكيرن الكثير من البط الذي ملأ الجو كما الغيوم تملأ السماء. قل إنّ الكلام حول أن البشر ينوون جعلنا دون مأوى ليس حقيقة!».

وانفجر قيصر وهو يقفز ضدّ كلاوينا التي تريد إنقاذ نفسها عن طريق قفزة على الرفّ: «سأعلّمك كيف تحافظين على الهدوء حين أريد أنْ أنام». وقال الكلب قيصر: «بالطبع، أنا أعرف أنّ هناك بعض الحديث عن تجفيف البحيرة هذه السنة. لكنْ كان هناك كلام كثير قد تكرر من دون أن ينتج عنه شيء عملي. وإنّ أعمال التجفيف هي مسألة لا تأخذ أيّ رصيد. لكنْ كيف تسير الأمور بهذه اللعبة التي لا تعتمد على أي رصيد؟. أما كيف تسير الأمور مع هذه اللعبة إن كان توكيرن قد وضع تحت خطة الدمار. وإنك حمار إذا فرحت لشيء مثل هذا. بماذا نستمتع أنا وأنت حين لا تكون هناك طيور في توكيرن؟».

شرْك البطّ

الأحد، السابع عشر منْ نيسان/ أبريل.

جارو الآن في وضع صحي جيد جداً وبإمكانه الطيران حول البيت كلّه. داعبته سيدة البيت، وراح طفلها الصغير يجري في الباحة، ثم التقطتْ له نصْل عشب الفصل الأول من الربيع. حين لاطفته سيدة البيت، ظنّ جارو أنه قوي جداً الآن بحيث يستطيع الطيران إلى توكيرن في أي وقت، ولمْ يهتم لانفصاله عنْ فصيلة البشر. وليس لديه اعتراض على البقاء معهم طيلة حياته.

لكن في أحد الصباحات وضعت السيدة صديرية نسائية وأنشوطة منعته من استخدام جناحيْه للطيران؛ ثم أخذته إلى المزارع الذي وجده في الباحة. التقطه المزارع وحمله بين ذراعيه وهبط به إلى توكيرن.

ويبدو أنّ الجليد بدأ بالذوبان خلال مرض جارو. وما زالتْ أوراق الخريف الجافة والقديمة تتساقط على مدى طول الشواطئ والجزر، لكنّ جميع الأعشاب المائية الضارة أخذتْ تمدّ جذورها عميقاً في الأرض؛ ووصلت السويقات الخضراء حالياً إلى السطح. والآن، فإنّ جميع طيور الإرسال هم في البيت تقريباً.

كانت طيور الماء ذات المناقير المعقوفة تتلصّص على قصب الماء؛ وكانت هناك طيور غطّاس الماء المذهبة بياقات ريش مذهبة جديدة حول رقابها؛ فضلاً عن طيور الشنقب التي كانت تجمع القشّ لأعشاشها.

صعد المزارع إلى سطح القارب ووضع جارو في عمقه، وشرع يجذف، أمّا جارو الذي عوّد نفسه على أنْ يتوقع بشراً طيبين فقط، قال لقيصر: «من الذي كان في الحفلة أيضاً؟»، وقد شعر بالامتنان الشديد للمزارع لأخذه خارج البحيرة. لكنّ الرجل ليس بحاجة للاحتفاظ به مكبلاً لأنه كان لا يفكر أصلاً بالطيران بعيداً. لم يرد قيصر على هذا. كان صامتاً طيلة ذلك الصباح.

والشيء الوحيد الذي صعق جارو هو تعرّضه لعضّة غريبة ما جعل المزارع يحمل بندقيته دائماً. لمْ يكنْ يصدّق أيّاً من الناس الطيبين في الكوخ، فهو يريد إطلاق النار على الطيور فضلاً عنْ ذلك، إنّ قيصر أخبره أنّ أولئك الناس لا يطاردون الطيور في هذا الوقت من السنة. وقد قال: «إنه وقت محرّم، رغم أنّ ذلك لا يعنيني، بالطبع».

وراح المزارع يجذف عبْر إحدى جزر القصب الطينية المغلقة القليلة. وهناك ترجّل من الزورق، وجمع كومة من القصب، ووضعها إلى جانبه. كان جارو حرّاً في التجوال حول

اليابسة فوق جناحيْه صديرية وحبل رابط للزورق وسلسلة طويلة.

وفجأة رأى جارو بعض البطّات مع ذكورها وقد تشكلت مجموعة منها تتسابق إلى الأمام وإلى الخلف فوق البحيرة. وقد اجتازوا مسافة طويلة، لكن جارو ناداهم بصيحات عالية. واستجابوا له، اقترب عدد كبير من الناس. وقبل أنْ يكونوا هناك، بدأ جارو بإخبارهم عن مغامرته الرائعة، ورقّة الناس الطيبين معه. وتماماً بعد ذلك، بدأت فرقعة رصاصتين إلى جانبه، غطستْ ثلاث بطّات في القصب يبدو أنّهنّ فارقن الحياة. وركض قيصر باتجاههنّ واستطاع الإمساك بهنّ.

ومنْ ثم فهم جارو أنّ الإنسان قد أنقذه فقط ليستخدمه طائراً صنمياً لإخافة الطيور الأخرى. وقد نجح فعلاً في ذلك. وقتلت البطات الثلاث بسببه. لقد مات من الخجل. تخيّل أنّ قيصر صديقه بدأ ينظر إليه بازدراء. حين عادا إلى الكوخ، لم يتجرأ أن يكذب، ونام إلى جانب الكلب.

وفي صباح اليوم التالي خرج جارو إلى المياه الضحلة. في هذا الوقت أيضاً، لمح بعض البطّات. وحين لاحظ أنّهنّ محلّقات باتجاهه راح يناديهن: «ابتعدن! ابتعدن! واحذرن! وطرْن باتجاه آخر. هناك مصيدة مخفيّة إلى جانب كومة قصب. أنا فقط مصيدة!». وقد نجح فعلاً في الحيلولة دون مقدْمهنّ منْ خلال مسافات إطلاق النار.

كان من الصعوبة بمكان على جارو أنْ يمتلك الوقت وأنْ يتذوق نصْل العشب. كان مشغولاً جدّاً بالحفاظ على المراقبة. وقد أطلق تحذيره حالما اقترب طير أيضاً. وقد حذر طيور غطّاسات الماء رغم أنه يمقتهنّ لأنهنّ يزاحمنّ طيور البطّ في أفضل أمكنة اختبائهنّ. لكنه لا يرغب أنْ يواجه أيّ طير سوء حظّ على مسؤوليته. وشكراً ليقظة جارو، وعلى المزارع الآن الذهاب إلى البيت من دون أنْ يطْلق طلقة واحدة.

مع كل ذلك، نظر قيصر بعدم ارتياح أكثر من اليوم السابق؛ حين حلّ المساء أخذ جارو من فمه، حاملاً إيّاه إلى موقد النار، ووضعه لينام بين مخلبيه الأماميين.

ورغم ذلك، لمْ يعدْ جارو مقتنعاً بوجوده في الكوخ، وكان غير راضٍ تماماً. كان يعاني منْ فكرة أنّ الناس لا يحبونه أبداً. حين جاءت السيدة أو الصبي الصغير لمداعبته، ثبّت منقاره تحت جناحه وتظاهر بالنوم.

استْمر جارو بخدمات المراقبة المؤلمة عدّة أيّام؛ وقد عرف حالياً محيط البحيرة كلّها، وبعد

ذلك، حدث في أحد الصباحات، بينما هو كان يحذّر كما هي عادته: «خذوا حذركم أيتها الطيور! لا تقتربوا منّي! أنا خيال مآتة فقط»[1] أن جاء عشّ غطّاس الماء طاف باتجاه المياه الضحلة حيث كان مربوطاً. ليس هناك شيء استثنائي في ذلك أبداً. إنّه عشّ من السنة الماضية؛ منذ أنْ بني عش طير الغطّاس بطريقة ما تمكنهم من الانتقال بواسطة الماء كما الزوارق، ويحدث غالباً ذلك أنهم ينحرفون نحو البحيرة. مع ذلك، وقف جارو هناك محدقاً باتجاه العش، ومتجهاً باستقامة نحو الجزيرة التي ظهرت كما لو أنّ شخصاً ما كان يقود اتجاهه عبْر الماء.

وبينما كان العش يقترب، شاهد جارو إنساناً ضئيلاً – أصْغر مخلوق كان يمكن رؤيته – جالساً فوق العش ويجذف إلى الأمام بمجدافين خشبيين. ناداه هذا المخلوق الضئيل: «اذهب قرب الماء قدر ما تستطيع، يا جارو، وكنْ مستعداً للطيران. وسترى نفسك فجأة طليقاً».

وبعد ثوانٍ قليلة كان عشّ الطائر الغطّاس قريباً من اليابسة، وحتى الآن، لم يغادره الجذاف الصغير. لكنه جلس وحشر نفسه بين القش والأغصان. ووجد جارو نفسه محطماً في الغالب. كان في الواقع كما لو أنه مشلول نتيجة الخوف من المخاطرة التي ربما ستكْتشف.

بعد ذلك، جاء سرب من الإوز البرّي محلّقاً. وعلى أثره استيقظ جارو ليمارس أعماله، وحذّرهم بصرخات عالية؛ لكنْ رغم ذلك، راح الإوز يحلّق إلى الخلف ثم إلى الأمام فوق المياه الضحلة مرات عديدة. وحملوا أنفسهم عالياً جدّاً وراء مرمى خط النار؛ وما زال المزارع يغري نفسه بتوجيه النار عليهم. كانت هذه الطلقات بالكاد تصيب حينما راح المخلوق الصغير يجري نحو الأرض اليابسة، وسحب سكيناً صغيرة من غمدها، وبضربات سريعة مزّقت صديرية جارو: «والآن، تستطيع أنْ تحلّق بعيداً يا جارو، قبل أن يتمكن الرجل من تعبئة السلاح مرة ثانية!». صرخ وهو يجري نحو عش طائر غطاس الماء، وابتعد عن الشاطئ.

ركّزْت تحديقة الصياد على الإوز، لمْ يلاحظ أنّ جارو قد أصبح طليقاً؛ لكن قيصر عرف ما الذي حدث؛ وفي اللحظة التي رفع فيها جناحيْه، انطلق إلى الأمام وأمسكه منْ رقبته.

صرخ جارو بألم؛ أما الصبي الذي حرّره قال لقيصر بكل هدوء: «إنْ كنت شريفاً كما تبدو لي، فمن المؤكد أنك لا تريد أنْ تجْبر طيراً طيّباً على الجلوس هنا وتلْفت نظر الآخرين إلى

المشكلة التي هو فيها».

حين سمع قيصر هذا الكلام كشّر بابتسامة عريضة منْ أعلى شفته، وأسقط جارو في اللحظة الثانية، وقال «طرْ يا جارو! إنك بالتأكيد طيب جداً ولا يجب أن تكون خيال مآتة. وليس لهذا الغرض أردت الاحتفاظ بك هنا؛ ولكنني أشعر بالوحدة في الكوخ بدونك».

انْخفاض البحيرة

الأربعاء، العشرون منْ نيسان/ أبريل.

سيبقى الكوخ موحشاً حقاً بدون جارو. وشعر الكلب والقطة أنّ الوقت يسير ثقيل جداً، حين يفتقدان المشاكسة معه؛ كما تفتقد ربة المنزل البطبطة[2] للترحيب به في كل وقت يدخل فيه البيت. ولكن الذي اشتاق كثيراً لجارو كان هو الصبي الصغير، بير أولا Per Ola. الذي لا يتجاوز الثلاث سنوات منْ عمره، وهو الطفل الوحيد؛ الذي كان لا يعرف اللعب في كل حياته إلا مع جارو. وحين سمع أنّ جارو عاد إلى توكيرن والبط البري، لم يستطع التصالح مع هذا الجو الجديد. لكنه فكر بسرعة كيف يستطيع إعادته مرة ثانية.

وتحدث بير أولا بحديث مهم مع جارو، بينما هو مستلق في سلّته، وكان متأكداً أنّ البطة قد فهمته. والتمس من أمه أنْ تأخذه إلى البحيرة فربما يجد هناك جارو، ويقنعه بالالتحاق بهما. لكن أمه لم تصغِ إليه؛ وتخلى الصغير عن خطته تلك.

وبعد يوم من اختفاء جارو، كان بير أولا يجري في الباحة. ولعب وحده كالمعتاد، بينما استلقى قيصر وهو منحنٍ؛ وحين سمحت الأم للصبي بالخروج، قالتْ: «اعتن بالصبي الصغير يا قيصر!».

إنْ كان الجميع في وضع طبيعي الآن، فإنّ قيصر سيكون مطيعاً للأوامر، وسيكون الصبي محروساً حراسة جيدة بحيث لا يستطيع الجري وبهذا يكون أقل خطراً. لكنّ قيصر لم يكنْ هو قيصر هذه الأيام. وعرف أنّ الفلاحين الذين يسكنون حول توكيرن قد عقدوا المؤتمر المعتاد لمناقشة موضوع انخفاض البحيرة؛ وبهذا، ستكون المشكلة قد انتهتْ. وعلى البط المغادرة وعلى قيصر ألا يكرر هذا أبداً بعد اليوم ولن يقوم بمطارداته المجيدة. وكان منشغلاً جداً بفكرة سوء الحظ هذه، التي لم يتذكر فيها مراقبة بير أولا.

أما الصبي الصغير فكان من النادر جداً البقاء وحده دقيقة واحدة في الباحة، وقبل أنْ يدرك

ذلك جاءت اللحظة المناسبة للذهاب إلى توكيرن والحديث مع جارو. فتح البوابة، وتجوّل في طريقه إلى البحيرة في منعطف ضيق يؤدي إلى الضفاف. وطالما كان بالإمكان مشاهدته من البيت، راح يمشي ببطء؛ لكنْ بعد أن أسرع خطواته، كان ينتابه خوف شديد من تلك الأم، أو منْ قبل أيّ شخص آخر، يناديه ويعلمه أنه ليس بإمكانه الاستمرار بالذهاب أكثر من هذا. ولمْ يرغب القيام بأيّ شيء طفولي، فقط يريد إقناع جارو بالعودة إلى البيت؛ لقد شعر أنّ الناس في البيت لا يوفون بالعهد.

وحين وصل بير أولا إلى الشاطئ، نادى على جارو مرات عديدة. وفي هذه الأثناء وقف لفترة طويلة ينتظر، ولكن جارو لمْ يظهرْ، وقد شاهد مجموعة من الطيور تشبه البط البري، لكنها طارت من جانبه من دون أنْ تلحظه، وقد فهم أن جارو ليس بينهم.

وحين لم يعدْ جارو إلى المنزل، فكر الصبي أنه من السهولة بمكان إيجاده حين يخرج إلى البحيرة. وكانت هناك مراكب صغيرة جيدة مستلقية على جسد الشاطئ، لكنْ ليس هناك مدّ للأمواج. وكان أحد القوارب لا رابط له ويتحرك بانسيابية. وثمة صندل راشح غير صالح للاستخدام بحيث لا أحد يفكر باستخدامه. لكنْ بير أولا تسلّق عليه من دون أن يعير أي اهتمام أنّ عمقه كله كان مليئاً بالماء. لم يملك القوة الكافية ليستخدم المجاذيف، ولكنْ، بدلاً من ذلك، جلس وراح يهز الزروق. وبالتأكيد ليس هناك شخص ناضج قد نجح في تحريك زورق خارج توكيرن بتلك الطريقة؛ ولكن حين كان المدّ عالياً ومنْ سوء حظ الكلب بير، كان الأطفال يملكون القدرة العجيبة للخروج من البحر. وكان بير أولا قد انجرف مع التيار حول توكيرن فوراً، منادياً جارو.

وبينما كان الزورق القديم مندفعاً بهذه الطريقة، خارج البحر، انفتحت الشقوق بطريقة أوسع ثم أوسع، وفي الواقع كان الماء يشكل تياراً ضده. ولم يعرْ أولا أدنى اهتمام لذلك. جلس على دكّة صغيرة في الأمام وراح ينادي كل طير يراه، وقد اندهش لماذا لم يظهر جارو.

وأخيراً، لمح جارو بير أولا. وسمع أنّ شخصاً ما كان يناديه بالاسم الذي كان يحمله بين الناس، وفهم أن الصبي قد خرج إلى توكيرن للبحث عنه. بقي جارو صامتاً على نحو تعيس للبحث عن إنسان يحبه حقاً. وصوب نيرانه نحو بير أولا كالسهم، وجلس إلى جانبه وراح يعانقه. كانا سعيدين جداً ليرى أحدهما الآخر مرة ثانية. لكن جارو شاهد وضع القارب فجأة. كان مليئاً بالماء إلى منتصفه، كان في الغالب على وشك أنْ يغرق. حاول جارو إخبار بير أولا، أنه لن يستطيع الطيران ولا السباحة، وعليه أن يحاول الوصول إلى الأرض اليابسة؛

لكن لم يستطع فهمه. ومن ثم فإنّ جارو لم ينتظر لحظة واحدة، إنما سارع للحصول على وسيلة إنقاذ.

وفي فترة قصيرة عاد، حاملاً في حقيبته مخلوقاً ضئيلاً جدّاً كان أصغر من بير أولا نفسه. لم يعدْ بإمكانه الكلام أو الحركة، وربما سيعتقد الصبي أنه كان دمية. وبسرعة، أمر المخلوق الصغير جدّاً بير أولا أن يلتقط سارية رفيعة وطويلة موضوعة في أعماق الزورق ويحاول التجذيف باتجاه إحدى جزر القصب. أطاع بير أولا الأمر، وكان هو والمخلوق الصغير قادا الزورق معاً. وبعدد من الضربات وجدا نفسيهما في جزيرة صغيرة محاطة بالقصب، وقد أخبر بير أولا أن عليه أن يرسو على الساحل. وتماماً في هذه اللحظة وطأت أقدام بير أولا الأرض، وكان الزورق مليئاً بالماء ما أدى به إلى أن يغرق نحو الأعماق.

كان بير أولا متأكداً من أنّ أمه وأباه سيكونان غاضبين جدّاً عليه. وهو سيبدأ بالبكاء إذا لمْ يجد شيئاً آخر يفكر فيه: وفي هذه الأثناء حطّ سرب كبير من الطيور الرمادية فجأة في الجزيرة وقاده قزم إلى مجموعته وأخبروه بأسمائهم، وماذا قالوا. وكان منْ سخرية القدر أن بير أولا نسي كلّ شيء.

في هذه الأثناء اكتشف الناس في الحقل أن الصبي قد فُقد، وكانوا يبحثون عنه خارج البيت، ونظروا في البئر، وفتشوا في السرداب. ومن ثم خرجوا إلى الطريق السريع وأرصفة المنعطفات، وتجولوا في الحقل المجاورة ليكتشفوا إن كان قد ضل طريقه هنالك، وزادوا من بحثهم أيضاً قرب توكيرن. ولكنْ رغم ذلك كلّه لم يجدوا أثراً له.

وفهم الكلب قيصر جيداً أنّ المزارعين كانوا أيضاً يبحثون عنْ بير أولا، ولمْ يخلّف أثراً يشير إلى اتجاهه؛ وبدلاً من ذاك، بقي مستلقياً، كما لو أنّ الأمر لا يعنيه مطلقاً.

وفي آخر النهار، ظهرت آثار أقدام قرب مرسى زوارق. ومن ثم اكتشفوا أنّهم لم يجدوا أثراً للزورق المخروم على الساحل. في هذه اللحظة أدركوا ما الذي حدث تماماً.

أخذ الفلاح ومساعدوه القوارب في الحال، وشرعوا في البحث عن الصبي. وجذفوا بها إلى توكيرن حتى آخر المساء، من دون أن يروا ظلاً له. لم يصدقوا أن الزورق القديم قد غرق، وأن ذلك المخلوق الصغير استقر ميتاً في عمق البحيرة.

فتشتْ أم بير أولا حول شريط الساحل، طيلة المساء. والكل كان مقتنعاً أنّ الصبي قد غرق، لكنها لا تريد إقناع نفسها بذلك. وفتشتْ طيلة هذه الفترة. بحثت في القصب، والنبات

البردي؛ ثم واصلت السير، في وحل الشاطئ، ولم يخالجْها التفكير أبداً كيف أنّ قدميها قد غاصتا عميقاً، وكمْ كانت تشعر برطوبة جسدها. وكانت حزينة إلى حدّ اليأس، وراح قلبها يؤلمها في صدرها. ولمْ يخالجها البكاء، لكنْ عصرت يديها ونادتْ طفلها بنغمة حادة وعالية.

سمعت منْ حولها صرخات البجع والبطّ والكروان. واعتقدت أنهم يتبعونها، بصرخات أنين هم أيضاً، «بالتأكيد، لا بد أن لديهم مشكلة، منذ أن سمعت أنينهم». ومن ثم تذكرت: هؤلاء الطيور أيضاً لديهم ما يشكون منه. وبالتأكيد ليس لديهم ما يقلقهم.

وإنّ من الغريب أنهم لم يهدؤوا بعد غروب الشمس. وقد سمعتْ عن كلّ هذه الحشود من الطيور التي تعيش عبر توكيرن أنهم يطلقون الصرخة بعد الصرخة. وتبعها قسم منهم أينما ذهبت؛ وتبعها آخرون برفيف أجنحتهم الخفيفة. وكان الهواء مليئاً كله بالأنين والعويل.

لكن الكرب الذي عانته بنفسها فتح لها قلبها. وشعرت أنها ليستْ بعيدة عن جميع المخلوقات الحية الأخرى كما يفكر الناس عادة. وفهمتْ أكثر مما كانت في السابق، كمْ كانت الطيور محظوظة. ولهم حظوظهم الثابتة في السكن والأطفال، وكما حالها هي. وليس هناك بالتأكيد مثل هذه الفوارق العظيمة بينهم وبينها حتى الآن كما تعتقد.

ومنْ ثم حدث لها أنْ تفكر أنه من الأفضل لتلك الآلاف من طيور البجع الإوز والبط الغواص الاستقرار هنا بدلاً من فقدان بيوتهم هنا قريباً من توكيرن. قالت: «لكن أين سيربون فراخهم الآن؟».

توقفتْ وتأمّلتْ: يبدو أنه من الرائع جدّاً ومن الإنجاز المقبول أيضاً أنْ يغيروا البحيرة إلى حقول ومروج، والبحث عنْ بحيرة أخرى أفضل منْ توكيرن؛ بحيرة، لا تكون مأوى لآلاف المخلوقات.

وتذكّرتْ كيف سيكون الافتراض في اليوم التالي لخفض البحيرة المفروض أنْ يقرر، وتساءلت إنْ كان ابنها الصغير قد فقد – في هذا اليوم تماماً.

هل هذه مشيئة الله أنْ يأتي ذلك الحزن ليفتح قلبها – في هذا اليوم بالضبط– قبل فوات الأوان لتجنب الفعل القاسي؟

وأسرعتْ في مشيها متجهة نحو المنزل، وشرعت تتكلم مع زوجها في هذا الموضوع، تحدثتْ

عن البحيرة، والطيور، وقالتْ إنها تعتقد أنها إرادة الله. وسرعان ما وجدت أنّ زوجها يمتلك الرأي ذاته.

إنهما يمتلكان مكاناً واسعاً في الوقت الحاضر، ولكنْ هل كان مشروع تجفيف البحيرة وضع موضع التنفيذ؟ إنّ مثل هذا الجزء الرائع لعمق البحيرة الذي سيتقاسمانه سيضاعف ثروتهما جداً. لهذا السبب كانا متلهفيْن في تعهّد العمل أكثر منْ أي شاطئ. وكان الآخرون قلقين من النفقات وعدم الرغبة في التجفيف الذي لنْ يبرهن عنْ أي نجاح في هذا الوقت أكثر من الماضي. وعلم والد بير أولا أنّ ثمة شعوراً يخالجه أنه هو الذي لديه التأثير عليهم في أنْ يتعهدوا بالعمل. وقد عبّر عن كل فصاحته، لذلك هو ربما يغادر إلى حقل ابنه الذي هو أوسع مما تركه له والده.

وقف متأملاً أنّ بحيرة توكيرن قد تختطف ابنه منه قبل يوم من أجل سحب العقد ورميه في سلة المهملات. ولمْ تنبسْ زوجته ببنت شفة، قبل أنْ يجيب: «ربما لا يريدنا الإله أن نتدخل في إرادته. وسأتحدث مع الآخرين عن هذا الموضوع غداً، وأعتقد أننا سنقرر أنْ نبقي كلّ شيء على ما هو».

وبينما راح الفلاحون يتحدثون عن ذلك، كان قيصر ممدداً أمام موقد النار. رفع رأسه وأصغى بانتباه شديد. حين فكر أنه متأكد من النتيجة، اتجه نحو سيدة الحظيرة، وسحب تنورتها وقادها إلى الباب. قالتْ محاولة إبعاده عنها: «ولكنْ يا قيصر! هل تعرف أين بير أولا؟» ونبح قيصر بمرح ورمى نفسه أمام الباب. فتحت الباب، لكنْ قيصر اندفع نحو بحيرة توكيرن وراح يلهو بمائها. لم تكن السيدة واثقة أن قيصر يعرف مكان بير أولا، لذلك اندفعت وراءه. وقبل أنْ يصلا البحيرة سمعا صراخ طفل فيها.

كان بير أولا يعيش أجمل نهار في الحياة، بصحبة ثمبيتوت والطيور؛ ولكنه بدأ الآن بالبكاء لأنه كان جائعاً وخائفاً من الظلام. وكان فرحاً حين جاءه الأب والأم وثالثهما قيصر.

- الفزّاعة. المترجم.

- البطبطة هي صوت البط. المترجم.

الفصل العشرون
سيدة – أولفوسا

النبوءة

الجمعة، الثاني والعشرون منْ نيسان/ أبريل.

في إحدى الليالي، حين كان الصبي نائماً في إحدى الجزر، في توكيرن، استيقظ على صوت ضربات المجاذيف. كان صعباً عليه أنْ يفتح عينيه حين سلط عليهما ضوء باهر جعلهما ترمشان.

في البداية لمْ يدْرك ما الذي أبْهره؛ لكنه رأى فجأة أنّ زورقاً فيه فانوس متوهّج ومعلّق على مسمار كبير كان قادماً من البحيرة. حيث يقع قرب حافة القصب من الخلف. كان الضوء الأحمر المنبعث من المصباح يعكس بوضوح ليلة بحيرة مظلمة؛ وكان من المفروض أنّ هذه الإنارة تغري الأسماك، حيث يمكن أنْ نلاحظ في الماء كتلة من البقع المظلمة تتحرك بانتظام، وتغير أماكنها.

وكان هناك في الزورق رجلان عجوزان، اتخذ أحدهما مكان التجذيف، والآخر جلس على دكّة القيادة وأمسك في يده حربة صغيرة؛ يدها خشنة. كان من الواضح أن الرجل الذي يجذف صياد غير ماهر. كان ضئيل الجسم، ونحيلاً، ويرتدي سترة خفيفة، رثة. ويبدو من الواضح أيضاً أنه لا يعير اهتماماً للطقس وبرودته. أما الثاني فيبدو بصحة جيدة، وأنيق الملبس، وشبيهاً بفلاح راض عن نفسه.

«قف الآن!». قال الفلاح، حين كانا أمام الجزيرة حيث كان الصبي مسْتلقياً. في هذا الوقت أغرق الرمح في الماء. وحين أخرجه كان ثمة سمكة الأنكليس طويلة وجميلة، معلقة برأس الرمح. قال بينما هو يريح سمكة الأنكليس من رأس الرمح: «انظر إلى ذلك! لمْ يكنْ صيداً رديئاً، آييه؟ والآن لدينا الكثير من هذا النوع من السمك، وأعتقد أنه علينا أنْ نعود».

لمْ يرفعْ رفيقه المجاذيف، لكنه جلس ينظر حوله. قال: «إنّ الجو في الخارج هنا في هذه البحيرة وفي هذه الليلة رائع». هكذا كانت هذه الليلة. أما الماء فكان راكداً تماماً، لذا فإنّ سطحه لا يثير القلق. ثم استقر مساراً كما الذهب. راح يلْمع على ضوء النار. وكانت السماء

صاحية تماماً ومرصّعة بكثافة بالنجوم. باستثناء الساحل الذي تخفيه جزر القصب منْ جهة الغرب، حيث تلوح في الأفق مدينة جبل أومبيري عالية، يسودها الظلام. يقْطعها طريق كبير ذو ثلاث زوايا قطع تشبه القبة.

التفت الفلاح ليواجه ضوءاً انعكس على عينيه، ثم نظر حوله: «نعم، إنه جو رائع هنا، في أوسترغيلن». وأردف يقول: «لمْ يكنْ جمالها هذا، هو الأفضل في المدينة». فردّ عليه الرجل الذي يجذف: «فما هو الأفضل في المدينة، إذاً؟». قال: «ذلك هو، ما يميّزها، إنها محافظة تحظى بالاحترام والتفخيم، وربما هذه حقيقة مطلقة. ومنْ ثم، إنّ ما يعرفه المرء عن هذه المدينة سيستمر دائماً يراها هكذا»، قال الذي يجذف: «كيف يعرف المرء ما تقوله بهذا الشأن؟».

استقام الفلاح حيث كان يقف واسْتعدّ وهو يمسك رمحه: «هنالك أسطورة قديمة يتداولها ابن عنْ أب في أسرتي؛ يفهم الإنسان منها ماذا يحدث في أوسترغيلن». قال الرجل الذي يجذف: «إذاً، بإمكانك أنْ تحكيها لي». قال: «لا نحكيها لأيّ إنسان أو حتى للجميع، ولا أرغب أيضاً أنْ تكون سرّاً عن رفيق قديم».

«(هناك في أولفوسا) التابعة لمدينة أوسترغوتلاند»، ثم استطرد يقول: «لكنْ بالإمكان أنْ يحكيها الإنسان بنغمته الخاصة حين يتحدث عن شيء ما سمعه عن الآخرين، وقد حفظها عن ظهر قلب. قبل، مئات، مئات السنين، هنالك سيدة لديها موهبة كشْف المستقبل، وتخبر الناس ماذا يحدث لهم – تماماً بالضبط وبالدقة كما لو أنها تحدث تماماً لهم الآن. وبهذا ذاع صيتها؛ وكان من السهولة بمكان أن نفهم لماذا يأتيها الناس من أبعد مكان إلى أقربه ليكتشفوا ما قد يواجهون من خلالها ما هو سيئ أو حسن».

«ففي يوم ما، حين كانت السيدة أولفوسا جالسة في الصالة وهي تغزل، كما هي العادة في الأيام القديمة، جاء فلاح فقير إلى تلك الغرفة وجلس على الدكة قرب الباب».

«وبعد فترة وجيزة قال الفلاح: إنني أتساءل ما الذي تفكرين فيه وأنت جالسة، يا سيدتي العزيزة».

«أجابت السيدة: إنني جالسة هنا وأفكّر بأشياء مقدسة وحاسمة. قال الفلاح: ربما منْ غير المناسب أن أسألك عن شيء ما يثقل قلبي».

«ربما لا شيء آخر يثقل قلبك أكثر من جني الحصاد في حقلك. لكن اعتدت أنْ أستقبل

الاتصالات من الإمبراطور، وكيف يسيّر أمور تاج مملكته؛ ومن البابا وكيف يحلّ أسرار مفاتيحه».

قال الفلاح: «هذا ليس بالأمر اليسير، وقد سمعت أيضاً أنْ لا أحد يخرج من هنا من دون أنْ يقتنع بما قد سمعه».

حين قال الفلاح ذلك، لاحظ أنّ سيدة – أولفوسا عضّتْ على شفتها، وابتعدتْ أكثر عن الدكة: «نعم، هذا ما سمعته عني، ومن الممكن أنْ تجرّب جيداً وتغتنم الفرصة لتسألني عن الشيء الذي ترغب بمعرفته؛ وسترى بنفسك إنْ كنت أستطيع الإجابة أمْ لا، وبذلك ستكون مقتنعاً».

بعد ذلك لمْ يتردد الفلاح منْ أنْ يحدّد مهمته. فقد قال إنه جاء ليسأل عن تداعيات محافظة أوسترغوتلاند في المستقبل. إذ إنه يشعر أنْ لا شيء أعزّ لديه منْ ولاية مسقط رأسه، وأنه سيكون سعيداً جدّاً حتى مماته إنْ كان يحصل على جواب مقنع عن سؤاله هذا.

قالت السيدة الحكيمة: «أوه! إنْ كان ذلك كلّ ما تريد معرفته؛ في هذه الحالة إنني أعتقد أنك ستكون مقتنعاً. من هنا، إذ تراني، أين أجلس الآن، أستطيع أنْ أخبرك بشيء مشابه لمدينتك أوسترغوتلاند: إنه شيء ما تفتخر به مباشرة في محافظات أخرى».

أجاب الفلاح: «نعم، هذا جواب رائع يا سيدتي، وأنا أشعر الآن تماماً بالطمأنينة إنْ عرفت فقط كيف يمكن أنْ يكون مثل هذا ممكناً».

قالت السيدة – أولفوسا:«لم لا يكون هذا ممكناً؟» ألا تعرف أنّ أوسترغةتلاند جرى تجديدها مؤخراً؟ أوَلا تعتقد أنّ هناك في السويد مواقع يمكن أن نفتخر بامتلاكنا لها. في الوقت ذاته، هناك ديْران أحدهما في مدينة ألفاسترا Alvastra والآخر في مدينة فريتا Vreta، فضلاً عن كاتدرائية جميلة في لنْشوبنْ «Linkopen».

قال الفلاح: «يبدو أنّ الأمر هكذا. لكنني رجل عجوز، وأعرف أنّ عقول الناس قابلة للتغيير، وأخشى أنْ يأتي زمن لا يخلّفون لأحفادهم أيّ مجد؛ سواء في مدينة ألفاسترا أو فريتا، أو حتى في الكاتدرائية».

قالت السيدة – أولفوسا: «هنا ربما كنت على حق، ولكنْ لا تحتاج إلى نبوءة عن وجهة النظر تلك، وإنني الآن بصدد بناء ديْر في فادستينا Vadstena وهذه ستكون أكثر قدسية في شمال

السويد. سواء في الأراضي المرتفعة أو الأخرى المنخفضة سيؤمهما الحجاج. وستطلق أناشيد التسبيح للمقاطعة لأنهما مكانان مقدّسان جداً ضمن حدودهما».

أجاب الفلاح أنه مسرور جداً أنْ يسمع هذا، ولكنه عرف أيضاً بالطبع، أن كلّ شيء آيل للفناء؛ وكان مندهشاً جداً ومتسائلاً عما سيضفي مجداً على هذه الولاية إذا كان دير فادستينا Vadstena سيسقط ذات يوم ويفقد سمعته.

قالت السيدة – أولفوسا: «إنه ليس من السهولة بمكان إقناعك، لكن من المؤكد، أنني أستطيع أن أنظر بعيداً بما فيه الكفاية لأخبرك قبل أن يفقد دير فادستينا عظمته، أنه كان مجاوراً لقلعة منتصبة كانت أروع صرح في ذلك الزمن، وغالباً ما يكون الملوك والأمراء ضيوفاً عليها، كما تستأثر بشرف ضيوف المحافظة كلها وهي تملك هذا المجد».

قال الفلاح: «إنني مسرور جداً أنْ أسمع هذا، لكنني رجل عجوز، وأنا أعرف كيف يتحول هذا عموماً مع أمجاد العالم هذه. لكنْ إنْ تحوّلتْ هذه القلعة إلى أنقاض، فإنني أتساءل هنا كثيراً ما الذي يجذب انتباه الناس إلى هذه المحافظة؟».

قالت السيدة – أولفوسا: «إنّ ما تريد أنْ تعرفه ليس بالقليل، لكنّ من المؤكد أنني أنظر بعيداً في التطلّع للمستقبل لأتأكد إنْ كانت هناك حياة وحركة في الغابات حول محافظة فنسبونغ Finspang. وكيْ أرى كيف تنهض الكابينات ومحلات الحدادة هنالك، وأعتقد أنّ المقاطعة ذات شأن لأنّ الحديد سيكون مسبوكاً في حدودها».

بدا الفلاح مسروراً حين سمع كلامها هذا. ولكنْ إنْ ساءت الأمور، فإنّ حتى مسبك محافظة فنسبونغ قد تقلّ أهميته، وبعد ذلك سيكون من الصعوبة حين ينهض أي شيء جديد أن تفتخر به محافظة أوسترغوتلاند.

قالت السيدة –أولفوسا:«لكنني أنظر بعيداً إلى المستقبل وألاحظ شاطئ البحيرة، والمزارع العظيمة، الواسعة كما القلاع، التي بناها النبلاء الذين شاركوا في الحروب خارج الحدود. وأعتقد أنّ المزارع ستجلب إلى المقاطعة تماماً أكثر سمعة من أي شيء آخر كنت قد ذكرته».

وألحّ الفلاح: «ولكن إنْ جاء وقت لا مجد فيه للمزارع العظمى؟».

قالت السيدة: «يجب أن تكون سلساً في كل الحالات، فإنني أرى أنّ الربيع سيتحول إلى

فقاعة فحسب، في مروج ميديفي Medevi، منْ قبل شواطئ فيتيرن. وإنني أعتقد أنّ الينابيع في ميديفي ستحول الأرض أكثر مجداً كما كنت ترغب سابقاً».
قال الفلاح: «تلك الأشياء العظيمة هي التي نعرفها، ولكن إذا جاء زمن يبحث الناس فيه عن صحتهم في ينابيع أخرى؟».
أجابت السيدة –أولفوسا: «في هذه الحالة عليك ألا تجزع من هذا الموضوع، فإنني أرى الناس يحفرون ويعملون منْ موتالا Motala إلى ميم Mem. إنهم يحفرون قناة في المدينة وسيكون مجد أوسترغوتلاند على كل شفة؟».
ولكن، رغم ذلك، فقد نظر الفلاح بقلق.
قالت السيدة أولفوسا: «وأرى أنّ المنحدرات في نهر موتالا بدأت تسحب العجلات، – والآن ثمة موقعان أحمران يبرقان ينعكسان على خدودها، لأنّ صبرها بدأ ينفد – فقد سمعت أنّ هناك مطارق تردد صدى في موتالا، وطقطقة نول الأنسجة في نورشوبنغ».
قال الفلاح: نعم، رائع أنْ نسمع هذا، ولكنْ كلّ شيء سائر إلى الهلاك، وإنني أخشى أن هذا أيضاً يمكن أن يكون نسيّاً منسيّاً».
عندما لم يقتنع الفلاح حتى هذه اللحظة، نفد صبر السيدة. قالت: «إنك قلت إنّ كلّ شيء ذاهب إلى فناء، ولكنْ الآن، سأسمي شيئاً دائماً ما يكون مثل نفسه؛ وهذا كما لو أنه غطرسة ورؤوس فلاحين خنازير كثيراً ما تجدها في هذه المقاطعة – حتى نهاية الزمن».
وبصعوبة أنهت السيدة أولفوسا كلامها قبل أنْ ينهض الفلاح سعيداً وممتنّاً وشكرها لأجوبتها الجيدة. أخيراً، قال إنه مقتنع. ومنْ ثم قالت السيدة أولفوسا: «منْ دون شك، إنني أفهم الآن كيف تنظر إليها».
نطق الفلاح: «حسناً، إنني أنظر إليها بهذه الطريقة، يا سيدتي، إنّ كلّ شيء إنْ كان الملوك أو القساوسة أو النبلاء أو التجار يبنون وينجزون، وبإمكانهم أنْ يتحملوا لسنوات قليلة فقط. لكن هناك دائماً فلاحين مثابرين وقادرين على الحب والاحترام في أوسترغوتلاند، ومن ثم أنا أعرف أيضاً أنّ هذه المدينة قادرة على الحفاظ على مجدها القديم. لكنْ هنالك فقط الذين يستطيعون الانحناء للعمل الدائم بالتربة، الذي يستطيع أن يجعل منْ هذه الأرض ذات سمعة جيدة وكرامة – من زمن إلى آخر».

الفصل الواحد والعشرون
نسيج القماش الصوفي

السبت، الثالث والعشرون منْ نيسان/ أبريل.

ركب الصبي واتجه إلى الأمام – حلّق في الهواء. كان أسفله سهل أوسترغوتلاند العظيم، جلس يعدّ الكنائس البيض العديدة التي سمتْ فوق بساتين مورقة حولها. لمْ تكنْ طويلة حتى وصل في عدّها إلى خمسين كنيسة. بعد ذلك، شعر بالاضطراب ونسي العدّ.

كانت جميع المزارع قد بنيتْ على شكل منزل منْ طابقين كبيرين مطليين بطلاء أبيض، تبدوان مهيبتين إلى حدّ لم يستطع فيه الصبي أنْ يبدي إعجابه بهما، قال في نفسه: «لا يمكن أنْ يكون في هذه الأرض أيّ فلاح لمْ يرَ أيّاً منْ هذه الحقول».

صرخ الإوز البرّي كلّه فجأة: «هنا يعيش الفلاحون كما يعيش السادة المحترمون! هنا يعيش الفلاحون كما يعيش السادة المحترمون!».

اختفى الثلج والجليد في هذه الحقول، وبدأ عمل الربيع، تساءل الصبي: «أيّ صنف من السلطعونات الطويلة التي تزحف على الحقول هذه؟». أجاب الإوز البرّي: «محاريث وثيران! محاريث وثيران!».

تحرّكت الثيران ببطء شديد في الحقول، ومن النادر أنْ يدرك المرء أنهم كانوا في حركة، صاح الإوز البرّي: «لنْ تستطيعوا المجيء إلى هنا قبل بداية السنة القادمة! لنْ تستطيعوا المجيء إلى هنا قبل بداية السنة القادمة!». لكنّ الثيران يصلحون للعمل في كل المواسم. فقد رفعوا الكمامات في الهواء وجأروا: «إننا نقدم الأفضل في ساعة واحدة أكثر مما تعملون أنتم في حياتكم كلّها».

وفي أمكنة قليلة تسحب الخيول المحاريث، وتذهب بعيدة بلهفة أكثر وأسرع من الثيران مباشرة؛ بيد أنّ الإوز البرّي راح يغيظهم أيضاً بصياحه: «ألا تخجلون منْ أنفسكم أنْ تقوموا بدور الثيران؟ ألا تخجلون منْ أنفسكم أنْ تقوموا بدور الثيران؟». ردّت الخيول ساخرة منهم بصهيلها فقط.

وبينما كانت الخيول والثيران تعمل في الحقول، راح كبش الإصطبل يتنزه حول الباحة. كان

قد جزّ صوفه مؤخراً، كان نزقاً، ويصطدم بالأطفال الصغار، يطارد كلب الراعي في وجاره، يتبختر كما لو أنه اللورد الوحيد في المكان كلّه. سأل الإوز البرّي الذي كان يمتطي الهواء: «يا رامي، يا رامي، ماذا تفعل بصوفك؟» أجاب رامي بثغاء طويل، كاد أنْ يستنزف نفسه به: «إنني قد بعثت إلى مصنع نسيج الصوف في نورشوبنغ». وسأل الإوز البرّي: «يا رامي، يا رامي، ماذا تفعل بقرنيك الاثنين؟». لكن رامي، لا يملك أيّ قرن البتّة، يا لأسفه، وليس هناك إهانة عظمى أكثر من السؤال عنْ قرْنيه. وهو يركض حول الباحة طوال النهار لوقت طويل، يتناطح مع الهواء بغضب كما هي عادته.

وعبْر طريق البلد، جاء رجل يسوق قطيعاً منْ خنازير لم يكن عمرها أكثر منْ أسابيع قليلة، ويجب بيعها في المدينة. وكانت تهرول بشجاعة، بعد قليل، حافظت على تقاربها مع بعضها البعض كما لو أنها تبحث عن حماية: «نفْ، نفْ، نفْ، جئنا مباشرة وحالاً من والد ووالدة. نفْ، نفْ، نفْ. ماذا سيكون مصيرنا أيها الأطفال الصغار». اشْتكت الخنازير الصغيرة المسكينة. ولا يملك الإوز مشاعر القسوة لإثارة مثل هذه المخلوقات.

«ومن الأفضل لكم أن تعيشوا أكثر مما تعتقدون». صرخ الإوز بشجاعة، وهم يتجاوزونهم في طيرانهم.

لم يكن الإوز مرحين أبداً كما هم محلّقين الآن فوق البلد المسطّح. ولم يكونوا في عجلة منْ أمرهم في طيرانهم. لكنهم يطيرون منْ حقل إلى حقل، ويمزحون مع الحيوانات الأليفة.

وبينما كان الصبي طائراً فوق الحقل، فكّر في الأسطورة التي قد سمعها قبل مدة من الزمن. لمْ يتذكرها تماماً الآن، لكنها كانت شيئاً عنْ زيّ نسائي، كان نصفه مصنوعاً منْ قماش حرير مطرّز بالذهب، والنصف الآخر منْ نسيج صوفي. بينما هو ينظر إلى محافظة أوسترغوتلاند لأنها تكوّنت منْ سهل واسع يقع بين طريقي غابة جبليّين –أحدهما يقع في الجهة الشمالية، والآخر في الجهة الجنوبية. وهناك، تقع الغابتان المرتفعتان. ويبدو الطريقان أزرقين جميلين ويومضان مع انعكاس ضوء الصباح؛ أما السهل الذي يتسع ليصل إلى أحد الحقول الجرداء في فصل الشتاء، فهو أكثر جمالاً من النسيج الصوفي.

لكنْ ينبغي على الناس الذين يعيشون في الحقل أنْ يكونوا قانعين، لأنّه كان كريماً ومعطاء معهم، لذا جربوا أنْ يزينوا ذلك السهل بأفضل طريقة ممكنة. وإلى الأعلى – حيث طار الصبي راكباً إحدى الإوزات – اعتقد أنّ تلك المدن والحقول، والكنائس، والمصانع، والقلاع،

ومحطات سكك الحديد التي تخطّاها منتشرة مثل حلي، وتلمع السطوح وألواح الشبابيك كجواهر. طرق المدينة الصفراء، وسكك الحديد المشرقة، وجريان مياه القنوات الصفراء بين الضواحي تبدو كحلقات مطرّزة. وتقع مدينة لنشوبين حول كاتدرائيتها كلؤلؤ مصفوف حول حجر كريم؛ أما الحدائق في المدينة فهي تشبه الدبابيس والأزرار. وليس هناك شيء منظم بين هذه النماذج لكنها تعرض لعظمة لا يملّ منها الإنسان.

وغادر الإوز مدينة أوبيرغ Operg ثم سافروا باتجاه جهة الشرق عبر قناة غوتا Gota Canal. هذه المدينة يبدو أنها تهيئ نفسها لفصل الصيف. راح العمال يشيّدون ضفاف القنوات ويزفّتون البوابات الكبيرة المغلقة. وكانوا يعملون في كل مكان لاستقبال فصل الربيع بما يليق به، حتى في المدن. وهناك بنّاؤون وصباغون يقفون على سقّالات ليصنعوا جمال منظر البيوت الخارجي بينما الخادمات ينظفن النوافذ. وباتجاه الميناء فإن الزوارق البحرية والبخارية قد تم تنظيفها وتحضيرها بكامل زينتها.

أما في نورشوبنغ Norrkoping، فقد غادر الإوز البرّي السهل، وطار باتجاه كولموردن Kolmarden. وبقوا لفترة يتبعون في طيرانهم طريق المدينة ذات التلال والمنحدرات ثم اتخذوا مساراً إلى الأمام أسفل جدران جبلية – حين أطلق الصبي صرخة مفاجئة. كان جالساً ويؤرجح قدميه نحو الخلف والأمام، ما أدى إلى انزلاق حذائه نحو الأسفل.

وراح يصرخ: «يا ذكر الإوز، يا ذكر الإوز، سقط حذائي!». استدار الإوز وغاص نحو الأرض؛ في هذه الأثناء شاهد الصبي طفلين يمشيان عبر الطريق والتقط أحدهما حذاءه. وصرخ الصبي بحدّة: «يا ذكر الإوز! يا ذكر الإوز! عودوا إلى طيرانكم! لقد تأخرتم. أنا لن أستطيع أن أستعيد حذائي الآن».

ووقفت أوسا صامتة فترة طويلة – متحيرة كيف تجد الحذاء. أخيراً، قالت بهدوء وبتأمل: «هل تتذكر الأخ مات الصغير حين تجاوز دير أوفيد، وقد سمعنا أن الفلاحين في ساحة المزرعة قد شاهدوا قزماً كان يرتدي بنطالاً جلدياً قصيراً، ويلبس حذاء خشبياً في قدميه، مثل أي عامل آخر؟ وهل تتذكر حين جئنا إلى فيتسخوفله وكانت هناك فتاة أخبرتنا أنها قد شاهدت غو نيزا Goa – Nisse التي كانت تلبس حذاء خشبياً والتي كانت تطير على ظهر إوزة؟ وحين كنا نحن قادمين من المنزل إلى كابينتنا، يا مات الصغير، ورأينا عفريتاً كان يرتدي زيّاً وحذاء، وكان يركب على ظهر إوزة كقزم وطار بعيداً. وربما كان القزم ذاته الذي ركب على ظهر إوزته طويلاً هنا في الهواء ثم سقط حذاءه».

قال مات الصغير: «نعم، ربما يكون هو».

أعادوا الحذاء الخشبي ثم فحصوه جيداً – ولم يكن كل يوم يصادف فيه المرء أن يجد حذاء على الطريق السريع عبر غابة غو نيزا.

قالت الإوز أوسا: «انتظر، انتظر، يا مات الصغير! هناك كتابة على أحد جانبي الحذاء».

قال مات: «لكن حروفها صغيرة، لماذا كتبت هكذا».

قالت أوسا: «دعني أر! تقول – الكتابة، تقول الكتابة –: نيلز هولغيرسون من دبليو. فيمينهيغ».

قال مات الصغير: «هذا أغرب شيء قد سمعت به في حياتي حتى الآن!».